فاطمة المرنيسي

السلطانات المنسيات

نساء رئيسات دولة في الإسلام

ترجمة

جميـل معلّـى و عبد الهادي عباس

السلطانات المنسيات

نساء رئيسات دولة في الإسلام

دار الحصاد للنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ برامكة ـ جانب وكالة سانا

هاتف : ٢٢٤٦٣٢٦ ـ ص . ب : ٤٤٩٠

فاكس ٢٢٤٦٣٢٦

الطبعـة الأولـى ١٩٩٤

تنضيد وإخراج دار الحصاد

مقدمة

لعلَّ أشد أنواع المعاناة التي تتعرض لها الشعوب في الفترات العصيبة والشاقة من حياتها كما هو حالنا اليوم هو ذاك إلتنافر الشديد في الرؤى الفكرية التي تحاول رسم مسار حياة الأمة نحو الأفضل . تنافرٌ قد يبلغ حداً يُعطّلُ فيه توازن المجتمع وتُشَلّ حركته لما يسيطر فيه من حدّةٍ وتعصب يصلان في أحيان كثيرة إلى حد التكفير والتجريم الذي يمارسه كل طرف على غيره وإلى حد يُخرج وسيلة العنف من مخبئها لتكون أداة الإقناع الوحيدة وشطب الآخرين . وكم تكون الكارثة مروعة حينها ، فالمغلوبون يدخلون عالم الإحباط واللامبالاة القاتلين ، ويصبح المنتصر أسير قوته التي تقوده إلى عالم الملل والتّموُّت وعندها يصبح المجتمع بلا قوة تحميه .

وضمن سياق هذا التوتر والتنافر تدخل مسألة النظر إلى الماضي ، ماضي الأمة . فمن نظرة قدسية لاتقبل تناول الماضي إلاّ بالتقريظ ، إلى نظرة أخرى لاترى ضرورة تناول أخطاء الماضي في هذه المرحلة بالذات من الانكسار لئلا نزيد من إحباط المجتمع . ثم هناك النظرة اللامبالية بل التي لاترى في الماضي إلاّ أخطاءه التي تؤكد مقولة الاستسلام والعجز .

إننا ونحن نقدم هذا الكتاب المثير للكاتبة فاطمة المرنيسي والذي يأتي بعد كتابها (الحريم السياسي - النبي والنساء) والتي تلامس فيهما مواضيع حساسة وبجرأة مثيرة للانتباه مابين مؤيد ومعارض ومراقب ، إننا نحب وفي هذه المرحلة بالذات أن نلفت الانتباه وبقوة إلى الأمور التالية:

١ - إن ماضي أي مجتمع هو كحاضره وليد بيئة وظروف معقدة يستحيل معها ألّا تكون أخطاء هنا وهناك . وأنَّ من يرون في أخطاء ماضينا ما يحقق مقولتهم أننا وحدنا المبنيون على الخطأ حاضراً وماضياً وأنَّا لهذا أمة بائسة - هم واهمون حقاً - فلا حياة دون أخطاء .

٢ - يتوهم من يعتقد أن تفوق الشعوب المتقدمة في عصرنا الراهن جاء من ماضيها المقدس أو المشرق الخالي من الأخطاء . إنه لعلى العكس من ذلك كان مليئاً بالأخطاء والمآسي التي وصلت في أحيان كثيرة إلى حد مخجل ومقرف لكثرة ما مُورس فيه من جرائم . لنتذكر على سبيل المثال لاالحصر مايُسّمى بالعصور المظلمة (العصور الوسطى) في أوروبا وأن أحد المجامع الكنسية في أوروبا شكَّك بوجود روح عند النساء ، لنفتح أية موسوعة تاريخية من موسوعات الغرب وعندها لاأعتقد أن من يتشاءم من أخطاء ماضينا سيجد نفسه في وضع مريح إزاء تصوره ولابد له من أن يستعيد توازنه .

ويتوهم أكثر من يظن أن نهضة الشعوب الغربية جاءت على طبق من ذهب أو انها تحرَّجت من تناول تاريخها بالنقد . بل لقد وضعته على المشرحة دون خوف أو وجل وأزاحت ما استطاعت من جوانب الخلل فيه كي لا يستمر في مسيرتها ، وقد ترافق هذا بأقصى أنواع الصراع . زُهقت أرواحٌ كثيرة وصُفِّيَتْ عقولٌ جبارة بعنف ولانظن أن سيرة محاكم التفتيش المرعبة تخفى على مثقف . وقصة (غاليليه) وكروية الأرض معلومة لدى

كافة من يُفترض أنهم مثقفون . ولمن ينتابهم الخوف والذعر والإحباط من القمع في أمتنا ماعليهم إلّا أن يتذكروا ما الذي جرى حتى في الأمس القريب عند هذه الشعوب المسمّاة قوية اليوم ، أن يتذكروا أنَّ طوابيراً وأرتالاً من الناس كانت تُجمع وتُصفّ في ساحات الإعدام وعلى مرأى من الجميع . ليتذكروا فقط أن حصيلة إعدامات مرحلة قصيرة بلغت (١٠٠٠٠٠) مئة ألف نفس بشرية في بلد واحد كبريطانية (العظمى) لسبب واحد هو رفضهم تحويل أراضيهم إلى مراع كي تجد مصانع الغزل الحديثة حاجتها من الأصواف . ورغم كل تلك الأهوال والتضحيات التي تكاد لا تُصدّق ، لم تستسلم هذه الشعوب وظلت تكافح بشموخ إلى أن استطاعت أن تُخرج من وسط الركام عقلاً جباراً جماعياً مدبراً تغلّب على التعصب وبنى قوته من كل الآراء وراح يمد نفوده كالطوفان ليملك الأرض كلها ولحدٍّ صار فيه خطراً . إنه يحاول اختراق المجرّات ، إنه يحاول محو الآخرين من الوجود ونحن على رأس القامة .

٣ ـ ونود هنا أن نُذكّر المتشائمين ومن تماوتت نفوسهم أن لنا تاريخاً حيوياً يضرب جذوره في الأعماق البعيدة من الزمان والمكان إلى درجة نعتقد معها بجزم أنه يصعب شطبنا . وبالمقابل نود ألاّ يستمر الآخرون في المساهمة في الإنقاص من مكانة أمتنا بالانسياق وراء الأفكار التي تحاول أن تجردها من كل الإبداعات الإنسانية التي قدمتها في مناحي الفكر البشري والحياة وذلك بعزوها إلى عالم خارجي ، عالم سماوي لادخل لنا به ، محاولين قلب الفكرة الجوهرية التي تقولُ بأن الله لايرسل مبعوثيه إلى مكانٍ ما مالم يصبح سكانه مؤهلين لتفهُّم المُهمة الرائعة أكثر من غيرهم وأنهم قادرين على أن يحملوا الرسالة ويخطوا سفراً جديداً في الحياة الإنسانية .

وإذا كان عصر القداسة قد مضى وأنهى الله مسألة إنزال الرسل إلى الأرض إلى يوم البعث فهل ننتظر ذلك اليوم ليعيد الرب الحياة إلى رفاة

شعب لم يستطع الدفاع عن نفسه؟ أم ننهض متكئين على أعمدة القوة المستمَدَّة من أعماق الزمان والمكان ، من أول كتابة في التاريخ وأول أبجدية مروراً بالمراحل التي اكتسى فيها نُضجُ تاريخنا صفة القداسة ، وبرؤيا راهنة متفتحة على كل المستجدات ؟ وعندها نستعيد مكاننا في مركز هذا العالم ونوقف طغيان العقل الآخر ونصححه فهو رغم فيوضاته يعتوره الفساد الذي يوشك أن يصبح مدمراً إن لم يخرج له عقل جديد يوقف طغيانه وفوضاه .

٤ ـ نعتقد أن ماضينا بكل تنوعاته ، في النجاحات كما في الإخفاقات هو ملك كل فرد وليس لأيٍّ منا أن يستأثر بالجيد ويتنصل من السيء . وتأتي الملكية المشتركة للتاريخ من فكرة أنه لايستطيع أي فرد إثبات أن سلسلة كل جدوده كانوا في اتجاه واحد ، إن على صعيد الفكر الاجتماعي أو المذهبي أو أنهم لم يشاركوا في اتجاهات متضاربة . ومن هنا نجد أنه ليس من مصلحة أي فرد عاقل أن يتناول تاريخ أمته من زاوية كيدية لأنه يكون حينها كمن يتناول نفسه ولا يقبل هذا سوى المجانين . لذا نجد أن قراءة الماضي ينبغي بالضرورة أن تدفع كل المفكرين للمشاركة في الأمر ولايضير اختلافهم بحثاً عن جوانبه المتعددة ، أين أصاب الأجداد وأين أخطؤوا ، كيف عالجوا حياتهم وكيف تصارعوا مع النفس ومع الآخرين .

يبقى أخيراً أن نعود إلى موضوع هذا الكتاب الذي يتناول بالدراسة والتحليل محطات من تاريخنا العربي والإسلامي فهو قد يكون مثيراً لتناوله جوانب حساسة . وقد يرى القارئ حيناً أن الكاتبة تتحامل على هذا الطرف أو ذاك لما تُظهر من سلبيات لديه لكن لايلبث أن يرى أنها تُمجّد وبقوة الجانب الإيجابي عنده . وهي رغم تركيزها على المحور الأساسي محور المرأة ومكانتها في تاريخنا العربي والإسلامي كما هو شأنها في كتابها (الحريم السياسي) ، رغم ذلك تعرج على جوانب عديدة قد تجلب المتعة في

كثير من الأحيان . فهي تنقلنا إلى أماكن وأزمنة متباعدة فيها من الأحداث الطريفة ما قد يكون جديداً لدى قسم كبير من القراء . وفي معرض مناقشاتها تظهر غيرتها القومية في تفنيد ما يلصق بقومها من تُهم ومحاولات تغييب دوره في الحياة الإنسانية والتعتيم على المحطات الرائعة في تاريخه التي ينبغي الإستمرار في تطويرها . وفي مقدمتها تلح الكاتبة على الفصل بين الروحاني والأرضي ، بين السُمو الذي يمثله نُضج الأمة وإرفاده بالقوة العليا وبين حالات التداعي .

ولا يسعنا في الختام إلاّ أن نشير الى تلك الحالة التي غالباً ما تواجه قسماً كبيراً من القراء في مرحلتنا الراهنة ، على امتداد منطقتنا العربية ، الحالة المتمثلة في التعامل مع ما يطرح من أفكارٍ جديدة في بعض الكتب . فمن جرّاء (التعب) الذي نعانيه والناجم عن الاحباط الشديد في قضايا عديدة ، نندفع بسرعة ، إمّا الى تقبل هذه الأفكار كلية وإما الى رفضها كلية . وفي كلتا الحالتين تأتي النتائج مخيبة . انه لمن الأهمية بمكان لا بل من الضروري تماماً /حسب اعتقادنا/ أن نحافظ على هدوئنا ونحن نقبل على قراءة مثل هذا النوع من الكتابات ، ونُعمل عقلنا في تتبّع وتفحص دقيقين لما يُطرح .

الناشر

المقدمة

هل كانت بينازير بوتو هي الأولى؟

بعد نجاح **بينازير بوتو** في الانتخابات التي جرت في الباكستان بتاريخ ١٩٨٨/١١/١٦ وتوليها رئاسة الوزراء ، رفع كل أولئك الذين يعتبرون انفسهم متحدثين باسم الإسلام ، وبخاصة السيد **نواز شريف** رئيس حزب الاتحاد الديمقراطي الإسلامي ، رفعوا لواء حملة الشتيمة والسباب : ياللفظاعة ! لم يسبق مطلقاً في دولة مسلمة أن تولت امرأة قيادها . . ! وقد استنكروا ماعتبروا أنه يشكل بدعة مخالفة لطبيعة السنة الإسلامية . فالقرار السياسي عند أسلافنا ، لم يصدر عن غير المذكر . وكانت قيادة الدولة والحكومة ، دائما ، وفي كل مكان بدون انقطاع خلال خمسة عشر قرنا من تاريخ الإسلام ، من السنة الأولى الهجرية (٦٢٢ م) إلى السنة ١٤١٠ هـ ـ ١٤١١ هـ (١٩٨٩م) من الهجرة ، امتيازاً محتكراً للذكور فقط[١] . لم تصل أبداً امرأة إلى العرش في الإسلام ، ولم تتوصل أية امرأة

---

١ ـ سنة التقويم الاسلامي تتطابق مع السنة ٦٢٢م التى هاجر فيها الرسول من مكة مدينته الاصلية إلى المدينة . و هي سنة رمزية اختيرت لانه بدأ فيها ادارة اول جماعة اسلامية ، وسنة ١٩٨٩م تتطابق مع سنة ١٤١٠ ـ ١٤١١هـ ، وأشهر تقويم السنة الاسلامي تحسب بصفتها أشهراً قمرية ، فهي أقصر من الأشهر الشمسية . ←

إلى قيادة الدولة ، كما يقول لنا الناطقون باسم الاحزاب التي تطالب بالاسلام ، وتجعل من دفاعها عنه حصان معركتها ضد المسلمين الآخرين . وبما أن أية امرأة لم تتول قيادة الدولة الإسلامية على امتداد هذا التاريخ ، فإنه في رأي هؤلاء ، لايمكن لبنازير بوتو ان تطالب بمثل هذه القيادة(*) .

كل الصحافة ، في الغرب كما في الشرق ، عكست هذه الحجة ، دون أن تحدد بوضوح كيدية هذا الحادث . فالساسة الباكستانيون لم يرجعوا إلى السنة الإسلامية إلّا بعد فشلهم في الانتخابات(٢) . ومن المفارقة في هذا الشأن ، أن قادة الاحزاب الذين يستندون إلى الإسلام كالسيد نواز شريف ، قبلوا لعبة الانتخابات كقاعدة ، أي الديمقراطية البرلمانية الديمقراطية المستمدة من الوثيقة العالمية لحقوق الانسان ، حيث تعتبر الانتخاب القاعدة الأساسية للسلطة السياسية . فكيف يمكنهم والحالة هذه ، بعد نجاح مرشح انتخب ديمقراطيا ، الاستناد إلى شيء غريب عن هذه الساحة : الماضي والسُّنَّة ؟ . قلما استطاع مرشح فرنسي أو الماني أو اميركي فشل في الانتخابات ، من اللجوء إلى الماضي ليطلب سحب الثقة

← فكل سنة قمرية تنقص بضعة أيام عن السنة الشمسية .

(*) - يحسن التذكير هنا ان بنازير بوتو قد نجحت للمرة الثانية على رأس حزبها حزب الشعب في الانتخابات التي جرت في منتصف تشرين (١) لعام ١٩٩٣ في الباكستان وصار من الطبيعي ان تكلف بتشكيل الوزارة ، واما نواز الشريف فقد فشل مع حزبه وهو الآن يقود المعارضة .

٢ - حزب الاتحاد الديمقراطي الاسلامي L I D A ، حزب السيد نواز الشريف لم يحرر سوى ٥٥ مقعداً .
وأما حزب الشعب الباكستاني حزب السيدة بنازير بوتو فقد حصل على ٩٢ مقعداً من اصل ٢٠٧ ممن انتخبوا مباشرة . ومجموع المقاعد هي ٢٣٧ احتجز منها ٣٠: ١٠ للأقليات وبخاصة الاقليات المسيحية ، و٢٠ للنساء .

من خصمه ، ويلغي بذلك نتائج التصويت . وليس هذا عبثياً فحسب ، وإنما غير مقبول ابداً . فكيف يمكن اذن تفسير قدرة رجل سياسة مسلم ، فشل في انتخابات عامة أمام امرأة ، على إشهار سلاح الماضي وإظهار السُنَّة كسلاح لحرمان خصمه ؟ وعلى أية ارضية سياسية يكون هذا ؟ .

إن القول بأن السيدة بوتو لاتستطيع قيادة الدولة الباكستانية رغم انتصارها في الانتخابات ، إنما يعني ترك مسرح السياسة الديمقراطية البرلمانية للانزلاق باتجاه مسرح آخر لايكون فيه التصويت أساساً للمشروعية . إنه العبور من فضاء عهد سياسي إلى فضاء آخر جاذب ، حالما تظهر في الأفق امرأة مسلمة .

إن السيد نواز شريف وأنصاره ، ماكانوا ليستطيعوا شن مثل هذه الحملة ضد مرشح ربح الانتخابات إن كان يدعى حسناً أو محمداً . إذن ، على مستوى المبدأ ، فالمشهد المزدوج ، والالتباس (الحامل دائماً للعنف في مادة الحق) لايوجدان ، إلّا عندما يتعلق الأمر بالمرأة .

في هذا الكتاب ، لا أدعي أبداً حل لغز المشهد المزدوج ، ولا المعالجة بالتفصيل للالتباس الذي يخيم على الحقوق السياسية للنساء المسلمات ، ولا محاولة اثبات ماهو واضح للناس الشرفاء ، أي الصلة الخفية بين قابلية وحقوق الانسان للحياة ، وصيانة حقوق النساء . وكامرأة مسلمة ملتزمة سأدع هذه الامور الجدية للرجال . أنا أعرف مكاني ، ولا أستطيع الانشغال عمّ يواجهني : الترهات . وهل ثمة أكثر تفاهة من البحث عن نساء لم يوجدن ابداً : النساء اللواتي حكمن الدول الإسلامية ما بين ١ هـ و ١٤١٠ هـ ؟ ؟ . إن المغامرة بالتحري ، لاسيما التحري الخاص ليست نشاطا رصينا . فقد يُلجأ إلى التحري الخاص ، عندما يُعرف أنه لايمكن الدفاع عن القضية لدى السلطات العامة . ذلك هو ظاهريا ، حال هؤلاء الملكات . ففي الامبراطورية المسلمة الواسعة لم يشغل أحد باله بمصيرهن ،

ولا يبدو أن هنالك سلطة عامة أعارتهن اهتمامها ، ومن جهة اخرى هل ثمة أقل دليل على وجودهن ؟ . أيجلبن خطراً ؟

إن الخيار بسيط . فإما انه لم يوجد أبداً نساء رئيسات للدولة ، وفي هذه الحالة يكون السياسيون الذين أكدوا ان **بنازير بوتو** هي الأولى على حق . وإما أنه قد وجد في الماضي نساء تولين قيادة دول مسلمة ، ولكنهن شُطبن من التاريخ الرسمي ، وأن اخفاءهن يمثل كل مظاهر الاغتيال التاريخي . . ففي الفرضية الثانية هذه ، قد تكون أنت أيها القارىء ، وأنا متحريتك الخاصة جداً ، قد نكون أول من يبني إحدى التطهيرات الأكثر جاذبية في تاريخ الانسانية : تصفية رؤساء دولة مرّت بشكل متوالٍ وبصمت ، مع احتفاظ السلطات العامة باستخفافها التام . كان ذلك في كل مكان ، في العالم الإسلامي كما في عالم الكفار .

فمن أين نبدأ ؟ وهل يبغي أن نأمل بالعثور على جثث الملكات ؟ ؟ وأي الآثار ينبغي التنقيب فيها ؟ ونحو أي القصور نتجه ؟ هل نطير باتجاه آسيا ، هل نغوص في افريقيا ، أو نعبر **جبل طارق** للمغامرة في أوروبا ، كي نرشف سر الجنائن الاندلسية ؟ أنرود قرطبة أم **دلهي** ؟ أننقِّب في صنعاء وجوارها أم نمتطي زورقاً للوصول إلى الجزر الاندونيسية ؟ أنحلّق فوق **البصرة وبغداد** ، ونقوم بجولة في **اصفهان وسمرقند** قبل أن نتورط في سهوب **منغوليا** ؟ . . . . إن الإسلام واسع كبير ينتشر بما لايحد ، وهو كثيف ، في الزمان والمكان . فمن أين ؟ وبأي اتجاه نحاول الوصول إلى الأمكنة الوهمية للملكات المسلمات إذا كن قد وجدن ؟ .

إنّ مسألة الاستقصاء البوليسي المطروح ، تبقى مسألة منهج . . فكيف نباشر استقصاءً من هذا النوع ؟ المشكلة في ذلك هي أن تجربتي محدودة جداً في هذا النطاق . أقرأ القليل من الروايات البوليسية ، غير أني ، حالما يجري اغتيال البطل ، أقفز إلى الصفحات الأخيرة كي اقبض على

المجرم . لكنني اعتقد انه حتى كبار التحريين كانوا سينصحونني بكل بساطة ان اذهب إلى المكتبة . وسواء صدقتم أم لم تصدقوا ، فإنني لم أحتج لكثير من البحث ، فكما في حكاية الجنيات ، كانت ملكات وسلطانات وخواتين يبرزن ببطء من الحفيف الناعم للصفحات المغرية اللون من الكتب القديمة . واحدة فواحدة كن يعبرن القاعات الصامتة للمكتبات ، وفي محاذاة مواكب من الدسائس والاسرار التي لانهاية لها . احيانا كانت اثنتان أو ثلاثة يظهرن عابرات العرش من الأم إلى الابنة في الجزر البعيدة من الإسلام الآسيوي . كُنَّ يدعين : **الملكة أروى** ، **علم الحرة** ، **السلطانة راضية** ، **شجرة الدر** ، **توركان خاتون** ، أو بتواضع أكثر **تاج العالم ونور العالم** الخ . . . بعضهن تَلَقَّيْنَ السلطة إرثاً ، وأخريات أقدمن على قتل الورثة للاستيلاء على السلطة . وكثيرات من تولين القيادة بأنفسهن ، وحتى قيادة المعارك ، تعرضن للفشل ، وأبرمن المهادنات . منهن من منحن ثقتهن وزراء مختصين ، ومنهن من لم يُعْوِلْن الا على انفسهن . كان لكل واحدة منهن طريقتها الخاصة في سياسة الشعب وتحقيق العدالة وادارة الضرائب . بعضهن بقين على العرش لفترة طويلة ، وبعضهن ماكدن يصلن إلى العرش حتى انتهى حكمهن . بعضهن مُتْنَ على الطريقة التي مات بها الخلفاء (الطرق المختارة للخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين الخ . .) أي عن طريق السم أو الاغتيال (القتل بالخناجر) . . ونادرات منهن من متن على الفراش .

بمقدار ماكان عدد الملكات يتزايد ، بمقدار ماكان غمي يتزايد أكثر بصفتي /تحري/ . لو كنت طرفاً في البحث عن النساء رئيسات الدولة ، لما كان بالضرورة أن توجد جميع الملكات اللواتي التقيتهن واللواتي مارسن السلطة . فكيف نُمَيِّز اللواتي حكمن من بينهن ؟ وما هو المعيار الحاسم ، لرئيس الدولة ، رمز أو رموز السيادة في الإسلام حيث لايكون التاج

مقبولاً ، وحيث التواضع هو العلامة الوحيدة للعظمة ؟

قبل استعراض قائمة أولائك الملكات ، والعكوف على حياتهن ، وتصنيفهن ، ربما يتوجب البدء بالاجابة على مسألة هي في آن أكثر تفاهة واكثر جوهرية : كيف ترتبت الأمور للنساء لأخذ السلطة في دول تُعرف السياسة فيها على مستوى المبادىء بأنها محصورة بالذكور ؟ .

ليس هنالك نسوية لا بالنسبة للإمامة ولا بالنسبة للخلافة ، مفهومي السلطة في اللغة العربية ، السلطة التي أشار اليها القرآن . ومعجم لسان العرب يعلمنا ان «الخلافة لاتكون الا للذكر» . وفي مثل هذا السياق ، حيث المبدأ هو مبدأ الحصر ، فإن كل تدخل على ارضية القرار السياسي من قبل النساء ، حتى ولو بشكل مقنَّع ، وفي اروقة الحريم ، وحتى وراء عشرات الأستار ، والحجابات والمشربيات(*) ، إنما هو مغامرة بطولية جديرة بالتقدير . كيف نجحت نساء الازمنة القديمة ، اللواتي يفترض فيهن أنهن أقل تاهيلاً منا ، في حين فشلنا نحن العصريات بشكل مثير للشفقة ؟ . ثمة نوع من قبول اللعبة الديمقراطية في كثير من البلدان الإسلامية ، حيث تُمثَّل الشعوب في مجالس ومؤسسات تعين عن طريق الانتخابات العامة ، وتتوجه ملايين النساء المسلمات إلى صناديق الاقتراع في كل مرة يعلن فيها عن الانتخابات . ومع ذلك فنادرة هي المؤسسة التي تُمثَّل فيها النساء . والبرلمانات الإسلامية و«مجالس الشعب» أو «الثورة» في معظم حالاتها تُماثِل مقصورات الحريم : كلها من جنس واحد . جنس واحد يفكر ويجهد نفسه لتنظيم مسألة الجنس الآخر وفي غيابه ! وبالتأكيد ليس هذا بالطريقة المثلى لحل المشاكل ، لا للجنس الذي يفكر ، ولا للجنس الغائب ، بل إن

(*) ـ المشربية شباك على شكل شبك يجعل من في الداخل يرى من في الخارج في حين لايستطيع من في الخارج رؤية قاطني الداخل .

القليل من المسائل بين الجنسين توجب الحوار .

وفي الوقت ، اللواتي من بيننا يحملن الشهادات الجامعية العالية يعددن بالألوف ، بفضل التربية والتعليم الذي تنفق عليه الدولة - حتى ولو أن هذه التربية ماتزال لاتفيد سوى الاغنياء والطبقة الوسطى - وفي الوقت الذي يفترض فيه اننا أكثر تحصيلاً للمؤهلات واكثر مكراً واكثر تصنعاً فها نحن بأريحية مبعدات عن السياسة . قضيتنا فينا ، تدور في سياق محدد ، حيث المسألة الأساسية هي مسألة المكان . فالنساء يُحدثن خللاً حين يظهرن في المكان الذي لايُنتظرن فيه . ولا أحد عندنا يتوقع رؤيتهن في المكان الذي تتخذ فيه القرارات . واذا كان الرجعيون الباكستانيون قد تعودوا على رؤية كثير من النسوة في حلقات السلطة ، فإنه كان عليهم التصرف برويّة وهم يرون بزوغ خيال **بينازير بوتو** في الأفق . من هنا كانت فائدة اسرار اسلافنا . فما هو سر الملكات اللواتي حكمن ؟ وكيف نجحن في الوصول إلى السلطة دون خوف من الرجال ؟ وماهي الأدوية التي استعملنها لترويضهم ؟ وكيف عاملنهم ؟ فهل ابتعملن الاغراء ، الجمال ، الذكاء أو المال ؟ . إنني أعرف كثيراً من النساء من مختلف دول الغرب والبلدان العربية الأخرى اللواتي هن طموحات سياسياً وجميلات إلى أقصى حد ، وموهوبات بأنواع من الجمال الساحر ولكنهن لايعرفن كيف يتصرفن على المستوى السياسي . ويبدو ان الاغراء سيء التأثير ، مع الزمن الذي يجري ، أو أنه يبور ويكسد لدرجة متدنية . إنني شخصياً ، لم أعرف امرأة اجتازت بواسطة الاغراء العتبة التي تجعل من محظية غير آمنة شريكة في السياسة .

ماهو اذن سر الملكات السابقات ؟ كيف تنقّلن في الحلبة السياسية حيث ان كل امرأة تتحرك فيها تستحق العقاب البشري والالهي ؟ ما أسماؤهن وألقابهن ؟ وهل تجرأن على تسمية انفسهن (خليفة) أو (إماماً) أو

انهن اكتفين بألقاب أكثر غموضاً وأقل اعتباراً . ؟

وتحاشياً لكل سوء فهم وكل تشويش ، فانه من الطبيعي ، في كل مرة اتكلم فيها عن الإسلام دون أي وصف في هذا الكتاب ، فإني اقصد فيه الإسلام السياسي ، الإسلام كممارسة للسلطة ، وأعمال الرجال المدفوعين بمصالحهم ، والمشبعين بالأهواء ، وهو مايختلف عن الإسلام ـ الرسالة ، الرسالة الإلهية ، الإسلام المثالي المدون في القرآن (الكتاب المقدس) . وعندما اتكلم عن هذا الأخير فإنني اعبر عنه بالاسلام كرسالة ، أو الإسلام الروحي . .

القسم الأول

سلطانات ومحظيات

- ١ -

كيف يقال ملكة في الإسلام ؟

تجاه العدد الكبير من الملكات اللواتي لم يتوقفن - في الصفحات الصفراء من كتب تاريخنا - عن منازعة الخلفاء في سلطتهم والسلاطين في عروشهم ، ينبغي بدئيا عرض المسألة الأكثر وضوحاً : كيف يقال ملكة في الإسلام ، في دين ، إن يتحدث في القرآن عن ملكة سبأ ، لايعطيها اسمها الخاص بها أبداً ؟ فهل تسمى الملكات ، بكنياتهن ، بأسمائهن ، بأسماء أزواجهن ، بأسماء آبائهن ، أو أبنائهن ؟ هل لهن حق بألقاب ، وماهي ، إذا لم تكن اللقبان المميزان للاسلام فيما يتعلق بالسلطة : الخليفة والإمام ؟ . مرة أخرى فإن الكلمات سوف تكشف وتوضح ذلك التقييد الذي قولب الذهنيات ، بوعي أو لاشعورياً خلال خمسة عشر قرنا .

انني أبادر إلى القول ، انه حسب معلوماتي المتواضعة ، لم تتوصل مطلقاً أية امرأة لحمل لقب خليفة أو إمام في المعنى المألوف للكلمة ، أي ذلك الذي يؤم الصلاة بالنسبة للجميع ، رجالاً ونساءً . وان أحد الأسباب في مبادرتي هذه ، هو أنني لم استطع الامتناع عن الشعور بالذنب وأنا أعرض السؤال التالي بكل بساطة : هل حدث أن صارت امرأة خليفة ؟ انني اتوقع ان يشكل مثل هذا السؤال بذاته تجديفاً . فبساطة فكرة التجرؤ ،

بصفتي امرأة ، على استنطاق التاريخ تعيش في ذاكرتي ، كما تبرمجت بتربية اسلامية تقليدية ، كتجديف مربك . ففي هذا الصباح المشرق ، ٦/ شباط ١٩٨٩ وعلى بضع خطوات من جامع السنا ، أحد اكبر جوامع مدينة الرباط ، شعرت بنفس مذنبة أن أكون هنالك مع ناظمتي الآلية ordinateur وأنا اشرع في بحث عن النساء والخلافة . آن هذا التجميع الغريب من المصطلحات يُولّد غماً جديداً ويُثيرُ ماينبغي محاولة الإجابة عليه قبل وقت الصلاة . أتمنّى أن يترتب كل شيء قبل الظهر ، حين سيعلن المؤذن أن الشمس قد ادركت كبد السماء . فالنظام يقول ، إن على النساء ان يكن في مكانهن ، والخليفة في مكانه .

لم تحمل أيّة امرأة مارست السلطة لقب خليفة أو إمام . فهل يمكن القول تبعاً لذلك أنه لم يحصل مطلقاً أنَّ امرأة صارت رئيسة دولة في الإسلام ؟ وهل يمكن أن يكون اللقب لوحده معياراً لاستبعادها ؟ إذا اعتمدنا لقب خليفة كمعيار للحكم ، فسوف نقصي غالبية رؤساء الدول ، لأن القليل منهم من حمل هذا اللقب . فلقب خليفة ثمين جداً ، موقوف على قلة هزيلة جداً ، ذلك لأن له بعداً دينياً ومسوحياً . وحتى يومنا هذا ، كما في الماضي ، يرغب كثير من رؤساء الدول الإسلامية في حمل هذا اللقب ، لكن قلة منهم لها الحق به . ومن هؤلاء ملك المغرب ، فهو أمير المؤمنين وخليفة ، ممثل الله على الأرض ، وسليل الأسرة التي ترجع بنسبها إلى النبي .

ولكي نفهم ما هو الخليفة ، ينبغي فهم نقيضه ، السلطان أو الملك . فأي خبير يمكن أن نجده أفضل من **ابن خلدون** ، مفكر القرن الرابع عشر النابه ، (١٣٣٢/٧٣٢ - ١٤٠٦/٨٠٨) الذي شغل وظائف سياسية في أكثر البلدان الإسلامية تقريباً ، من الاندلس إلى مصر ، والذي انسحب من الحياة العامة عندما كان عمره اربعين سنة إلى /أورانيا/ على بضعة أميال من

/تياريت/ في الجزائر ، للتفكير بالعنف و مبررات الطغيان . ؟

لقد كان يعرف عما يتكلم به لأنه ، خلال حياته السياسية في خدمة الامراء ، تعرض إلى الموت مراراً . وقد رأى ان كل معاناة العالم الإسلامي والعنف السياسي الذي يحكمه يتأتى من واقع ان الخلافة ، المهمة الإلهية المميزة في الإسلام ، قد صرفت إلى مُلْكٍ وطغيانٍ جاهلي لايعترف بأي حد له ولايستند لأي شريعة ، إذا لم تكن اهواء الأمير . «أما حقيقة المُلْك ، أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية ، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في احوال دنياهم لحمله اياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من اغراضه وشهواته»(١) . فالخليفة نقيض الملك في المقياس الذي يتعلق فيه الأمر بسلطة تخضع لشريعة إلهية ، الشريعة التي تُفرض على الرئيس نفسه وتجعل أهواءه الخاصة غير مشروعة . ويوضح لنا ابن خلدون أنه بهذا تكمن عظمة الإسلام كنموذج سياسي : فالخليفة مقيدة رغباته وأهواؤه معاقة ، في حين أن الملك لايعترف بأي قانون

---

١ ـ ابن خلدون ـ المقدمة دار الكتاب العربي ، بيروت ـ فصل ٢٥ (في معنى الخلافة) ص ١٩٠ . الترجمة الفرنسية هي ترجمة ج ، سوردون و ل. برشر .
والملاحظ حول هذه الترجمة انها تطرح مشكلة في المقياس الذي ترجمت فيه كلمة الملك «ملكية ثيوقراطية» . وأرى ان مثل هذه الترجمة غير دقيقة وبالأحرى محيرة بالنسبة لمن يريد فهم الاسلام ، لأن الملك ليس له شيء من الثيوقراطية! انه بدقة ، سلطة لاتستند على أي اله ولاعلى أي شريعة ، إن لم تكن أهواء الرئيس ونزواته . فابن خلدون يقارن الملك ، الذي هو بشري أساساً بالخلافة التي هي حكم بايحاء الهي . وعلى ذلك فإن ترجمة ملك بملكية ثيوقراطية ، يعني إضافة بُعد روحي أراد ابن خلدون بوضوح نفيه . ولسوف استعمل اذن هذه الترجمةو ولكنني أضع في كل مرة بدل الملكية الثيوقراطية كلمة ملك بكل بساطة . وعندما أقدر ان الترجمة لم تتوافق تماماً مع النص العربي ، فإنني سوف أقوم بترجمتها حسب فهمي لها ، وفي هذه الحالة لأميل الا على المصدر بلغته العربية . .

علوي . ومن ثم فإن للخليفة مزية أخرى ليست للملك ، فالملك ينشغل بإدارة مصالح الرعية على الأرض فقط ، في حين أن الخليفة ، نظراً لطبيعته الروحانية ، يأخذ أمرها على عاتقه ايضاً في الآخرة . «الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الفرض والشهوة والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[٢] . فالخليفة الذي يحل محل الانبياء رسل الله على الأرض ، تنقصه حرية الملك الطاغية . إنه مرتبط بالشريعة التي تفرض نفسها حتماً على رعاياه ، ولكنها تقيده ايضاً . وهنا ، حسب رأي ابن خلدون توجد جدَّة الإسلام وخصوصيته بصفته نموذجاً سياسياً ، ليس الخليفة مقيداً بالقانون الإلهي فحسب ، بل انه لايستطيع تغييره لأن الامتياز بالتشريع لايعود اليه . فالله هو المشرع بذاته . ومهما كان الخليفة قويا ، لايحق له صنع القانون ، لأن الله هو المشرع ، ومهمة الخليفة هي تطبيق الشريعة[٣] . وطالما أن الخليفة مختلف عن الملك فهل يصح التساؤل مع ابن خلدون ـ الذي عانى من الاضطهاد ـ أين تكمن المشكلة ؟ المشكلة هي أن الخليفة يستجمع بالضرورة المُلك كاحدى مركبات سلطته طالما أنه ينبغي عليه الاهتمام بمصالح الجماعة على الأرض . إن هذا التفصيل هام وذلك لفهم كل هذا الذي سيتبع لاسيما فيما يتعلق بالملكات اللواتي لايستطعن الادعاء سوى بالسلطة الأرضية . فالملك هنا هو صلاحية الرئيس في ارغام الناس باستعمال العنف ، بيد أن الإسلام كنموذج سياسي يحتمي بإخضاع

---

٢ ـ ابن خلدون ـ المقدمة فصل ٢٥ وفي معنى الخلافة ـ ص ١٩٠ و ١٩١ .
٣ ـ المرجع السابق ذاته .

هذا الملك للشريعة (القانون الديني) . فالمسلمون سوف يحتمون من الملك ، الظالم بطبيعته ، اذا وفقط إذا طبقت الشريعة بالحرفية من قبل الرئيس الروحي ، أي الخليفة . لأنه في الخضوع للشريعة توجد معجزة الحكم المثالي : « . . . حتى في المُلْك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع ، فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب واهمال القوة العصبية في مرعاها فَجَوْرٌ وعدوان ، ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية ، وما كان منه بمقتضى السياسية واحكامها فمذموم ايضا لأنه نظر بغير نور الله . .»[٤] في هذا يؤكد ابن خلدون على أن الخلافة مؤسسة خاصة بالاسلام لأنها تربط ارادة الرئيس بالشريعة ، القانون الإلهي ، في حين ان الملك يوجد في كل البلدان الأخرى ، في كل مكان يوجد فيه تجمع بشري قرر أفراده العيش سوية .

الخليفة هو بالتعريف نيابة أحدهم عن آخر . إنه يحل محل النبي في مهمته : بأن يتيح لمجموعة من الناس العيش حسب القوانين الدينية التي تضمن حياة منسجمة على الأرض ، وسعيدة في الجنة . وليس لأي كان ادعاء الخلافة ، اذ ان بلوغ هذا الامتياز يخضع لمعايير دقيقة . وخلافاً لذلك فإن ألقاباً كسلطان المشتق من كلمة سلط (حكم ، سيطر ، ساد) وملك التي لها المفهوم نفسه من القوة المعبرة عن القوة الفظة غير المعدلة بالدين ، يمكن أن يبلغها أي كان[٥] . لهذا يمكن للنساء نيلها لأنها لاتقتضي ولاتعني أية مهمة الهية . ولكنهن لايستطعن مطلقاً ادعاء الخلافة . ولفهم

---

٤ ـ المرجع ذاته ـ وقد اوردناه ، حسبما ورد نصه الأصلي (المترجم) .

٥ ـ لسان العرب ، المعجم الأكثر إمتاعاً ، فهو في آن واحد كتاب تاريخ ، ولغة ، وأدب ويتضمن طرفاً الخ . . . انه سبر مُدهش في ذهنيات عميقة . وهو يضم ستة مجلدات . وُلد مؤلفه ابن منظور في القاهرة في ٦٣٠ / ١٢٣٢ ومات في ٧١١ / ١٣١١ .

هذا ينبغي الرجوع إلى المعايير المطلوبة في ملء وظيفة الخليفة ، تلك (المعايير) التي تكشف سر استبعاد النساء .

حسب رأي ابن خلدون ، قرر العرب ، مع ظهور النبي ، حل مسألة العلاقة المتنازع فيها بين حاكم يفرض نفسه بالقوة وبين المرؤوس الملزم بالطاعة ، وذلك باعتماد قانون **الشريعة** ، التي تربط الرئيس بالمرؤوس . فالرئيس في هذه الحالة يدعى خليفة ، وهو يحل محل **النبي** ، وحالة المرؤوس تتماهى مع حالة المؤمن . وما يربط بين كلا الإثنين ، ويُخضع له إرادة الطرفين هو إيمانهما بهذا القانون ذي الطبيعة الإلهية ، **الشريعة** . ولنتذكر في هذا الصدد ان كلمتي التشريع الجوهريتين في الإسلام ، الشريعة والسنة ، تعنيان الطريقة ، الطريق المرسوم ، ، السبيل : ويكفي اتباعه . فالخليفة ابتكار في تاريخ العرب وامتياز منحهم اياه الله عن طريق نبي عربي ، وأتاح لهم تجاوز علاقة العنف المحتمة بين الرئيس والجماعة . ولهذا فإن قلة من الرؤساء غير العرب من استطاعوا الوصول إلى هذا الامتياز ، أي لقب الخليفة ، في حين أنه كان لأي عسكري يُخضع بلداً ما ، أن يدعي لقب السلطان أو الملك[٦] .

فالنساء لسن وحدهن إذن اللواتي لايستطعن ادعاء لقب الخليفة . وقلة هم الرجال الذين نجحوا في تولي السلطة في العالم الإسلامي ، وتمكنوا من التحلي بها ، و تمتعوا بالمصداقية والاقناع . وأن نفهم مهمة الخليفة ، فسنفهم النظام السياسي الإسلامي كله وكل الفلسفة التي تمتد

---

٦ ـ كل ما أقوله في هذه الفقرة ، بخصوص الامام والخليفة والسلطان والملك يوجد في:
ـ قاموس لسان العرب ، ويكفي الرجوع إلى كلمات سلطان ، ملك ، ، خليفة الخ . . .
ـ ابن خلدون في المقدمة الفصل ٢٥ في معنى الخلافة والفصل ٢٦ حول النتائج المتعلقة بالصفات وشروط المشروعية للخلافة .

فيه ، وبخاصة ، لماذا كان ظهور النسوية في السياسة هو بالضرورة مغذي النزاع . إن ظهور النساء على المسرح السياسي الإسلامي ، الذي ينبغي ان يكون في العادة خاضعاً دائماً لاشراف خليفة ولو كان هذا الاشراف اسمياً في الحالة التي يكون فيها هذا الخليفة فاقداً لسلطته العسكرية ، إن ظهور النساء هذا يثبت أن الأسفلين les inferieurs يحكمون ، وان المتمردين أو العصاة يقودون وان شيئاً ما تعطّل في النظام .

لقد عبر الخليفة المصور لأن ذلك هو حلم بالحكم العادل . وهو يمتلك ـ في الخيال ـ القوة والسلطة الغيبية اللامنظورة . الخلافة هي الحلم الذي تكشّف بصعوبة بالغة أنه قابل للتحقيق بعد وفاة النبي ؛ انها الرؤية الأسطورية لجماعة سعيدة ، تدار مثالياً من قبل خليفة أسير للشريعة الإلهية ومتنور بها . ومهما ظهر الأمر شاذاً فان الخليفة ـ قيل هذا وسيعاد قوله على الدوام ـ لايملك لاسلطة التشريع ، ولا سلطة الاصلاحات القضائية بالتالي ، ذلك لأن الله ذاته هو «المشرع وخالق الشريعة»[٧] . إن الشريعة قد كُشفت مرة واحدة وإلى الأبد ، ولهذا فإن كل تغيير في الحالة الشخصية التي ترجع بكليتها للشريعة ، وكل اصلاح للقوانين حول تعدد الزوجات والطلاق والإرث والتي يثير الاستنكار والغضب في المجتمعات التي تحاول تكييفها مع التوترات والمشاكل اليومية .

حسب **قاموس لسان العرب** ، لاتوجد كلمة خليفة الا في المذكر ولايمكن استعمالها في النسوية ، في حين أن كلمة السلطان والملك ، توجد ، على العكس من ذلك ، في الجنسين . وعلى مايبدو ، إن النحو

---

٧ ـ للاطلاع على ملخص واضح ، وسريع عن الخلافة انظر لويس ميلو «نظرية السنة للخلافة» في مدخل لدراسة القانون الاسلامي ـ طبعة سيري باريز ١٩٧٠ ص ٩٨ ومايليها .

العربي حكم ونظم توزيع السلطة السياسية بين الرجال والنساء . وفي الواقع ، إذا كان لم يوجد ابداً نساء خليفات (على حد علمي) فإن هنالك الكثير منهن كن سلطانات وملكات[8] .

من السلطانات الأكثر شهرة ، السلطانة راضية [9] التي تولت السلطة

---

٨ ـ سوف نرى في الفصل التاسع المكرس لست الملك ، الملكة الفاطمية ، ان هذه بعد خلو السطة الناجم عن الاختفاء الغريب للخليفة الحاكم ، أمسكت بزمام الامبراطورية وحكمت انطلاقاً من حريمها طبعاً . لكن لم يعترف بها رسمياً على هذا النحو ابداً . حتى انها لم تتمكن من الادعاء بأنها ملكة أو سلطانة . وقد اكتفت بحمل هذا الاسم «ست الملك» .

٩ ـ نظراً لأن أحد اهداف الكتاب هو ترشيد التاريخ وتعريته من الأباطيل ، ورفع الصفة الجافة المتحفظة عنه ، وجعله قريباً ومألوفاً ، سأكشف عن مصادري ، وأحددها كما وسأشير بصورة خاصة كيف يستعلم منها الكسالى أو ببساطة المستعجلين . ولإزالة خوف القارئ المتهيّب وتشجيعه على الوصول «مباشرة» إلى الكتب التاريخية الاسلامية هذه التي تهددنا الرجعية بها وتستعملها ضدنا كموانع تشريعية سأبيّن إلى جانب «المصادر الأصولية» النصوص التي تفسر الظاهرة ببعض الفقرات ولاسيما تلك التي تكون جاهزة مباشرة ، سواء أكان ذلك باللغة الفرنسية ، أو العربية أو الانجليزية . وطالما أن جهلنا بالماضي يُستخدم ضدنا ، فيلكن رد فعلنا: قراءة الماضي .

سوف نبدأ بالأزمنة واعتقد أن القارىء ، هو مثلي ، ضائع دوماً عندما يُحاول فهم التاريخ بموجب الأزمنة . إن وضع التقويمين ، التقويم الاسلامي والتقويم الغربي جنبا إلى جنب لن يسهل الأشياء . وفيما يتعلق بأزمنة الأسر الحاكمة والحكام المسلمين وشجرة نسبهم ، أفضل دائما مرجعين ، اعتمدتهما ، هما: الموسوعة الاسلامية وكتاب مؤلف انكليزي / ستانلي لان بول نشر في سنة ١٨٩٣ ، وقد ترجم إلى العربية ونشر بعنوان (طبقات سلاطين الاسلام) في سنة ١٩٨٢ عن الدار العالمية للنشر ـ دون ذكر المكان . وهذا الكتاب عملي جداً وجيد ممّا دفع بالدكتور المصري احمد السيد سليمان الى اعتماده على مايبدو كثيراً ، فقد نشره بكل بساطة تحت اسمه بعد قليل من الاضافات ، وبعنوان تاريخ الدول الاسلامية مع معجم الأسر الحاكمة ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٢

في **دلهي** لسنوات عديدة في سنة ٦٣٤ هجرية ، ١٢٣٦م . وليس ذلك ببعيد عن البنجاب اقطاعة السيد **نواز شريف** ، والمقر العام للأصوليين الإسلاميين الذين يفترض فيهم معرفتهم جيداً للماضي الذي يقدمونه لنا كحاضر . تولت السلطة تقريباً في الظروف نفسها التي تولتها فيها **بنازير بوتو** وذلك بمطالبتها بالعدالة ، أمام الشعب ردّاً على جرم كان ارتكبه السلطان القائم ، وهو شقيقها ركن الدين . وهنالك مؤرخ رحالة شهير يحدثنا عن تولي السلطانة **راضية** للسلطة : هو الرحالة المغربي **ابن بطوطة** . لقد عبر بلادها في القرن الرابع عشر ، تماماً بعد مئة سنة من توليها الحكم ، والذي على مايبدو انطبع في اذهان المسلمين كي يحدثوا به زائريهم . سافر **ابن بطوطة** من **طنجة** ليدور حول العالم . غادر **مكة** في ايلول ١٣٣٢م ليشاهد **بلاد السند** التي ليست سوى مسقط رأس صاحبتنا **بنازير بوتو** . إن وصفه للبلاد ولملوكها يشكل جزءاً من المعلومات الأولية ، وطالما ان كتاب رحلة ابن بطوطة قد سجل «افضل المبيعات» حتى يومنا هذا ، ليس بالمعنى الأميركي للعبارة بداهة ، والتي هي عملية اعلانية لبعض الاسابيع ، وإنما بالمعنى العربي ، أي لكتاب غير جذاب كثيراً ، ذي أوراق صفراء وتجليد مبتذل وبسعر هزيل ، ومع ذلك يبقى يباع قرنا بعد قرن ، بهدوء في ظلال المساجد[١٠] .

هنالك ملكة اخرى حملت لقب السلطانة ، هي **شجرة الدر** حاكمة **مصر** التي تولت السلطة في القاهرة سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠ ، والتي فرضت نفسها كأي قائد عسكري بحسها الستراتيجي ، لأنها ، في أوج الحملة

١٠ ـ ابن بطوطة ـ الرحلة ـ دار بيروت ـ طبعة ١٩٨٥ ص ٤٢٣ ـ وساستعمل بالنسبة للفرنسية ترجمة (ديفرمْري وسانفونيتي) ، ماسبيرو ١٩٨٢ . المرجع عن **راضية** هو في الجزء /٢/ ص ٣٦ .

الصليبية ، حملت للمسلمين نصراً مؤزراً يتذكره **الفرنسيون** جيداً لأنها دمرت جيشهم وأسرت ملكهم **لويس التاسع**(١١) .

مع ذلك فإن الملكات العربيات نادراً ما حملن لقب سلطانة ، وغالباً يُعطيهنَّ المؤرخون لقب **ملكة** . وتجدر الملاحظة هنا فقط أن **راضية** هي كشجرة الدر **تركية** ، وقد توليتا السلطة في أُسر المماليك الذين حكموا في **الهند** ،وفي **مصر** . وفي **اليمن** حملت لقب **ملكة** عدة نساء : **فأسماء وأروى** مارستا السلطة في **صنعاء** في نهاية القرن الحادي عشر . واذا كانت **أسماء** لم تحكم الا لفترة قصيرة وبالاشتراك مع زوجها **علي** مؤسس الاسرة المالكة (الصليحية) فإن الملكة **أروى** ، على العكس من ذلك ، قد احتفظت بالسلطة خلال ما يقرب من نصف قرن ، وقد أدارت شؤون الدولة وخططت استراتيجيات الحرب حتى موتها في ٤٨٤هـ /١٠٩٠م . هذا ويمكن القول ان لقب ملكة هو مايمكن استعماله تقريباً كيفما كان ، ويمنح حسب الرغبة لكل امرأة حصلت على جزء من السلطة أينما كان ذلك في العالم الإسلامي من **دلهي** إلى **المغرب** . وكثير من نساء البربر حصلن على هذا اللقب . واشهرهن هي **زينب النفزاوية** التي شاركت زوجها **يوسف بن تاشفين** في السلطة . وقد وصفها المؤرخ **أبو ذر الفاسي** بأنها «القائمة بملكه» اي التي تتصرف بسلطته . ويالها من سلطة ، طالما إنها احدى الامبراطوريتين اللتين انشأهما هؤلاء الحكام المغاربة والتي امتدت حتى **اسبانيا** (١٢) . وقد حكمت هذه الأخيرة من ٤٥٣هـ /١٠٦١ م إلى ٥٠٠

١١ ـ تُدوّن سيرة السلطانة **شجرة الدر** في كل كتب التاريخ العربي «الرسمي» التي تصف هذه الفترة . وسوف نعود لها في الفصل المخصص لها . وبالنسبة لمحبي النصوص القصيرة والمسلية ، يمكن الرجوع إلى الفصل ١٣ من كتاب **أمين معلوف** (الصليبيون من وجهة نظر العرب) طبعه ١٩٨٣ ص ٢٥٣ ، ومايليها .

١٢ ـ الأمبراطورية الأخرى هي أمبراطورية الموحدين الذين جاؤوا بعدهم " "

هـ / ١١٠٧ م . ويبدو أن المؤرخين العرب لم يصادفوا أية مشكلة في الاعتراف للنساء كملكات حائزات للسلطة الأرضية . وهنالك لقب آخر غالباً ماكان يُعطى للنساء اللواتي يمارسن السلطة السياسية : **الحرة** .

وتعني كلمة **الحرة** لغوياً «المرأة الحرة» مقارنة لها بالمرأة العبدة . فالحرة بين الحريم كانت تعني الزوجة الشرعية والتي غالباً ماتكون منحدرة من علية القوم ، وعلى عكس الجارية التي كان سيدها يبتاعها من سوق العبيد . وهنا ينبغي التذكر إن كلمات «حر» و«حرية» في اللغة العربية لا صلة لها مع اللفظ الحديث من حقوق الانسان . إن الحرية عندنا قلما تتجذر في ذاكرة المطالبة والصراع من أجل استقلال الفرد ذاتياً . فالحرية نقيض العبودية . فعندما ينطق فرنسي صغير كلمة حرية ، ترد إلى ذهنه مسيرات الشعب وصراعاته في شوارع **باريس** سنة ١٧٨٩ ، والتي يضجره المعلم بتكرارها . أما عندما يتلفظ عربي صغير بهذه الكلمة ، فإنه يرد إلى ذهنه أبهة العصر الذهبي من الارستقراطية العباسية التي تجعل معلمينا يحلمون بها دوما ، لأن العرب لم ينالوا أبداً الحق بهذا المقدار من الجواري ، العبدات الجميلات مما كان يتكدس في شوارع **بغداد** إلّا في ذاك العصر . لقد كان إعجاب معلمي بالأبهة العباسية ، هو الرسالة الأساسية التي تلقيتها وأنا طفلة . ولم أُحدَّث عن اهمية الرق الا في فترة الدراسة الثانوية . ويدفعنا مفهوم الحر إلى التفكير بالمزدوجة : ارستقراطية ـ عبودية ، بحيث يصبح مهما التعمق : فسيدة هي مؤنث كلمة سيد ، معلم ، و السيد يعارض العبد . ونستعملها اليوم في العربية الحديثة ، سواء أكانت تقليدية كلاسيكية أو جدلية ، لنعني

← وحكموا من سنة ١١٣٠ إلى ١٢٦٩ . للرجوع إلى زينب ، انظر إلى أبي ذر الفاسي: /الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فأس / دار المنصور في الرباط ١٩٧٢ ص ١٣٢ .

بها السيد والسيدة . وجذر كلمة حر المكون من حرفي الحاء والراء ، مرتبط بفكرة الحرية ، لكن الحرية هنا بمعنى السيادة الارستقراطية ، وليس بمعنى صراع ضد الطغيان كما هو حال كلمة حرية في الصيغة الفرنسية الشهيرة «حرية ، مساواة ، أخوة» . كلمة حر في اللغة العربية ليس لها معنى ديمقراطي أو شعبي ، وعلى العكس ، فالحر هو الذي يتميز عن العبد والذي يتجاوز الأدنى . واذا كانت كلمة حرية ، في اللغة الفرنسية الحديثة مرتبطة في الذاكرة بكفاح الشعب في سبيل حقوقه ضد سلطة طاغية ، فإن كلمة حرية تمد جذورها في المفهوم المقابل ، مفهوم الارستقراطية . ويقول لنا **ابن منظور** في لسان العرب : ان «حرية العرب» هم «أشراف»هم . و «يقال هو من حرية قومه أي من خالصهم» ويعرف هؤلاء «بعظمة اجدادهم» . وفي كل شيء الشرف هو الجزء الأعلى الجزء الذي يسود ؛ والأشراف بين الكائنات البشرية ، هم الأعلون[١٣] . والحر هو علامة النبل أي الفعل الحسن . والحر في أي شيء هو أفضله . وهكذا فإن الأرض الحرة هي أرض خصبة ، وغيم حر هو الممطر ، والجزء الحر من البيت ، هو أفضل ما فيه وأكثره راحة[١٤] . فحر هو إذن مفهوم مرتبط جوهرياً بالشرف ، والارستقراطية ، والنخبة وعليّة القوم . وعلى سبيل المثال فإن أحد أسماء الصقر هو الحر . وطبقة الاسياد هي «أخيار الناس»[١٥] . ومن المفارقة في هذا الشأن ، ان الإسلام مع كونه ولد من مشروع ديمقراطي يحدد سلطة الارستقراطية ، فإن كلمة /أشراف/ لم تُهن . فأسياد **قريش** كانوا الأشراف في شبه الجزيرة العربية قبل **الاسلام** . لكن ، بعد انتصار الإسلام ،

١٣ ـ لسان العرب ـ جذر شرف (ش ر ف) .
١٤ ـ لسان العرب ـ جذر (حرر) ح ر ر .
١٥ ـ لسان العرب ـ جذر (حرر) ح ر ر .

أصبحت كلمة /اشراف/ تدل دائماً على النخبة ، على اعيان المدينة أو البلد ولاسيما ، وبصورة خاصة أكثر ، على المتحدرين من **النبي** . فالاشراف ، أو الشرفاء هم اولئك الذين يرجعون بنسبهم إلى **فاطمة** ابنة النبي ، من زوجها **علي** صهره وابن عمه .

وهنالك أيضاً صلة بين فكرة الحر وفكرة الصمود لأنه «يقال ان امرأة امضت ليلتها حرة ، إذا لم يفترعها زوجها في الليلة الأولى من عرسها ، ولم يتمكن من الدخول بها»[١٦] . إن مفهوم الجهد هذا ، لِطاقةٍ موجهة ومركزة متضمنة في كلمة حر واضحة في كلمة حرر التي هي إحدى الكلمات المعبِّرة عن فعل الكتابة . يقال تحرير الكتاب (كتابة الكلمات ، أو بدقة أكثر تحريرها) بمعنى وضع الحروف بشكل صحيح ، وتحرير الحساب (كتابة الارقام) وترتيبها مع التأكد من صحة ذلك دون اخطاء وتشطيب»[١٧] . ومن الطبيعي أن احدى وظائف الاحرار هي أن يفكروا بدلاً عن الاخرين ، وأن يخططوا ، وان يفكروا ملياً ، ويتبصروا بالنسبة للجماعة . وهذا هو علامة شرف للنخبة . بيد أن مايدعو إلى الدهشة ، هو أننا لانجد مطلقاً أنَّ لقب الحر هذا قد أعطيَ لرئيس دولة زمني أو روحي ، معبراً عن فكرة السيادة ككلمتي سلطان أو ملك . وعلى العكس من ذلك ، فإننا غالباً مانصادفه مستعملاً بالنسبة للنساء كمرادف لكلمة ملكة أو سلطانة ، حيث استعمله المؤرخون لاعلى التعيين ، وذلك في مناطق مختلفة من الامبراطورية الإسلامية ،في **اسبانيا** ، **وافريقيا الشمالية** ، **أو اليمن** ؛ فالحرة ، هو لقب ملكتين يمنيتين في القرنين ١١ و ١٢ ، هما **اسما وأروى** اللتين سوف نعود لذكر شيء عنهما . وبعد ذلك ، وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فإن عدة ملكات اندلسيات ، ممن لعبن دوراً

---

١٦ ـ لسان العرب ـ جذر (حرر) ح ر ر .
١٧ ـ المرجع ذاته . .

هاماً ، في شاطىء البحر المتوسط (اسبانيا) من جهة و (مراكش) من الجهة الأخرى ، كنَّ قد حملن هذا اللقب . وتظهر النساء بكثرة على المسرح السياسي الإسلامي عند حصول أحداث حاسمة ، وكان سقوط **غرناطة** عندما طرد المسيحيون المسلمين من اسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر أحد هذه الأحداث .

ومن النساء الأكثر شهرة **عائشة الحرّة** المعروفة عند **الاسبان** باسم السلطانة **مادري بوعبديل** madre de boabdil » ، وبوعبديل تحريف لاسم **ابنها محمد ابو عبد الله** الذي انتزع اعجاب اعدائه في فترة الهزيمة(١٨) . وبحسب ماذكره **عبد الله عنان** المتخصص في دراسة سقوط **غرناطة** ، لعبت **عائشة** الحرة دوراً بارزا في الاحداث التاريخية ، رغم صمت المصادر العربية التي قلما تذكر اسمها(١٩) . إن تحليل الوثائق الاسبانية وحده يثبت أنها كانت رئيسةً مميزةً ، واتخذت قرارات بطولية في تلك الفترة المأساوية ، وكانت احدى الشخصيات «النبيلة والساحرة في تاريخنا»(٢٠) . كانت حياتها صفحة من البطولة» كما يقول **عنان** ، وهي تكاد تكون مجهولة ان لم نقل مهملة ، ولانكاد نجد تحليلاً لشخصيتها من قبل الخبراء . وقد حاول بذاته ان يعيد رسم بعض المشاهد عن حياتها . **فعائشة الحرة** التي كانت قد قررت ، وعملت بالتالي على نقل السلطة من يد زوجها العجوز **علي أبي الحسن** الذي كان تولاها في ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م ، إلى أحد أبنائها الذي كانت تميل إليه ، **محمد ابو عبد الله** آخر ملوك **غرناطة** ، والذي كان يسمى ايضاً **محمد الحادي عشر** . وقد تولى هذا السلطة متبعاً حرفياً

١٨ ـ عبد الله عنان ـ نهاية الاندلس ـ مكتبة التلمساني ، القاهرة ١٩٨٧ ص ١٩٦ .
١٩ ـ المرجع ذاته ـ ص ١٩٦ .
٢٠ ـ المرجع ذاته ص ١٩٧ .

توجيهات والدته في عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، وقد حافظ على السلطة بعد اضطرابات وانقطاعات حتى التاريخ المحتوم ٨٩٦ هـ/ ١٤٩٢ م ، أي إلى سنة من بعد سقوط **غرناطة** . وكان آخر ملوك (**بني نصر أو بني الأحمر**) ، التي حكمت **غرناطة** من (٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م إلى - ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) التي ستبقى مرتبطة دائماً في ذاكرة العرب ، كإحدى الهزائم التي لايمكن ان تنسى في تاريخهم . وهزيمته أمام جيوش **فرديناند وايزابيلا الكاثوليكية** الاسبانية ، تعني موت الامبرطورية الإسلامية في اسبانيا التي دامت أكثر من ثمانية قرون . يمكن اذن ان نفهم أن التاريخ العربي يُلقي حجاباً على الدور الذي لعبته أمه **عائشة الحرة** ، الشاهد والممثل لإحدى الفترات الجارحة من تاريخ الإسلام العربي .

إن يقظة **عائشة الحرة** السياسية بدأت باحباط زوجي ، فكانت تقيم في القصر الفخم ، **الحمراء** وولدت ولدين لزوجها : **محمد (ابوعبد الله) ويوسف** . وكانت تعيش في ضيق أكيد ، سلسلة الكوارث الحربية التي تنبيء بالسقوط الوشيك الوقوع . لقد تدخلت في العملية السياسية عندما خضع زوجها ، الأكبر سناً منها ، لمفاتن **ايزابيلا** ، اسيرة الحرب الاسبانية والتي نجحت في ان تصبح الأثيرة عنده . **فإيزابيلا** كانت طفلة حين وقعت في يد العرب في احدى الحملات العسكرية . وكمحظية مفضلة اتقنت فن الاغواء ، قررت اعتناق الدين الإسلامي ، وهو تصرف لابد أن يغري الحاكم العربي ، وقد اتخذت اسم «**ثريا**» . وما ان لحظها السلطان حتى أصبح متيماً بها ، فحررها وتزوجها . وولد له منها عدد من الأولاد ، الأمر الذي عزز مركزها ، وفي ذلك الوضع السياسي المتفجر عكفت على استعمال نفوذها على **علي أبي الحسن** لنصرة أقربائها . ومع شعور النخبة في **غرناطة** بالخطر الذي مثلته هيمنة الزوجة الاسبانية ، استجابت لدعوة الزوجة العربية التي كانت اهدافها واضحة، إزاحة الأب الخائن لشعبه ،

واحلال ابنه **أبي عبد الله** محله . ولتحقيق هذا ، لعبت على الوتر القومي للاندلسيين القلقين على مصيرهم[٢١] . وأصبح **قصر الحمراء** ميدان معركة حقيقية ، منقسماً بين امرأتين تمثلان ثقافتين متعاديتين ، لا بد من زوال احداهما حتماً . فقررت **الملكة العربية الحرة** ، التي كانت تشغل الجناح الذي يشتمل على بهو السباع ، المعروف جداً في القصر ، قررت التحرك وهجرت القصر . ونظمت عندئذ هجومها من الخارج إلى أن اسقطت زوجها ، وأوصلت ابنها أبا عبد الله إلى العرش في وقت كان عمره فيه ٢٥ سنة وذلك في سنة ٨٨٧ هجرية[٢٢] .

لقد دفع سقوط غرناطة بحُرّات أخريات من نساء علية القوم ، اللواتي كن يعشن حياة أخرى مسترخية في الحريم ، إلى المسرح السياسي ، وقد وضعتهن الهزائم ضمن المعترك وأجبرتهن على الاهتمام والمساهمة في الاحداث الخطيرة التي تتعرض لها الجماعة . وبتحررهن من قيد التقليد الذي كان يَشُلّهن، وذلك بالحكم عليهن أن يقبعن في الفضاء المنزلي ، بتحررهن من هذا القيد اخذن يتكشفن ، رغم عدم خبرتهن ، عن خبيرات فطنات بالخطط الحربية ، وفي كل الأحوال ، ماهرات كالرجال . وأن واحدة من بينهن ، وهي مغربية من أصل اندلسي ، لم تجد شيئاً أفضل من الاندفاع في القرصنة كي تنسى الهزيمة . وقد أظهرت مواهبها في ذلك و سرعان ما أصبحت «حاكمة تطوان» . ويحافظ المؤرخون المسلمون على صمتهم تجاه الحرة الثانية هذه ، كما حافظوا عليه بازدراء تجاه الأولى «عمليا لانجد معلومات في المصادر العربية عن هذه الملكة التي مارست السلطة فعلا خلال ثلاثين سنة (٩١٦ هـ /١٥١٠م تاريخ وصول زوجها المندري - AL MANDRI إلى السلطة حتى ٩٤٩ هـ /١٥٤٢ م عندما ازيحت عنها) ،

٢١ ـ عبد الله عنان ـ نهاية الاندلس ص ١٩٨ .

٢٢ ـ المرجع ذاته ص ٢٠٢ .

في حين أن هذه الحرة ـ حسب المصادر الاسبانية والبرتغالية ، كانت شريكة في اللعبة الدبلوماسية»(٢٣) . وقد كانت لعدة سنوات ، حاكمة تطوان والاقليم الشمالي الغربي من مراكش وكانت رئيسة للقرصنة لامنازع لها في المنطقة ، وكان أحد حلفائها الشهيرين القرصان التركي (باراروس) الذي كان يعمل لصالحها انطلاقاً من الجزائر (٢٤) . إلاّ أنه لم يكن لها حلفاء سوى القراصنة ، وبعد وفاة زوجها ، تزوجت ملك مراكش **أحمد الوطاسي** ثالث ملوك هذه الاسرة (٩٣٢ هـ /١٥٢٤ م ـ ٩٦٦ هـ /

---

٢٣ ـ وهي الحالة التي ترويها على سبيل المثال ، الوثائق الاسبانية المؤرخة في ١٥٤٠ م عن المفاوضات بين الاسبان والسيدة الحرة بعد غارة القرصان على جبل طارق حيث «حصلوا على غنيمة كبرى وعلى العديد من الاسرى» ، كولونيل دي كاستري ، مصادر غير مطبوعة عن تاريخ مراكش جزء ١ ص ٨٩ ، ١٠٧ .

٢٤ ـ عبد القادر العافية ، /اميرة الجبل الحرة بنت علي ابن رشيد /مكتبة النور ـ تطوان ١٩٨٩ ص ١٨ .

وبالفعل تُعاود السيدة الحرة حياتها ثانية بالاهتمام الذي يولونها به مؤرخو شمال مراكش ، الذين يتكلمون الاسبانية في أكثر الأوقات والذين هم على أهبة رد الاعتبار إليها مكرسين لها مقالات ودراسات غالباً ماتبنى على المصادر الأوروبية ويمكن أن نذكر منها على سبيل المثال:

ـ **العافية** كرس لها فصلاً في كتابه الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاوين ، وزارة الشؤون الخارجية الاسلامية ١٩٨٢ بدءاً من الصفحة ١٢١

ـ محمد بن عزوز حكيم ـ ا لسيدة الحرة ، حاكمة متميزة ، مذكرات عن مراكش جزء ٣ ، تنظيم الشمال ١٩٨٢ ص ١٢٨ ومايليها .

ـ محمد داوود (تاريخ تطوان) ، مؤسسة مولاي الحسن ، تطوان ١٩٥٩ جزء ١ ص ١١٧ ومايليها .

محمد بن عزوز حكيم ، الست الحرة حاكمة تطوان ، مؤسسة عبد الخالق الترس ، تطوان ١٩٨٣ .

وهنالك مصادر أخرى حاولت توضيح شيء عن حكمهاو لاسيما : /شانتال دي لافيرن/ الست الحرة والسيدة النبيلة هيسبيريس ، جزء /١٣/ ١٩٥٦ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥

١٥٤٩م) . ولكي تُفهمه أنها لاتنوي مطلقاً التنازل عن دورها السياسي طلبت منه الانتقال من العاصمة **فاس** إلى **تطوان** لإقامة حفلة الزواج . وكانت تلك المرة الوحيدة ، في تاريخ **المغرب** ، التي يتزوج فيها ملك خارج عاصمته[٢٥] .

كانت اسرتها ، **بنورشيد** من أعيان الاندلس الذين قررّوا بعد سقوط **غرناطة** كغيرهم من الأسر الكثيرة الاقامة في افريقيا الشمالية . وقد بدأت حياة السيدة الحرة مع هموم النفي والغد المجهول الذي عرفه كل اللاجئين الاندلسيين الهاربين من محاكم التفتيش . واستقرت اسرتها في **شاوين** CHAOUEN وزوجوها من **المندري** AL - MRNDRI المنتمي لعائلة اندلسية كبيرة أخرى كانت قد أقامت في المدينة المجاورة لتطوان . وكان كثير من الجماعات المهاجرة لاتزال تهدهدها احلام العودة . وكان القيام بالغزوات ضد الاسبان يبقى الوسواس الأكثر شجاعة ، وكانت القرصنة الحل المثالي الذي كان يسمح للسكان المطرودين من منازلهم ، أن يحصلوا بسرعة على الموارد (غنيمة ، فداء الاسرى) ، وفي الوقت نفسه متابعة الكفاح ضد العدو المسيحي . كان تاريخ نهضة تطوان مرتبط بأسرة **المندري** ، ويعكس تاريخ هذه الأسرة ، **وزوج الحرة** الذي ترأس جماعة الاندلسيين المنفيين ، «جددت **تطوان** بعد مايقرب من تسعين سنة من تدميرها ، نحو سنة ١٤٩٠ م ، أو بعد ذلك بقليل ، من قبل القائد (القبطان) **أبو الحسن المندري** الذي يعود في أصله إلى **غرناطة** . . . وقد أرسل اللاجئون بعثة إلى السلطان **محمد الوطاس** في مدينة **فاس** . . . فاستقبلهم هذا بالترحاب وتمنى لهم طيب الاقامة ، وبناء على طلبهم سمح لهم بالإقامة في خرائب المدينة المدمرة ، والتحصن فيها ضد

٢٥ ـ انظر المصادر المتعلقة بها المشار إليها فيما تقدم .

الهجمات . . . وما ان حصلوا على إجازة السلطان حتى أعادوا تشييد أسوار **تطوان** ، وأنشأوا مساكنهم وبنوا الجامع الكبير . . . ثم شرعوا بقيادة المندري ، في حرب مقدسة ضد البرتغاليين الذين كانوا قد اقاموا في **سوتا** «ceuta»[٢٦] . لم تتفق المصادر على هوية زوج الحرة ، هل هو **علي** مؤسس مدينة تطوان الجديدة وقائد الجماعة ، أو ابن هذا المندري الثاني[٢٧] ؟ ففي الحالة الأولى سوف يكون لها زوج اكبر منها بالتأكيد ، و فقدانه لبصره في نهاية حياته يوضح التدخل المبكر من قبل زوجته في ادارة الشؤون السياسية[٢٨] . ويقول بعض المؤرخين انها تزوجت من الابن وأن هذا ، وقد رأى مواهبها السياسية ، عينها لتحل محله في رئاسة المدينة في كل مرة يتغيب فيها ، وانها بهذه الطريقة عودت الجماعة على سلطتها ، وأدى ذلك إلى قبولها كحاكمة فيما بعد[٢٩] .

لم يكن لحاكمة تطوان الحق بلقب الحرة ، أي كامرأة تمارس السلطة العليا ، إلّا في ١٥١٥ م ، عقب موت زوجها . ولاختيارها والية على تطوان تدبرت أمرها بسرعة وحصلت على تسميتها حاكمة تطوان ، ثم أجرت اتصالات مع القرصان التركي **خير الدين** المعروف بـ (بارباروس) ، واستقلت عوّامة واندفعت للقرصنة في البحر المتوسط . وقد أقام معها الأسبان والبرتغاليون ، بصفتها قوة بحرية مسؤولة عن المنطقة ، علاقات محددة لتحرير أسراهم . والسيدة الحرة هو اللقب الوحيد الذي يوجد في

---

٢٦ ـ أ ـ جولي «تطوان ـ وثائق مغربية جزء ٥ ، ١٩٠٥ ، بدءاً من الصفحة ١٦١ والعبارة أعلاه مأخوذة من الصفحة ١٨٨ .

٢٧ ـ عبد القادر العافية ، أميرة الجبل ، الحرة بنت علي الرشيد ـ دار النشر غير مذكورة .

٢٨ ـ المرجع ذاته .

٢٩ ـ المرجع ذاته .

الوثائق البرتغالية والاسبانية المعنية بها ، لدرجة ان هذه الوثائق تتساءل عما إذا كان ذلك هو اسمها[٣٠] .

هنالك لقب آخر دائم عند العرب للملكة هو لقب /الست/ الذي يعني حرفيا /السيدة/ . وكانت احدى ملكات الاسرة الفاطمية في مصر تحمل لقب ست المُلك (ولدت في ٣٥٩ هـ / ٩٨٠ م) . وقد تولت السلطة بعد أن دبرّت في ٤١١ هـ / ١٠٢١ م أمر ازاحة شقيقها الحاكم بأمر الله الخليفة السادس من الاسرة . وكانت لها حججها في ذلك . فتصرفات أخيها الشاذة ، الذي كان حتى ذلك الحين يحمل على الضعفاء ، وعلى الكلاب التي قرر استئصالها ، وعلى النساء إذ منعهن من الخروج من المنازل. وقد توسع بمثل هذه التصرفات بما لامثيل له . واستيقظ في احد الأيام وأعلن أنه الله تعالى وان على سكان القاهرة وعلى رأسهم شقيقته ست الملك ان يعبدوه[٣١] .

على مايبدو إن كلمة /ست/ كانت لقباً تحمله النساء اللواتي يتمتعن بمواهب استثنائية . فكتاب الأعلام للزركلي الذي يشير إلى تراجم أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، يذكر كثيرات ممن

---

٣٠ ـ محمد داوود ـ تاريخ تطوان ، معهد مولاي الحسن ، تطوان ١٩٥٩ جزء ١ ص ١١٧ .
ـ عبد القادر العافية إمارة الجبل ـ الحرة بنت علي بن الرشيد . تطوان ١٩٨٩ .
ـ محمد حكيم السيدة الحرة حاكمة تطوان ، مؤسسة عبد الخالق التوريس
ـ احمد الناصري . الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، جزء ٤ ص ١٥٤ ط ١٩٥٦

٣١ ـ المقريزي ـ خطط المكتبات ـ الثقافة الدينية ـ القاهرة ١٩٨٧ جزء ٢ ص ٢٨٥ .
ـ غبد الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)ـ دار الآفاق الجديدة ج ٣ ، ص ١٩٢ .
ـ ابن الأثير الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ج ٧ و ص ٣٠٤ ومايليها .

فرضن وجودهن بصفتهن خبيرات في العلوم الدينية[٣٢] : «**ست العرب بنت محمد بن فخر الدين** ، مسندة مكثرة سمع منها بعض مشهوري الحفاظ وانتشر عنها حديث كثير ، كانت اقامتها في **صالحية دمشق** وممن روى عنها **الحافظ ابن الجزري** سمعها في دارها (بسفح قاسيون) سنة ٧٦٦هـ . ست القضاة ، **مريم بنت عبد الرحمن** . ست الكتبة (الدمشقية) **نعمت بنت علي** . . . ست الملوك . . ست الوزراء بنت عمر بن أسعد التنوخية الحنبلية ٦٢٤هـ / ١٢٢٧ م - ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م فقيهة محدثة ، دمشقية المولد والوفاة ، أخذت **صحيح البخاري** عن **ابي عبد الله الزبيدي** وجدثت به **وبمسند الشافعي** في دمشق ثم مصر وكانت زميلة **لابن عربي** (القرن ١٥) ».

ولايمكننا اغلاق قائمة الالقاب المعطاة للنساء اللواتي مارسن السلطة السياسية عند العرب دون ان نشير إلى الحالات ، النادرة بالتأكيد ، التي تولين فيها السلطة إما بصفة رئيسة عسكرية أو رئيسة دينية . إن أحد الالقاب الاستثنائية في إسلام يميز بعناية بين سلطة دينية وسلطة زمنية أو بدقة أكثر ، سلطة عسكرية ، هو اللقب الذي أُعطيَ لملكة يمنية كانت رئيسة دينية ، ابنة الامام **الزيدي الناصر لدين الله** ، حيث استولت بقوة السلاح على **صنعاء** ، بصفتها رئيسة الزيدية في اواسط القرن /١٥/ . وكان اللقب الذي حملته : **الشريفة فاطمة** [٣٣] . أما بالنسبة إلى **غالية**

---

٣٢ - خير الدين الزركلي - الاعلام - قاموس مشاهير الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين دار العلم للملايين ، بيروت - الطبعة ٦ - ١٩٨٣ - ويضم الكتاب ٨ مجلدات - انظر - كلمة (ست)

٣٣ - الدامدي ، - عقيق اليمن - ذكرها خير الدين الزركلي في الاعلام - تحت مادة (الشريفة) - .

الوهابية وهي حنبلية من طربا قرب الطائف ، فقد قادت في العربية السعودية ، حركة مقاومة عسكرية كي تدافع عن مكة بصورة خاصة في بداية القرن الثامن عشر ضد الاحتلال الاجنبي ؛ وقد أُعطيت لقب أميرة ، و الأمير هو لقب رئيس الجيوش . والأمير بصفته الرئيس الأعلى للجيش هو أمير الأمراء . «ولم تكن هذه الوظيفة تتطلب في البدء سوى مزايا عسكرية»[٣٤] . وكانت جسارتها ومواهبها الستراتيجية قد قادت اعداءها الذين كانوا يواجهونها في ساحات القتال إلى الاسباغ عليها موهبة سحرية في جعل القيادة العليا الوهابية غير مرئية . ويسجل المؤرخون ظهورها على رأس البدو كحدث استثنائي : «لم يسبق لمقاومة القبائل العربية التي تعيش في جوار مكة ، أن كانت على هذه الدرجة من القوة من جانب اعراب طربا . . . كان على رأسهم امرأة تحمل اسم **غالية** . . .»[٣٥] .

مع ذلك ، وفي أغلب الحالات ، فإن النساء اللواتي انخرطن في الميدان السياسي ، لم يكنَّ ـ شأنهن شأن غالبية الرجال ـ لا رئيسات عسكريات ، ولا رئيسات دينيات منقطعات النظير . وحتى لو اقتضى الأمر أحياناً إدارتهن لعمليات عسكرية ، فإن ذلك لم يكن أرضيتهن المفضلة . أما بالنسبة للدين ، فقد حاولن ، من باب حسن السياسة وكزملائهنّ الرجال ، التعامل معه عملياً بدلاً من المطالبة بالديني ورموزه .

وإذا كانت كلمات ملكة وسلطانة وحرة وست هي ألقاب أطلقت على النساء اللواتي كنّ يدرن شؤون **الدولة** أو يشاركن في ادارتها في الوطن العربي ، فإن لقب خاتون هو مايصادف غالباً في الإسلام الآسيوي ،

---

٣٤ ـ الموسوعة الاسلامية ـ .

٣٥ ـ محمود فهمي المهندس ، كتاب البحر الزاخر ـ مذكور عند خير الدين الزركلي في كتابه الاعلام ـ سيرة غالية الوهابية .

وبخاصة في الأسر الحاكمة التركية والمغولية . وحسب **الموسوعة الإسلامية** فإن كلمة **خاتون** هي «لقب من أصل صُغْدي » بلاد الصُّغْد ، حملته زوجات وقريبات ملوك **التوتشوش** TEU - TCHUCH ثم الاتراك . وقد استعمله السلاجقة «وشاهات خوارزم» . وان عدداً كبيراً من النساء اللواتي ساهمن بفاعلية وأدرن شؤون الدولة إما مع ازواجهن ، وإمّا لوحدهن ، حملن هذا اللقب . وكانت إحدى المشاكل التي اعترضت الامراء المغول الذين جاؤوا إلى الإسلام كغزاة ، واعتنقوه بعد بضعة عقود ، كانت معرفة كيفية التوفيق بين الحالة العامة تماماً للنساء ، مع الحالة الخاصة جداً التي يفرضها الدين الجديد . وقد وجد خاقان سابع الاسرة الخانية ، نفسه بعد استيلائه على السلطة في ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥م ، وجها لوجه امام هذه المشكلة ، بعد ان كان قد اختار الإسلام السني .

وقد لعبت **دوقوز خاتون** الزوجة المفضلة **لهولاكو ابن جنكيز خان** الذي كان قد فتح جزءاً كبيراً من الامبرطورية الإسلامية ، وأخضع عاصمتها **بغداد** في سنة ١٢٥٨ م ، لعبت دوراً هاما في موقف الفاتحين الجدد تجاه المسيحين . وبانتمائها شخصياً إلى المذهب النسطوري ، حاولت ان تضمن لهم وضعاً مفضلاً وان تضعهم في وظائف ذات مسؤولية[٣٦] . وكان **الصارم اوزبك** ، من المدرسة العربية في حمص ، فد دُهِشَ إلى اقصى حد ، عندما استقبله **هولاكو** ليتحدث معه في «السياسة» حين لاحظ ان زوجة هولاكو هذا كانت تحضر دائما[٣٧] . وقد كان على الإسلام قبول أعراف سكان السهوب الاسيوية فيما يتعلق بدور السيدات

٣٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة /خان/ .

٣٧ ـ ابن الفرات ـ الترجمة الانجليزية لهذه الزيارة عند برنارد لويس «زيارة للمغول» ، في الاسلام ـ هاربر و رو ، جزء ١ ص ٨٩ .

وتفوقهن في الحياة العامة . والشيء الذي صدم **ابن بطوطة** ، الرحالة العربي ، عندما اجتاز الامبرطورية المغولية وزار ملوك الاتراك ، هو ذلك الحضور الدائم للنساء في السياسة : «وكانت النساء تتمتع عند **الاتراك والتاتار** بسعادة عالية ، فعندما كان هؤلاء يكتبون أمراً ، كانوا يوردون فيه هذه الكلمات : «بأمر السلطان والخاتونات»[٣٨] . وكانت كلمة خاتون ايضاً لقب ملكات اسرة **قوتلوغ ــ خانيد** kutlugh - khanide من دولة الكرمان kirman وكن يحملن هذا اللقب بتباه . وعلى سبيل المثال كان ذلك حال **قوتلوغ توركان خاتون و بادشاه خاتون** ، اللتين كانتا على التوالي الحاكمتين الرابعة والسادسة من الأسرة في ١٢٥٧ م و ١٢٩٣ م .

بيد أن أياً منهنَّ سواء أكانت خاتون أو ملكة أو سلطانة أو من المحظيات اللواتي مارسن السلطة في الظل انطلاقا من الحريم ، أو من رئيسات الدولة الرسميات ممن صُكّت النقود باسمائهن ، فإن أية واحدة لم تحمل مطلقاً لقب خليفة . لذا هل يمكن أن نستخلص ان هذا يستثنيهن على الإطلاق من الدور السامي لرئيس الدولة ؟ إن احدى المناقشات الهامة التي اقلقت العالم الإسلامي منذ وفاة النبي حتى يومنا هذا ، كانت الشرط المتعلق بالأصل الإثني للخليفة : فهل ينبغي أن يكون عربياً ، أم هل يصح أن يكون من إثنية أخرى ؟ وهل يمكن للأعجمي ، أي غير العربي أن يحكم الجماعة ؟ حسب الاشتقاق اللغوي تعني كلمة الاعاجم ، أولئك الذين لايتكلمون العربية بشكل صحيح ، أولئك الذين يتكلمونها بشكل سيء ، مع لكنة ، أو الذين لا يتقنون دقائق مفرداتها . فالأعاجم هم الذين يتكلمون لغة مشوشة ، لغة أخرى غير العربية .

من بين العديد من رؤساء الحكومات غير العرب الذين تولوا السلطة

---

٣٨ ـ رحلة ابن بطوطة جزء ١ ص ٤٥١ .

كل في دوره عبر العصور ، فُرس ، مغول ، بربر ، أكراد ، سودانيون ، هنود وغيرهم ، قليل منهم من ادعى بشيء يزيد عن لقب سلطان أو ملك ، أو مثل هذه الانواع من التسميات . وقد كان اتخاذ العثمانين في القرن السادس عشر لقب خليفة ، صدمة عنيفة وأمراً خارجاً عن المألوف ، لأنه لا بد للخليفة من تحقيق صلة مع النبي ، وعندما يكون تركيا ، يصبح الأمر حرجاً . ولذلك ينبغي اللجوء إلى التلفيق . وقد اضطر **العثمانيون** لفعل ذلك . . . فكل رئيس دولة اسلامية يدعي الخلافة ملزم بأن يحل مسألة نسبه من **الرسول** أو أن يثبت شجرة اسرته التي تربطه بأسلافه أي أولاد ابنة الرسوّل **فاطمة** وزوجها **علي** ، صهر **النبي** وابن عمه . وقد كانت احدى أشكال المعارضة التقليدية ضد الخلفاء العرب بدءاً من الأمويين ثم العباسيين ، المطالبة بنسب يرجع إلى **النبي** . ومن البداهة بمكان أن اولئك الذين غامروا على هذه الطريق قد عّرضوا حياتهم للخطر ، وانتهوا إلى تصفيتهم جسدياً ، اذ لايجوز أن يكون هنالك سوى خليفة واحد . والخلفاء الأمويون كالخلفاء العباسيين رأوا من واجبهم في سبيل اعادة النظام على الأرض وفي السماء قطع رأس كل من يدعي لقب الخلافة . وقد بدأ العباسيون الذين كانوا سنيين في الانحدار منذ اليوم الذي لم يعودوا فيه قادرين على تصفية مُدَّعٍ شيعي كان اعلن نفسه خليفة في سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م ، ونقصد به المهدي الفاطمي الذي أنشأ اسرة خلافة ثانية حاكمة ، هي اسرة الفاطميين (انتساباً لفاطمة ابنة النبي) . ولم يكن هذا بالأمر اللائق أبداً في المثل الأعلى الإسلامي الذي يميل باتجاه الوحدة ، المؤهلة وحدها لضمان القوة . وهنا كان يوجد خليفتان في آن معا ، أحدهما سني والآخر شيعي . ولكي ينجح الفاطميون ، كانوا مكرهين على العمل بعيداً عن **بغداد** . لقد بدأوا في افريقيا الشمالية ، ولم ينقلوا عاصمتهم إلى القاهرة الا في سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م بعد استيلائهم على مصر وسورية . كل هذا

ليقال إن إعلان حاكم نفسه خليفة لايرد بكل بساطة على خاطر أي رجل مهما كان قوياً . فالفكرة المتجذرة بعمق في الأذهان ، هي أن الخلافة امتياز موقوف على كائنات استثنائية . ولذلك فإن ادعاءها من قبل امرأة هو نوع من الهذيان ، وعلى حد معلوماتي ، لم تفقد أي امرأة مطلقاً حسها السليم لدرجة لا تأخذ معها هذه القضية بعين الاعتبار .

هنالك معياران لشرعية الخليفة : الذكورة وأن يكون عربياً . وفي حين جوبه المعيار الأخير بشدة ومات ألوف المسلمين في سبيل الدفاع عن فكرة أنه يمكن لأي مسلم أن يصبح خليفة ، فإن أحداً لم يتنكر أبداً لمعيار الذكورة . وعلى كل حال لم يعرّض أحد حياته إلى الخطر كي يؤكد أن معيار الذكورة المطلوب لشغل منصب الخليفة كان يمس بمبدأ المساواة الذي هو مبدأ اساسي في الإسلام . فكيف استطاع الإسلام التوفيق بين هاتين النقطتين : مبدأ المساواة بين الجميع من جهة ، والمعايير الضيقة لمشروعية الخلافة من جهة أخرى ؟ ذلك هو أحد ألغاز التاريخ السياسي الذي ينبغي على المحدثين حل غموضه . إن الهدف من هذا السّفَر في الماضي للبحث عن سلطانات وألقابهن هو خطوة متواضعة في هذا الاتجاه . ان جولة عابرة في الماضي هي التي تكشف لنا عن يقين واحد هو : ان العودة إليه مستحيلة ، لأن ماتغير في العالم ، بما في ذلك المجتمعات الإسلامية ، ليس هو بكل بساطة مطالب النساء أو مطالب الرجال تجاه القادة فحسب ، وانما ايضاً البيئة ، حتى البيئة التي يعيشون فيها ، والهواء الذي يتنفسونه والسماء التي ينظرون اليها ، أو الأرض التي يمشون عليها ؛ فسماء الخلفاء العباسيين ليست سماءنا ، وارضهم ليست ارضنا . أرضنا تدور حول الشمس ، وفي زمنهم كانت الشمس هي التي تدور حول الأرض . مع ذلك فإن الصراع من أجل الديمقراطية بمعنى المساواة لم يبدأ مع **استيراد اعلان حقوق الانسان** الذي هو غربي كما يعلم كل واحد ، بل بدأ منذ القرون

الإسلامية الأولى ، مع مذهب الخوارج .

ومن بين ما لا يحصى من المذاهب التي انكرت الإسلام كممارسة سياسية ، مذهب الخوارج هذا والذي انكر اولاً شرط القرشية في اختيار الخليفة ، مؤكدا أنه لأي كان ، بغض النظر عن أصله الأثني ، الحق بأن يكون خليفة ، وأن يدير شؤون المسلمين . إن «الخوارج» هم أولئك الذين رفضوا دخول اللعبة السياسية ، ووقفوا خارجها ، هم اولئك الذين لم يعد الحوار معهم ممكناً في صدر الإسلام(٣٩) . وشكل موقفهم الرافض لمعايير اختيار الرئيس صدمة في حينه . فالإجماع كان عاماً إذن : على أن العربي وحده صاحب الحق فيها . وليفهم الجو والذهنية العقلية التي كانت سائدة في القرون الأولى من الهجرة ، يحسن تفحص موقف مثقف مهذب **كابن حزم الاندلسي** ، المسلم الطيب الذي يحاول التوافق مع المثل الإسلامي الأعلى في المساواة إلا أنه يظل في روحه ارستقراطياً بشدة . **فهو** يذكر اسماء ثلاثة رجال غير قرشيين تولوا الخلافة لفترة كانت قصيرة إلى أدنى حد . الأول كان معارضاً للأمويين ، وهو **يزيد ابن المهلب** ، الذي ظهر أثناء حكم الخليفة الأموي التاسع **يزيد بن عبد الملك** (القرن التاسع الميلادي) ، وقد عارض سلطته ولكن عبثا . والثاني هو حاكم مدينة مغربية في **سجلماسة** ، **محمد بن الفتح** ، الذي أعطى لنفسه اللقب لفترة قصيرة جداً ، اواسط القرن العاشر . والأخير هو **عبد الرحمن ابن أبي امير** ، حاكم اندلسي أخذ اللقب «ليوم واحد . . . وقد ارتعش من الفرح لسماعه

---

٣٩ ـ يمكن بشأن الخوارج الرجوع إلى: ـ محمد ابو زهره ـ «الخوارج» ـ في المذاهب الاسلامية ، مكتبة الآداب ـ مصر طبعة ١٩٢٤ ص ٩٦ ـ وأحمد امين (الخوارج) في فجر الاسلام دار الكتاب العربي ـ بيروت،الطبعة ١١ ـ ١٩٧٥ . والجزء الأول يحاول توضيح ذهنية الحياة العقلية في الاسلام من البداية حتى نهاية الاسرة الأموية ، بدءاً من الصفحة ٢٥٦ .

مناداته بالخليفة فخزق ثيابه إرباً عندما سمع مناداته بهذه الطريقة ، ولكنه عاد لصوابه وتنازل عنها . . . . وهذا أحمق من سمعت» . .

وتوضح سخرية **ابن حزم** ، بنوع ما ، ماكانت تفكر به اكثرية المسلمين في زمنه فقد كان من منتهى الحماقة الادعاء بلقب الخليفة من خارج علية **قوم** مكة . وقد اعطى قائمة أخرى من ثلاثة حكام أقوياء بذلوا جهوداً لدى السلطات الدينية كي يحوزوا هذا اللقب ، لكنهم تنازلوا عن مشروعهم أمام المقاومة التي جوبهوا بها (٤٠) .

والاستثناء الوحيد ، هو تاسع حاكم عثماني **سليم الأول** الذي تسلَّمها رسمياً في ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م من قبل آخر خليفة عباسي كان يعيش آنئذ في **مصر** ، (وكان الخلفاء العباسيون قد انتقلوا إلى مصر بعد تدمير **جنكيز خان لبغداد**) فتسلَّم منه شارات ورموز الخلافة ، ومن بينها ، بردة النبي ، وإحدى أسنانه ، وخصلة من شعره نقلت فيما بعد إلى **قصر توب كابي** Topkapi(٤١). وقد كانت تلك الفترة مضطربة جداً على مايمكن تخيله في العالم الإسلامي . بيد أنه إلى زمن العثمانيين ، لم يكن أحد من خارج قريش ، قبيلة النبي ، يستطيع المطالبة بلقب الخلافة ، ولا محاولة الاضطلاع بها لكونها امتيازاً وسحراً ، تتجاوز السلطة الارضية

---

٤٠ ـ ابن حزم الاندلسي «نكات العروس في تواريخ الخلفاء» ، علق عليه وشرحه الدكتور احسان عباس ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨١ جزء ٢ ص ١٩ إلى ١٢٢ . ولد ابن حزم في ٣٨٤ ومات في ٤٥٦هـ وهو أحد كبار الخبراء حول قريش لأنه مؤلف كتاب مرجع يتعلق بها: جمهرة انساب العرب ، دار المعارف ، القاهرة .

٤١ ـ جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ـ الجزء الأول ص ١٣٨ ـ وستانلي لين بول المنشور في ١٨٩٣ والمترجم للعربية بعنوان طبقات سلاطين الاسلام سنة ١٩٨٢ ، الدار الاسلامية للنشر ، ص ١٧٦ .

واحتمالاتها . كانت عشائر جنكيزخان قد نجحت في تدمير بغداد سنة ١٢٥٨ م ، وكلف **هولاكو** باخضاع اراضي الإسلام وذبح مايقرب من ٨٠٠٠٠ شخص ، بمن فيهم وعلى رأسهم آخر خليفة عباسي **المستعصم** . ومما لامجال للشك فيه ، هو أنه بعد أربعة وعشرين عاماً ، أي في سنة ١٢٨٢ م ، فُتِنَ ابن هولاكو هذا ، العاهل الثالث من اسرته ، **مانكوتيمور** بالديانة التي كان يُشنع عليها ، وسمى نفسه أحمداً وهو يعلن إيمانه الجديد . وهذا ماسبب الفوضى بين المقاتلين وعجل في سقوطه بعد سنتين . ولكن هذا كان بسبب عدم فهم الإسلام وجاذبيته . وبعد ثلاث عشرة سنة ، يعلن حفيد آخر لجنكيزخان ، الخاقان السابع من الاسرة ، يعلن اسلامه ، وفي هذه المرة سوف يصبح الإسلام تقاليد القصر . مع ذلك فإن المغول (الجنكيز خانيين) ، في أوج سلطتهم ، وقد أخذوا كل شيء من **العباسيين** : امبرطوريتهم ، وثرواتهم ، سلطتهم وعظمتهم ، لم يتمكنوا من حيازة لقب **الخليفة** الذي كان يفوق بصورة خفية قوة الجيوش ، وكل مظاهرها الارضية[٤٢] .

وهكذا يلاحظ ان للخليفة وضعاً خارج العمومية في التراتبية الإسلامية : فإذا كان هو رئيس الدولة ، فليس كل رؤساء الدولة خلفاء . فالمطالبة بهذا اللقب من غير العرب ، تبقى معضلة ، واكثر من ذلك ايضاً ، إذا أخذنا بعين الاعتبار الفرضية الخيالية جداً عن وجود نساء رئيسات دولة . لكن هل حقاً ثمة تعارض أساسي بين الخلافة كنموذج مثالي للسلطة وبين المرأة الحاكمة ؟

---

٤٢ ـ هنالك نصوص مثيرة حول سقوط بغداد في يد جنكيز خان ـ الفصل ١٣ «المقرعة المنغولية» في (**الصليبيون في نظر العرب**) ص ٢٥٣ ومايليها . ـ وانظر ـ برنار و لويس «المنغول» ، هاربر و رو ، ١٩٧٤ ، في الاسلام ـ ص ٧٦ ومايليها .

ـ ٢ ـ

الخليفة والسلطانة

إذا كان الدّوار الذي عانيت منه في جمع المرأة والخليفة ، والذي عانى منه كل هؤلاء الذين تلقوا مثلي تربية اسلامية صلبة ، قد تناقص بقراءة المصادر التاريخية ، فإنه لا يتوقف عند أقل مقاومة . إن تربية إسلامية جيدة تعلم المرء أن لايقول أي شيء ، وأن يضع كل شيء وكل شخص في مكانه ، وأن يحترم التراتبية والحدود . إن ربط كلمة خليفة ، جوهر الوحدانية الإسلامية ، وكلمة المرأة يبدو تجديفاً . ويعلمنا التاريخ أن الخليفة اعتبر دائماً أن المرأة غير جديرة بأن تمارس سلطة حتى الدنيوية ، كالملك ، السلطة الأرضية ، الدنيوية المنحطة . ومن حيث المبدأ فإنه (أي الخليفة) بصفته ممثل الله على الأرض ، المصدر الأعلى لكل تفويض بسلطته ، كان يعارض بصورة منهجية وصول النساء إلى وظيفة رئيس الدولة ، رغم أن أيا منهن لم تطالب بشيء آخر سوى الادارة الأرضية ، في أن تكون سلطانه . ولكن حتى هذا كان محرماً عليهن . والنساء النوادر اللواتي استطعن الصعود رغبة في ادارة الدولة ، كان الخليفة يأبى عليهن تصديقه الروحي في كل مرة طلبن منه ذلك . وبما أن السلطان بحاجة إلى ضمان الخليفة ، إلى تبريكه الروحاني كي يمارس سلطة دنيوية فقط ، حتى بدون المطالبة

بإدارة روحية فإنه لا يستطيع حكم جماعة اسلامية إذا لم يكن له نوع ما من العلاقة مع الإلهي ، وان تكن شكلية . وقد أصبحت ادارة هذه العلاقة إحدى وظائف الخلفاء في الفترة التي توقفوا فيها عن ان يكونوا اقوياء .

ومن المفارقة في هذا الشأن ، أن الخليفة مع فقدانه لسلطته الأرضية عندما استولى **المغول** على **بغداد** ، اكتشف سلطته الروحية . وأنه مع ضعفه كرئيس عسكري ، ومع تبعثر امبرطوريته وتجزئتها بين اتباعه وعبيده السابقين ، فَهِم الخليفة العربي سيطرته التي يمارسها عليهم بصفته مركز السلطة الإلهية . وبوضوح فإن لامركزية السلطة هذه ، وتكوين حكومات محلية مستقلة ووصول الاعاجم (غير العرب) إلى السلطة ، هو الذي فتح للنساء الطريق الملكي للسياسة . بيد انهن ما أن نجحن مرة في اقامة سلطتهن محلياً ، حتى توجب عليهن ، مثلما توجب على الملوك الآخرين إلتماس مباركة الخليفة ، الذي أصبح موزع شهادات المشروعية . وسوف تصطدم الملكات خلافاً لآبائهن ، وأزواجهن أو ابنائهن ، برفض قاس وبدون ملاذ في أغلب الأوقات . رفضٌ غالباً ما استغل لمصلحة مدعين آخرين بالعرش ، وأطلق أو عجّل ، إلى حد ما ، بسقوطهن ، وأحياناً بقتلهن بشكل مأساوي .

إن الخليفة العاجز عسكرياً ، والذي يوزع على قادته المغروزين في أركان امبراطوريته الأربعة ، ألقاباً مشرفة مثل ركن الدولة ، سيف الدولة أو عميد الملك ، أو ناصر الدين والدولة ، يلعب لعبة الطرفين عندما تبدأ الامبراطورية بالضعف والانهاك . فمن جهة ، يكون الرؤساء المحليون الجدد الذين وصلوا بقوة السيف ، بحاجة إلى واجهة من المشروعية ، والضمان الديني . ومن جهة أخرى ، لا يكون الخليفة المنهك عسكرياً والمفتقر اقتصادياً ، إلا سعيداً جداً ، بأن يحافظ في سلطته على ما يفتقده المنتصرون عليه ، الذين غالبا مايضعون القانون في عاصمته الخاصة . وقد كانت

الألقاب التشريفية نوعاً من التوظيف وكان منح اللقب يجري وفق طقوس رسمية . «كان يقتضي اعتراف الخليفة علاوة على عهد التولية : اشارات السلطة أمثال اللقب ، وجواد المعركة المطهم جداً ، والأعلام الخ . . .»[1] . وكانت حفلة منح اللقب تحصل في بغداد وفي العاصمة المحلية ضمن أعياد حقيقية ومع تبادل الهدايا . وفي القرن الرابع كانت الألقاب تشكل إحدى المصادر الأكثر أهمية لواردات الخليفة . ففي سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م ، عندما تلقى أمير بغداد لقب مالك الدولة ، قدم إلى الخليفة «٢٠٠٠ دينار و ٣٠٠٠٠ درهم ، وعشر قطع من النسيج الحريري ، ومئة من البروكار من نوعية عالية ، ومئة أخرى أقل جودة . . .»[2] .

إن إحدى أوائل النساء التي حلمت بالسلطنة لنفسها هي **تركان خاتون** ، زوجة **ملك شاه** السلطان السلجوقي الذي أرعب بغداد وخليفتها ، والذي حكم بين سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م و ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م . وقد طلب ملك شاه ، ذو الأصل التركي ، من خليفته القاباً مفخمة مقابل حمايته ، لأن هذا الأخير لم يكن قادراً على الدفاع عن عاصمته . وبعد موت ملكشاه ، حاولت تركان خاتون[3] تولي السلطة ،

---

١ ـ انظر كلمة «لقب» في دائرة المعارف الاسلامية .

٢ ـ ابن الجوزي «المنتظم» مخطوطة موجودة في برلين ، أشار إليها آدم ميتز في كتابه الحضارة الاسلامية الذي وضع في الأصل بالألمانية وقد رجعت في هذا الكتاب إلى الترجمة العربية المنشورة في جزئين في سنة ١٩٦٨ من قبل مكتبة الخانجي (القاهرة) ودار الكتاب العربي ص ٢٦٢ ومايليها .

٣ ـ لكي لاتختلط بخاتون أخرى تحمل نفس الاسم ، والتي سوف نصادفها فيما بعد بعد استيلاء المغول على السلطة ، فإن السلجوقية المشار إليها هنا لم تنجح في أن تصبح رسمياً رئيسة دولة في حين ان الثانية قد وصلت إلى ذلك بمساعدة المغول .

ولم يكن لابنها الوريث **محمود** من العمر سوى أربع سنوات . واذا كان الإسلام يمنع من حيث المبدأ إناطة السلطة بولد فإن المغامرة كانت ضخمة : «كانت خطبة الجمعة التي تلقى في الجوامع باسم **ملكشاه** تتردد أصداؤها في امبراطورية تمتد من حدود **الصين** إلى أقصى **سورية** ومن اقصى شمال البلدان الإسلامية إلى **اليمن** في الجنوب»(٤) . لقد كان رأس حربة الإسلام المدافع عن السنة المتجسدة في **بغداد** وخليفتها ضد هجمات الشيعة الذين أصبحوا قوة هائلة .

ومن أجل ضمان الوراثة كما اتجهت نيتها ، ولكي تستطيع الدفاع ضد كل المطالبين الآخرين بالعرش ، كانت **تركان خاتون** بحاجة إلى التواطؤ مع الخليفة العباسي في ذلك الحين ، **المقتدر** ، الخليفة السابع والعشرين من الاسرة والذي حكم ما بين ٤٦٧هـ/١٠٧٠م و ٤٨٧هـ/١٠٩٤م . ابقت **توركان** موت زوجها طي الكتمان وحاولت ابرام اتفاق مع بغداد . بدأ الخليفة القول بأن محمود مايزال طفلاً . وسعت توركان للحصول على فتوى تقول بأن محمود يستطيع ان يحكم رغم مسألة السن. بيد أن الخليفة لم يكن مستعداً لأن يدع امرأة تستقر على عرش ، مهما تكن قوية . وما كان يشغله جداً هو أن لا تُلقى الخطبة ـ التي هي امتياز السيادة ـ باسم امرأة . وقد أصر **المقتدر** على ان تكون الخطبة باسم الولد . ولم يكتف بهذا بل فرض وزيراً اختاره على **توركان** ، وقد قاومت هذه في البداية ، معتبرة شروط الخليفة كثيرة جداً ومهينة(٥) . لكنها قبلت أخيراً كل شروط الخليفة ، لأنها بدون ضمانة **بغداد** ، لا يكون لها أي حظ أمام خصومها .

---

٤ ـ ابن الأثير ـ الكامل ـ دار الكتب العلمية ـ جزء ٨ ، ص ٤٨٢ .
٥ ـ ابن الأثير ـ المرجع ذاته ص ٤٨٤ .

كذلك الأمر ، فإن خليفة عباسياً آخر ، **المستعصم** ، عارض بشدة وصول امرأة إلى عرش مصر ، **السلطانه شجرة الدر** ، زوجة الملك الصالح **نجم الدين أيوب** ثامن حاكم من الأسرة الايوبية في مصر . وقد قررت ان تخلف زوجها بعد موته في ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م[٦] . لقد كانت مصر في تلك الفترة تابعة لخليفة بغداد . وفي تلك الفترة أحرزت **شجرة الدر** انتصاراً كبيراً ضد الصليبين ، وقد استحقت ، على الأقل ، أحد ألقاب زوجها العديدة ، إذ كان يحوز من بينها على أحد الألقاب الأكثر عظمة والتي لم يحلم قائد بالمطالبة بها : «سلطان العرب والعجم ملك البر والبحر ، ملك الهند والسند ، اليمن ، زبيد ، صنعاء وعدن ، سيد ملوك العرب والعجم ، وسلطان البلدان من مشرق الشمس إلى مغربها»[٧] . وعلى الأرجح ، لم تطالب شجرة الدر بكل هذه الالقاب ، وانما كان مطلبها متواضعاً ، أن يعترف المستعصم بسلطتها رئيسة **للدولة المصرية** . أرسل الخليفة إلى أمراء مصر الرسالة الشهيرة التي ضمّنها احتجاجاً مُحِطّاً من قدرها ، أعلمهم فيها بأنه على أهبة أن يرسل اليهم رجالاً قادرين ، نظراً لأنه على ما يبدو لم يعد يوجد منهم في مصر ، طالما أنهم تصاغروا في اختيار امرأة[٨] . حاولت **شجرة الدر** أن تتجاوز إجازته ، معتقدة أنها تملك ما هو جوهري في الأمر وهو : مساندة الجيش ، الجيش الذي نجح تواً

---

٦ ـ عمر كحالة و (أعلام النساء في العالم العربي والاسلامي) ، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٢ ـ مقدمة المؤلف مؤرخة في ١٩٥٩ ، جزء ٢ ص ٢٨٨ .

٧ ـ «سلطان العرب والعجم ، ملك البرين والبحرين ، ملك الهند والسند ، واليمن وزبيد وصنعاء وعدن ، سيد ملوك العرب والعجم ، سلطان المغرب والمشرق» في الموسوعة الاسلامية ـ مادة «اللقب»

٨ ـ أبي الفلاح ، عبد الحي ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب . منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ، بدون ذكر السنة ، المرجع في الجزء الخامس ص : ٢٨٨ .

بقيادتها في ضرب الصليبيين في دمياط . وقد أعطت لنفسها لقب (ملكة المسلمين) ، ومع أن هذا اللقب كان أقل طولا من لقب زوجها ، فقد كان تحدياً للخليفة ، لأنه مس بامتيازاته . إن هذا اللقب لم يدم لها فترة طويلة ، لأن رفض الخليفة كان مصيرياً بالنسبة لها وعجل بنهايتها المأساوية ، رغم كفاحها اليائس وكل موهبتها التي استعملتها للاستمرار وقلب قواعد اللعبة السياسية . انها لعبة عنيفة ، قاسية ولا رحمة فيها ، بدت مسيطرة عليها تماماً لأنها في وقت قصير جداً نجحت في تصفية كل خصومها[٩] . وكانت المفارقة في هذا الشأن أن المستعصم هذا ، الذي سمح لنفسه تحقير شجرة الدر ومطالبها في الحكم ، لم يكن عاجزاً عسكريا فحسب ، بل إنه بسلوكه اللامسؤول تجاه المغول ، جر الدمار والخراب **لبغداد** في سنة ١٢٥٨ م ، وسبَّبَ استئصال الوف المسلمين من قبل **هولاكو ابن جنكيز خان** . لقد كان رمز أسرة في حالة إفلاس ، على عكس **شجرة الدر** التي كانت في مقدمة أسرتها ، أسرة المماليك الأتراك ، الذين كانوا وحدهم الجديرين في مقاومة جيوش المغول . ولم يستطع هؤلاء مطلقاً احتلال مصر . لم يكن رفض **المستعصم** مُبَرَّراً بالدفاع عن مصالح المسلمين ، وكان بالتأكيد في موقع لا يؤهله لتقييم كفاءاتها والحكم عليها . ولكن وبما أنه كان خليفة فهو الذي انتصر . لأنه، منذ أن عُرف موقف الخليفة ، بدأت الانشقاقات ، فرفض مسؤولو **سورية** الذين كانوا يتبعون **القاهرة** آنئذ ، الاعتراف بشجرة الدر ، وسرعان ما انقسم جيش **القاهرة** ؛ وأخيراً تم التوصل إلى تقرير ازاحتها .

إن احدى الثوابت في التاريخ الإسلامي تشير إلى أن كل تولٍ للسلطة

---

٩ ـ المصدر السابق ذاته ـ جزء ٥ ص ٢٦٨ ومايليها .
ـ المقريزي ـ الخطط ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٨٧ جزء ٢ ص ٢٣٧ ومايليها .

من قبل النساء ، استمر من اتفق على تسميتهم بالسلفيين أو الأصوليين ، ينظرون إليه كعدوان وانتهاك لقواعد اللعبة . ويختلف معنى الاصولية بحسب الزمان والمكان وحسب الثقافات ومصالح الذين يمتشقون الحسام ويبتزون الضرائب . بيد ان هذا الثابت يبقى ويخترق الامبرطورية ودولها : فما أن تقترب امرأة من العرش ، حتى تظهر جماعة تشعر بإلحاق الأذى بمصالحها ، فتحاول معارضتها باسم الروحانية ، وباسم الشريعة . وحتى حين تعمل هذه في سياق أكثر تقلباً وثورية كما جرى عند استيلاء المماليك على السلطة ، اولئك الذين كانوا في السابق عبيداً ، ويتصرفون حسب الظاهر بصورة افضل تجاه النساء ، لأنهم مثلهن ضحايا الأسر الحاكمة . وربما شكلت راضية في توليها السلطة في دلهي قبل شجرة الدر بعشر سنوات حالة استثنائية ، وكان توليها لها بفضل والدها السلطان قطب الدين ايلك العبد أصلاً ، والذي وصل إلى السلطة بواسطة أهليته وجدارته . وهو الذي أقام سيادة المسلمين على الهند ، وقرر تسميتها (راضية) ولية عهده ، رغم انه كان عنده ثلاثة اولاد . وقد حاول العلماء والقضاة وسلطات دينية أخرى كان يحبّ إحاطة نفسه بهم ، والذين كان لهم وزنهم الكبير ، حاولوا ان يثنوه عن ذلك[10] . بيد أن هذا لم يحل دون وصول راضية إلى السلطة . لكن المقاومة باسم الدين كانت خفية وقد حركها خصومها اثناء حكمها .

ولم يتخلص الاندونيسيون من هذه العقبة رغم المسافة الثقافية والجغرافية . فالملكات الأربع اللواتي تولين السلطة في امبراطورية الآتجيه Atjeh الجزء الواقع في اقصى الشمال من جزيرة صوماطرة ، في نهاية القرن السابع عشر ، تعرضن لمواجهة مقاومة دينية انكرت عليهن حقهن في

---

١٠ ـ عمر كحالة ، أعلام النساء ، جزء ١ ، ص ٤٤٨ ـ والموسوعة الاسلامية ـ انظر (الموقع) الذي هو اسم والد السلطانة راضية .

الحكم وطالبتهن بالحصول على فتوى من مكة[١١] . ولم يمنعهن هذا من احتكار السلطة حتى بداية القرن الثامن عشر ، والتحلي بالالقاب التي كانت تسبب اختلاجات للمستعصم العباسي . وكانت أولاهما تدعى بكل تواضع تاج العالم صفية الدين (١٦٤١ - ١٦٧٥م) وقد اختارت ثانيتهن اسم **نور العالم نقية الدين** (١٦٧٥ - ١٦٧٨) ، واختارت الثالثة لقباً نصفه فارسي : **عنايت شاه ذكية الدين** (١٦٧٨ - ١٦٨٨) ، أما الرابعة كمالات شاه ، فقد أوصلت حكمها بهدوء إلى مطلع القرن الثامن عشر (١٦٨٨ - ١٦٩٩)[١٢] .

إذن حكمت النساء على الاراضي الإسلامية ، وترأسن الدول ، ولكن ذلك كان دائماً خلافاً للمبادىء الدينية التي تضفي الشرعية على السلطة السياسية . لماذا ؟ ؟ إننا نعلم أن الجنس والسياسة مرتبطان تماماً بحيث يستحيل تمييز احدهما عن الاخر ، لاسيما في ثقافات تجسد وترمز فيها علاقات الرجال بالنساء لعلاقة سلطة المجتمعات التي حددت هوية الرجل ورجولته بقدرته على تحجيب ومراقبة النسوية ، والذي قلما شعر بوجوب التنازل عنها . فكل تدخل نسوي على المسرح السياسي الإسلامي يزعزع المسرح ولعبته ، كذلك مصداقية كل الممثلين ، وبخاصة الاكثر رسمية من بينهم . ويتجلى هذا في المشهد المزدوج لمسرح - الزمن : مشهد الحاضر ومشهد الماضي الذي تلعب فيه الذاكرة دور مرآة مموهة بعناية ، لحاضر لايزال عاجزاً عن اعتماد منطق آخر . فالاحتجاج الشامل ضد بنازير بوتو في هذا الصدد بليغ جداً .

---

١١ - الموسوعة الاسلامية - انظر كلمة /أتجه/ التي هي اسم الجزيرة التي حكمن فيها .
١٢ - الموسوعة الاسلامية - /اتجه/ ومن أجل التفصيلات عن حكمهن ، انظر د . بدرية أوجوك آن - النساء الحاكمات في التاريخ ، الترجمة العربية لابراهيم داكو - مطبعة السعدون . بغداد ١٩٧٣ ص ١٥٢ ومايليها .

من أين تأتّى هذا النزاع بين النسوية والسياسة ؟ ان الطريقة الأكثر بساطة لسبر الأسس الفلسفية للنزاع هي العودة أيضا لذلك المفهوم المفتاح ، الخليفة . فقد كان هذا المفهوم دائما ولا يزال حتى يومنا هذا أحد الألقاب الأقل طلبا ، رغم تعدد الدول القومية ، والاستقلال الذاتي السامي لكل حاكم . وملّاوات طهران الحالمون في أن يكونوا الزعماء الدينيين للعالم يكنون البغضاء ـ ان لم نقل العداوة ـ تجاه ملك المغرب لكونه أحد رؤساء الدول الإسلامية المحدثين القلائل الحامل للقب الخليفة . ولسوء حظهم ، فقد ورثها منذ قرون . وكان المغرب من جانب آخر أحد أوائل مناطق الامبراطورية الإسلامية ، الذي طالب باكراً بمؤسسات مستقلة جاعلاً من نفسه المقاطعة المستقلة التي لم تكن تقبل لأي كان ادعاء احتكار الروحي . وقد تبنى حكام الاسرة الملكية المغربية (٤٤٨هـ/١٠٥٦م إلى ٥٤١هـ/ ١١٤٧م) **لقب أمير المسلمين** ، كي يعبروا عن رغبتهم بالاستقلال دون ان يتنكروا لسلطة الخليفة العباسي الذي حافظ على لقب **أمير المؤمنين** . ويسمح لنا مثال الخصومة بين طهران والرباط أن نفهم في آن معا استمرارية، وأهمية رمزية الالقاب ووزنها في **الاسلام** بصفته مسرحاً سياسياً ، وحتى روحياً بشكل جوهري إلى يومنا هذا ، والمضمون القوي دائما لكلمة خليفة

إن يكن الخليفة على الدوام إماماً ، فالإمام ليس خليفة بالضرورة . ويمكن تماما تجاوز الإمام بحضور الخليفة ، لأن هذا هو في آن معا الاثنين ، فالامام هو الذي يوزع الناس في المكان في حين أن الخليفة يوزعهم في الزمن . وجذر كلمة الإمام ، هو أمّ ، الكائن الأول ، الكائن اماماً ، الكائن في المقدمة ، يوجه ويقود الناس في الصراط المستقيم ، ومن هنا المدلول الأكثر شيوعاً الذي هو اتجاه الصلاة . فإمام الجامع هو الذي يوجه الصلاة فيه . وجذر كلمة خليفة شيء آخر ، انه من كلمة خلف ، التي تعني المجيء

بعد ، التتابع في الزمن . أول من حمل لقب خليفة هو أبو بكر ، وقد سمي هكذا لأنه خلف الرسول بعد وفاته . وكما أن النبي اهتم بسلام المسلمين في الدنيا وفي الآخرة ، وذلك بمحاولة جعلهم يعيشون وفق آحكام الشريعة ، القانون الديني الذي كشفه الله ، فإن الخليفة يرث بالضرورة التوجيه الديني والمادي للمسلمين . وهكذا ، فإن طبيعة السلطة ذاتها ، تجعل الرئيس السياسي ، الذي تقوم وظيفته على تطبيق شريعة الله على الارض ، وبفضلها حفظ النظام والعدالة بين الناس ، هو أيضاً رئيس ديني . فوظيفة الخليفة هي حفظ الدين والسهر بالتوازي على سياسة الدنيا ، والمهمتان مترابطتان بإحكام . وانه بسبب هذا التشابك الكوني بين السماء والارض ، بين الله ككاشف للشريعة ، كمشرع ، والخليفة كمنفذ لإرادته على الارض ، سوف يكون استبعاد النساء منطقياً في دين موحد ، دين يكون الإله فيه واحداً ومذكراً في الوقت نفسه .

مايزال القول بأن الخليفة ممثل الله على الأرض (خليفة الله في ارضه) حتى يومنا هذا صيغة نستعملها بدون أن نفكر فيها . مع ذلك ، ومن البداية فإن الخليفة الأول أبا بكر (من ١١ هـ/٦٣٢ م إلى ١٣ هـ ٦٣٤م)[١٣] ، المعروف بتواضعه الكبير ، كان قد ارتاع من هذا اللقب ، ونصح الصحابة بالعدول عن تسميته خليفة الله على الأرض ، وقال لهم : « ادعوني خليفة رسول الله صلاة الله وسلامه عليه ـ لأنه لايمكن الحلول إلا محل الغائب ، ولايمكن ان نحل محل ماهو حاضر»[١٤] . وعلى كل حال ، فإنه بسبب تشابك الديني والدنيوي ، كما يوضح ابن خلدون «تدعى الخلافة ، الامامة الكبرى ، كمقابل مع الامامة الصغرى التي تقوم

---

١٣ ـ من الآن فصاعداً نكتب التقويم هكذا : الرقم الأول يرجع للتاريخ الهجري ، والثاني للتقويم الغربي

١٤ ـ ابن خلدون /المقدمة/ ص ١٩١

على توجيه الصلاة . فالامامة الكبرى أو الخلافة تتضمن : توجيه الصلاة ، الفتوى والقضاء والجهاد والحسبة»[١٥] . فإدارة الصلاة اذن (الامامة الصغرى» ليست سوى وظيفة من وظائف الخليفة الذي هو في آن معا رئيس الدولة ورئيس الحكومة ويشغل كل الوظائف الوزارية الهامة فيما لو شئنا استعمال اللغة الحديثة . انه في آن واحد وزير العدل والمالية و الدفاع . وبما أن المرأة كانت تستبعد من الامامة الصغرى المتمثلة في العمل البسيط (ادارة الصلاة) وذلك عند الكثير من السلطات الدينية ، فانه يصبح مفهوماً أن الأمر لايحتاج إلى نقاش في الامامة الكبرى .

وحسب رأي ابن رشد «فإن الاراء قد انقسمت حول أهلية المرأة في أن تكون إماما في جمع من الرجال ، (أي ان تؤمهم في الصلاة) فبعضهم ينكر عليها حتى أهليتها في أن تؤم جمعاً من النساء . . . ويجيز لها **الشافعي** ان تؤم صلاة النساء ، بينما حرم عليها **مالك** هذا ، أما بالنسبة **لأبي تاور و الطبري** ، فقد اجازا لها أن تكون اماما في الحالتين . مع ذلك ، فإن اكثرية السلطات الدينية متفقة على منع المرأة من أن تكون إماما في جمع من الرجال[١٦] . وطالما انه ممنوع على المرأة أن تدير ماهو «أصغر» فإنه من الطبيعي أن ترشيحها لإدارة ما هو أكبر ، لاعبرة فيه ، مع أنه أولياً ، لايوجد مايستبعدها إذا أخذنا بالاعتبار الشروط الاربعة المطلوبة في وظيفة الخليفة ، التي اتفق عليها الجميع حسب قول **ابن خلدون** . اولها العلم ، وثانيها العدل ، وثالثها الكفاءة واخيراً سلامة الحواس . وكما يقول لنا مؤلف المقدمة «فاشتراط العلم ظاهر لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى

١٥ ـ المرجع ذاته ص ٧٦ من ترجمة (ج. سيردون) و (ل. برشر) .
١٦ ـ ابن رشد ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، دارالفكر ، جزء١ ص ١٠٥ . مات ابن رشد في عام ٥٩٥ من الهجرة .

إذا كان عالما بها ومالم يعلمها لايصح تقديمه لها» . وأما العدالة فإنها في الوقت نفسه الصدق والنزاهة ، لسيرة بدون إفراط ولا تجاوز لأي نوع ، ذلك لأنها وظيفة دينية . ومفهوم الإتزان هو الجوهر بهذا المعنى : فالخليفة ينبغي ان يكون ، بقدر المستطاع ، رجلاً لايرتكب المحظورات ، رجلاً لايأتي بالبدع . ومعروف ، أن كل بدعة هي انحراف ، مغادرة السراط المستقيم للشريعة التي سبق أن رسمت بدقة . وأخيراً فالكفاءة مطلوبة لأنه «ينبغي أن يكون جريئاً على اقامة الحدود واقتحام الحروب»[١٧] . وأما شرط سلامة الحواس والاعضاء فهي تتطلب أن يكون الخليفة في صحة جيدة وأن لايكون «لامجنوناً ولا أعمى ولا أطرش ولا أخرس . . . وما شابه ذلك»[١٨] .

ويشرح ابن خلدون في نهاية الفصل ٢٦ من مقدمته حول الخليفة وشروطه ، لماذا لايمكن للنساء تولي الخلافة فيقول : « . . . . إن الله سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولايخاطب بالأمر الا من له قدرة عليه ، ألا ترى ماذكره الامام ابن الخطيب (فخر الرازي) في شأن النساء وانهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وانما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات التي كل واحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فإنه لايقوم بأمر أمة أو جيل الا من غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي والله تعالى اعلم»[١٩] . وعلى مستوى

١٧ ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٩١ .
١٨ ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣ .
١٩ ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٩٦ .

المبادىء ، فإن الإسلام صافٍ شفاف ، واذا سلمنا بالأولية القائمة على انه ليس لهن فعلياً اية قوة ، فإنه لايمكن اذن ان تناط بهن مباشرة أية مهمة إلهية ، وأن مؤسسة (الإسلام) الجوهرية ، الخلافة ، لاتترك أي شك حول هذا الاستبعاد للنساء من السياسة . واذا كان خصوم السيدة **بوتو** قد وضعوا أنفسهم على مستوى المبادىء ، وقرروا ألاّ يتحدثوا إلّا عن وظيفة الخليفة المحرمة على المرأة ، فإنه لايمكن نقض اقوالهم هذه . . بيد أن المسألة هي في أن ضياء **الحق** لم يكن خليفة ، رغم ادعاءاته الدينية بإقامة حكم الشريعة كي يستر عسف حكمه العسكري . وفي الواقع ، إن ماعابه الأصوليون على السيدة **بوتو** ، إنما هو نجاحها في الانتخابات . لكن المألوف ، أن المسلمين الاتقياء الذين يرغبون في التمسك بحرفية السنة الإسلامية ، لايجوز لهم المشاركة في انتخابات شعبية باقتراع شامل ، لأن هذه الانتخابات الشاملة غريبة بكليتها عن ذهنيتهم وعن سنة البيعة . «فالبيعة هي العهد على الطاعة ، فكأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم إليه النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين ولاينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره»[٢٠] . فليس هنالك صلة بين الانتخابات في اقتراع شامل والبيعة ، لأنها تخالفها في مبدئين اساسيين : أولهما ، أن البيعة نهائية ، في حين أن التصويت في اقتراع شامل موقوت ويتجدد على فترات منتظمة ، وثانيهما أن البيعة امتياز للأعيان ، من اولئك الذين سبق أن كان لهم جزء من القرار من أهل الحل والعقد أي الذين يحلون ويربطون . وهنالك كلمة أخرى تخص النخبة هي أهل الاختيارأي : أولئك الذين لهم حق الاختيار . ولم يسبق في أية فترة من فترات التاريخ الإسلامي ان جرت محاولة لإشراك كل الناس ، أي عامة

---

٢٠ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ .

الشعب .

لايجوز خلط مفهوم العامة ، الناس العامين ، مع مفهوم الأمة ، التي أصلها أم ، والتي هي جماعة المؤمنين . فالكلمتان تعودان إلى جمهور المؤمنين ، ولكنه في حين أن مفهوم الأمة ايجابي ، فإن مفهوم العامة محقر ومنتقص ، فالعامة جماهير جاهلة ، معارضة بطبيعتها ، لأنها غير قادرة على التفكير أو التعقل ، وبصفتها هذه ينبغي استبعادها من السلطة . فالعقل ، القدرة على التمييز والتفكير ، اساسي بالنسبة لكل مسلم لا سيما بالنسبة لمن ينبغي ان يحكم ، واذن ، فإن إبعاد الجماهير يفرض نفسه لأنها محرومة منه . والنخبة ، أهل الحل والعقد ، وحدهم يمكنهم التقرير ، وهم وحدهم من يستطيع القيادة . أما العامة ، جماهير الشعب ، فهي - حسبما يصفها دائماً الأدب التاريخي - مثل الغول الذي يتبع العصاة دون تفكير ، ولكونها هكذا ، ينبغي تكميمها ومراقبتها باستمرار ، و قمعها عند الضرورة . ودور النخبة هو في مساعدة الحاكم على قمع العامة . فالعامة والنساء مستبعدات بالضرورة عن المسرح السياسي الخليفي . وسوف نرى أن النساء لسن وحدهن ممن يجب ان يرتدي الحجاب ، فالعامة ايضاً منفصلة عن الخليفة بحجاب . إن الانتخابات باقتراع عام ، يشكل خرقاً للحجب ، هذه الحجب التي تنظم المسرح الخليفي بتشخيص الممثلين وتعيين محل المتفرجين .

ولايوجد مايمثل أو يرمز بصورة اوضح لعلاقة السلطة بالعامة ، هذا الشعب الشيطاني الذي هو في حالة عصيان دائم ، من خطاب **الحجاج بن يوسف الثقفي** ، الطاغية الأكثر شهرة من بين مَنْ مارسوا الطغيان في الإسلام ، حيث كان ارسله الخليفة الأموي الرابع **عبد الملك بن مروان** ٦٥هـ/٦٨٥م - ٨٦هـ/٧٠٥م إلى العراق الذي كان في وضع تمرد على سلطة الخليفة . ولايزال الخطاب الذي القاه في هذه المناسبة هاما وله مدلوله

الكبير في ثقافتنا ، والذي كان يشكل جزءاً من النصوص في المدرسة الابتدائية في أيامي ، وكما كنا نجهل فحوى كلماته ، المسجوعة كالشعر ، فقد كنا نتابع الترنم بها في باحة المدرسة اثناء الفرصة ونحن ننط على الحبلة . فبعد أن اعتلى الحجاج المنبر وحمد الله وصلى على نبيه قال :

«ياأهل العراق ، إن الشيطان استبطنكم فخالط اللحم منكم والعظم والأطراف والأعضاء وجرى منكم مجرى الدم وافضى إلى الاضلاع والأمخاخ ، فحشا ماهنالك شقاقاً واختلافاً ونفاقاً ، ثم أربع فيه فعشش ، وباض فيه ففرخ ، واتخذتموه دليلاً تتابعونه ، وقائداً تطاوعونه ومؤمراً تستأمرونه ، ألستم أصحابي بالأهواز حين سعيتم بالغدر بي فاستجمعتم عليَّ وحيث ظننتم أن الله سيخذل دينه وخلافته . . فما الذي ارجوه منكم ياأهل العراق ؟ أم ماالذي اتوقعه ؟ ولماذا استبقيكم ؟ ولأي شيء ادخركم ؟ أللفجرات بعد العداوات ؟ أم للنزوة بعد النزوات وماالذي أراقب بكم ؟ وماالذي انتظر فيكم ؟ . . . ياأهل العراق ، هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو وبى كاذب الا كنتم انصاره واشياعه ؟ ياأهل العراق لم تنفعكم التجارب وتحفظكم المواعظ وتعظكم الوقائع . . .»[٢١] . وبعد هذا اطلق الحجاج جيشه في المدينة وأمره بأن يلقن سكان العراق درساً لتعليمهم طاعة السلطة . وقد تم بذلك تصفية كل من وصم بالمعارضة . بعيداً كان أو قريباً ، وصودرت أموالهم . . .

بعد سماع هذه القصة عن الحجاج ، ران الصمت على الصَّف لهول المجزرة التي أصابت العراقيين ، وهنا شعر معلم الصف أنه ملزمٌ لانقاذ سمعته وسمعة الخليفة ، في أن يضيف بأن الخليفة كان متأثراً من ذلك ، وراح الاستاذ يحكي لنا عن رسالة الخليفة إلى الحجاج التي تطمئننا عن براءة

---

٢١ ـ مروج الذهب للمسعودي جزء ٣ ص ١٣٢ .

السلطة الروحية . فراح يقول :

ولما أسرف الحجاج في قتل الأسرى ومصادرة الأموال بلغ ذلك عبد الملك فكتب اليه : «أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء ، وتبذيرك في الأموال ، ولايحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك امير المؤمنين في الدماء ، في الخطأ الدية وفي العمد القوة ، وفي الأموال ردها إلى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه ، فإنما أمير المؤمنين أمين الله . . . .» . . وهنا تجاوزت السلطة الأرضية الحدود ، وكان واجب الخليفة ان يحمي المؤمنين ، لكن السياسة الواقعية اثبتت ويااللأسف أن أمير المؤمنين كان بحاجة إلى الحجاج ، ولذلك ورغم كل شيء فقد حافظ عليه ، رغم وحشيتة ، كأحد رجال النظام الاقوياء .

إن مأساة الخلافة كانت ترجع دائماً إلى الهوة التي تفصل الخليفة عن العامة ، هوة مملوءة بالنخبة والعسكر . والتصويت العام الذي يُدخِلُ العامة إلى المسرح السياسي كممثل اساسي يفتح ممارسة السياسة الإسلامية على افق جديد . افق غريب بالنسبة للتطبيق ، ولكن ليس غريباًبالنسبة للمثل الأعلى للحاكم العادل . ان الديمقراطية البرلمانية تكشف افقاً يصبح فيه غير المسؤولين سابقاً ، العامة والنساء في اثرها ، شركاء اساسيين في اللعبة . ذلك هو العالم المقلوب . فلماذا دوارُ الرأس ، ومن المستحسن احياناً حصول هذا النوع من الدوار : عندئذ يكفي ايجاد علاج ضد الدوار ولكنه ليس بالبحث في الرجوع إلى الوراء . في هذا الاتجاه ، تكون التجربة الباكستانية في وصول امرأة لرئاسة الدولة بفضل تصويت العامة فرصة خارقة للتعود على التحرك في عصر مليء بالتحديات . عصر ، لم يعد فيه مبعدو الأمس ومنهم النساء ، لم يعودوا بحاجة إلى التحجب كجواري الزمن الماضي ليحكمن .

ـ ٣ ـ

الجواري أو ثورة الحريم

لكل تاريخ سماته ، وله مراجعه ، انظمته ومشاكله ، عصوره الذهبية وانحداراته ، والأحداث بين الاثنين ، هي التي «تحسب» . وأحد الاحداث الحرجة التي درسها المؤرخون ، الذين يتخذون مكانهم ، بصفتهم مراقبين ، جانب القصر دائماً ، هي ثورة الزنج ، العبيد السود التي حصلت في عهد العباسيين في ٢٥٥/ ٨٦٩ وهي أول ثورة عرفها الإسلام . مع ذلك يمكن ان نشير إلى أن أول ثورة عبيد كانت ثورة الجواري اللواتي انطلقن قبل هذا التاريخ للهجوم على الخلفاء . والصعوبة الوحيدة هي في تحديد تاريخ الحدث ، في تعيين هوية أول خليفة كان رهينة مفاتن أمَته المغنية . أكان هذا هو يزيد الثاني ابن عبد الملك ، تاسع خليفة أموي ، ذاك الذي لم يتول السلطة في سنة ١٠١هـ/٧٢٠م إلّا ليعيدها ـ كما يقول الطبري ـ إلى جاريته حبابة ، التي كان يقول لها عندما يصل إلى أوج سروره ، إنه يود أن يطير ؟ وحبابة هذه هي التي كان ينبغي عليها أن تذكره عندئذ بمهمته على الأرض وبلزوم عدم الذهاب بعيداً[١] . أتكون تلك الأمَة هي خيزران امرأة

---

١ ـ الطبري ـ التاريخ جزء ٨ ص ١٨٩ .

المهدي ، ثالث خليفة عباسي (١٥٨هـ/ ٧٧٥م) ؟ فهذه لم تقنع كحبابة بأن تسحر زوجها ، وانما قادته إلى اشراكها معه في سلطته ، وبعد موت هذا الأخير ، سوف يستمر نفوذها في حكم ولديه **الهادي** ، ثم **هارون الرشيد** من بعده .

ان سلطة الإماء على الخلفاء اجرت تحولات لم تنص عليها الشريعة حتى في صميم النظام ذاته ، في علاقة النساء مع «ممثل الله على الأرض» . وخلافاً للزنج الذين حاولوا الاستيلاء على السلطة في محيط المدينة ، فإن الجواري كنَّ يعملن في قصر الخلافة نفسه ، في فراشٍ وقلْب من نصَّبَهُ الشرع حاكما مطلقاً على الأموال والأرواح . بيد أنه ، لامكانية المقارنة ، ينبغي مبدئياً معرفة ماهية ثورة العبيد هذه التي سُجِّلت رسميا من قبل المؤرخين ، كأول الثورات .

كان الزنج عبيداً من السود ، جاؤا من السودان ، وكانوا يعملون في ظروف قاسية جداً في البحيرات الشاطئية المالحة بجوار **البصرة** . لقد امتشقوا السلاح ، واحتلوا المدينة وأخذوا طريقهم إلى بغداد ، وقطعوا بذلك لسنوات عديدة ، طرق المواصلات الكبرى التي كانت تربط **بغداد** بالخليج . ولم يتوقفوا الا على مسافة ٢٧ كيلو متراً من العاصمة ، ودامت ثورتهم أكثر من اربعة عشر عاما ، واحدثت اضطراباً في عهد وحياة أكثر من خليفة . . وقد بدأت ثورتهم حسب النموذج الذي مايزال إلى يومنا هذا يعرفه الإسلام ـ بصفته حكماً مرتبطاً بالمقدّس ـ بثورة الجماعة باسم العدل الإلهي . وقد ثار الزنوج ضد شروط العمل الذي فرض عليهم والتي أعلنوا أنها ظالمة حسب الشريعة ، القانون الإلهي . وباسم هذا القانون رفضوا الخضوع إلى الخليفة الذي ، بحسب رأيهم ، انتهك عهد الله[٢] .

---

٢ ـ ذلك هو السيناريو المتبع في كل الحركات الاسلامية حتى يومنا هذا بدون استثناء .

في البداية ، كان **علي بن محمد** هو الذي قاد الثورة وكان هذا ، حسب **الطبري** ، معارضاً زعم أنه من سلالة **علي ابن أبي طالب**(٣) . وقد أعلن لرفاقه انهم يستطيعون تغيير ظرفهم التعيس في البحيرات التي يستخرجون الملح منها ، وان يصبحوا الأسياد الأغنياء والمحترمين ، إذا امتشقوا السلاح ؛ وهذا مافعلوه . وقد ترك العبيد أسيادهم وانضموا باعداد كبيرة للرئيس الديني . وعندما سمع أهل البصرة لأول مرة الحديث عن الثورة ، لم يصدقوا آذانهم فذهبوا إلى «الواعظ» ليأخذوا عبيدهم الفارين ، ولشدَّما كانت دهشتهم ، اذ أعطى الرئيس الديني أمراً لكل عبد بأن يضرب سيده ٥٠٠ سوط قبل أن يطلقه ، ليدلل على رمزية مشروعهم ويعلن هكذا طبيعة منهجهم(٤) . وبعدئذ نظم العبيد أنفسهم وعينوا واحداً من بينهم قائداً واندفعوا لنهب المدن مزدرين بالجيوش الرسمية . بيد أنهم ، شأنهم في ذلك شأن كثير من المعارضات الشعبية التي لم تتوقف عن زعزعة العصر العباسي الذي غالباً مايقدم لنا كعصر ذهبي ، قد انتهى تمردهم بحمام دم . ولم تسحق ثورتهم الا في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م في عهد الخليفة العباسي الخامس عشر ، **المعتمد** . ومن المؤسف فعلاً ان مؤرخا مدققاً كالطبري لم يتوصل حتى في السبع عشرة صفحة من تاريخه /تاريخ الأمم والملوك/ المكرسة للحدث ، إلى تسمية رئيسهم باسمه . فهو يسميه إما «صاحب الزنج» وإما

---

٣ ـ الطبري ج٢ ـ ص ١٧٤ .

٤ ـ تاريخ الطبري ج٢ ـ ص ١٧٧ . وقد جاء عند الطبري ان زعيم الثورة هذا (خطبهم ووعدهم أن يقودهم ويُمَلِّكَهم الاموال وحلف لهم بالإيمان أن لايغدر بهم ولايخذلهم فأتاه مواليهم وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير لقاء تسليمه فرفض وبطحهم وامر كل من عنده من العبيد أن يضربوا مواليهم أو وكيلهم كل سيد خمسمئة سوط ثم اطلقهم فمضوا نحو البصرة . . .» .

«عدو الله» واما أيضاً «الخبيث»[٥] . ومن البداهة بمكان ، أن كل المؤرخين الكبار للتاريخ الرسمي يفعلون الشيء ذاته ، وعلى رأسهم **ابن الأثير** . فبعد قرون من الزمن سيعيد هذا ، بالنسبة لسنة ٢٥٥ ، ما كان قاله الطبري حرفياً من شتائم[٦] . وبمقارنة الصدمة المحدودة لثورة الزنج ذات الطابع الحربي ، كانت ثورة الجواري عميقة ومستمرة لأنها عزفت على الوتر العاطفي والجنسي ، الغرامي والشهواني . فالنساء الإماء لم يُعلنّ الحرب على أسيادهن . غمرنه بالحب ! ونحن نعلم كم نكون بلا دفاع في حالة كهذه . فالحب ، هو بالفعل ترك خطوط الدفاع تنهار واهمال الحدود ، وتشويش الأعتاب والغاء الحواجز . . . .

وفي هذا الصدد تطالعنا صورة **يزيد الثاني** ، الخليفة المولع بأمته المغنية والشاعرة التي كانت تدخله في حالة من الرعدة وتجعله يتكلم عندئذ بكلمات خرقاء اثرت كثيراً في المؤرخين . حتى **المسعودي** الذي تعود أن يروز الحكايات فانه يفقد حس النكتة عندما يصل إلى الخليفة **يزيد الثاني** . «في أحد الأيام ، واثناء احدى الجلسات التي كانت تغني فيها حبابة ، طرب يزيد طرباً شديداً وأخذ يصرخ : «أريد أن أطير !» فقالت له حبابة : «ياأمير المؤمنين إذا تركت الأمة وتركتنا ، فمن سيعتني بأمرنا[٧] ؟» . وعندما ماتت حبابة بصورة مفاجئة مختنقة بحبة رمان ، بين اغنيتين ، نسي الخليفة **يزيد** الموله بها ، نسي العالم وواجبه ، والمؤمنين وغير المؤمنين . وكانت العاصمة الإسلامية مكرهة على اقامة الصلاة بدون الخليفة . وقد رفض هذا دَفْنَ حبابة وبقي يندب ويبكي على جثتها ورفض مفارقتها ،

---

٥ ـ المرجع السابق . تاريخ الطبري ـ ص ١٧٤ ومايليه .
٦ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ج٥ صفحة ٢٤٦ ومايليها . .
٧ ـ مروج الذهب للمسعودي ج٣ ص ٢١٠ .

مهملاً الصلاة ، والدولة والجوامع وطقوس يوم الجمعة . وبعد بضعة أسابيع شيع المؤمنون أول ، وربما آخر خليفة مات حزناً وألماً على جارية ، عبدة ، وقد اعتبر مثل هذا حتى ذلك الحين أمراً تافهاً . كل المؤرخين أنّبوا **يزيد الثاني** ولم يلق بصفته خليفة ، الحظوة والاحترام الا بريشة أبي **الفرج الاصفهاني** مؤلف **كتاب الأغاني** حيث تظهر حبابة بين الفنانات اللواتي ساهمن في انطلاقة الشعر والغناء . وخلافاً لشروح **المسعودي والطبري** اللذين تبنيا وجهة نظر السلطة ، حيث وصفا حبابة بأنها شريرة وعدوة الله ودينه ، فإن مؤلف الاغاني اعتبرها شاعرة موسيقية عبقرية ، واعتبر **يزيداً** إنساناً ذواقاً للجمال مهيئاً لتلقيه(٨).

صحيح أن **كتاب الأغاني** ليس كتاباً تاريخياً تقليدياً ، وقد كرس مؤلفه الاربعة والعشرين جزءاً منه لوصف الخلفاء والوزراء في أمكنة اللهو والانشراح وليس على ساح القتال . وكتاب الأغاني هذا محاولة لتحليل انطلاقة الغناء والموسيقى في الحضارة العربية ، وكما ان أفضل المغنين والشعراء داروا حول القصور ، فإن الجواري شغلن فيها مكانا مركزياً نظراً لمساهمتهن في تطوير هذه الفنون . لقد صنع **ابو الفرج الاصفهاني** ، مؤلف **كتاب الاغاني** ، **تاريخ الفن** ، وليس تاريخ السلطة ، وقد قدم لنا الجواري **كحبابة** من منظور مختلف تماما .

وبالنسبة **للمسعودي والطبري** اللذين كانا من المسلمين الأخيار ، لم تكن حبابة في رأيهما سوى جارية أضلت الخليفة عن مهمته . ومن المهم في هذا الشأن ملاحظة أن المؤرخين يُحقرون يزيد الثاني لأنه أحب **جارية** علنا ، إلى درجة **أنهم لم يُحيّوا فيه تقربه المبدع في مجال الممارسة**

---

٨ ـ كتاب الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ دار إحياء التراث العربي ط ١٩٦٣ سيرة حياته في الجزء ١٥ ص ١٢٢ .

السياسية ، وقد مروا بصمت على محاولاته اجراء حوار مع المعارضة . ففي حين كان العقاب بقسوة للمعارضين ، وكانت تصفيتهم سنة وتقليداً في اعراف الخلفاء السياسية حتى سلف يزيد هذا ، فإنه وهو المسالم ، قد شجع الحوار وشرع في مناقشة من عارضوه وخرجوا عليه ، وهو الأمر الذي لايجوز اهماله . وفيما ثُمّنتْ مثل هذه المبادرات وكيل المديح إلى سلفه **عمر بن عبد العزيز** ، أول خليفة أموي تراجع عن تصفية معارضيه من الشيعة ودشن عهد الحوار معهم ، فإنه لم يكن يشكل شيئاً بالنسبة ليزيد الذي تابع مع ذلك سياسته . وسوف يعتبر يزيد بصورة منهجية ، منحلاًّ وغير أهل على المستوى السياسي . إن إعادة قراءة التاريخ الإسلامي في أيامنا بنظرة حديثة ، ومع اهتماماتنا الراهنة أي تلك التي تتعلق بالديمقراطية وحقوق الانسان ، هي أن نعيد التفكير والتأمل في هذا الذي يسميه مؤرخونا «رئيس دولة كبير» .

ثمة حاكم آخر صُنف كحاكم كبير ومتميز ، دفع به «واجبه كحاكم مسلم جيد» إلى قتل الجارية التي أحبها ، بحجة أن شغفه بها كان منافياً بشكل فاضح لمهمته السياسية . واستطيع القول أن هذا لم يكن عربياً لأن مثل هذه المغالاة في التعارض بين الهوى الجامح والتجلية السياسية هو بالتأكيد غريب عن الإسلام العربي كما بشر به وطبقه **النبي محمد**[٩] . والحاكم الذي نتكلم عنه هو عضد الدولة ٣٣٨هـ/٩٤٩م - ٣٧٢هـ/

---

٩ - في كثير من المناسبات كرر النبي القول بأن النساء يشغلن جزءاً هاماً في حياته ، وأن عائشة التي كانت غالباً ماترافقه إلى ساحات القتال كانت احب شخص إليه في الدنيا . وكانت نجاحات النبي الجنسية مع نسائه العديدات تشكل جزءاً من صورته كقائد يتجاوز العامة من الناس في كل الميادين بما في ذلك ميدان الحب والجنس . وكان فخوراً بأنه الأفضل مع نسائه . انظر في هذا الشأن كتاب (الحريم السياسي) النبي والنساء .

٩٨٢م ثاني حاكم من الاسرة البويهية الشيعية التي كانت تحكم بغداد في القرن الرابع الهجري . ففي ذلك الحين لم تعد سلطة الخليفة العباسي سوى سلطة رسمية ورمزية . كان البويهيون ، الأسرة الإيرانية ، يشكلون جزءاً من تلك الارستقراطيات العسكرية التي استولت على السلطة محلياً ، بدئياً في فارس التي أقاموا فيها سلطة دنيوية . ورغم دخولهم إلى بغداد كقوة عسكرية ، ومع أنهم من الشيعة ، إلا أنهم احترموا الامتيازات الرمزية للخليفة العباسي الذي كان سنيا(*) . ولقد منحهم هذا ألقابا . وأناط بهم الحماية العسكرية التي كان بحاجة اليها . وكانت طقوس تنصيب رئيس مدني من قبل الخليفة ، وهي الخطبة ، وصلوات الجُمع الرسمية

(*) ثمة مايلفت النظر في هذا الموقف ويبعث على التساؤل ، لِمَ لم يقدم هؤلاء (البويهيون) على خلع الخليفة العباسي السني ويعطوا الخلافة لأهلها كما تقول الشيعة أي (أهل البيت) ؟ فقد كان الإمام من أهل البيت موجوداً ومع ذلك لم يُقدموا على تنصيبه . . . ألا يحتمل أن يكون ذلك بسبب تخوفهم من انقلاب الناس عليهم ، الناس الذين كانوا قد يئسوا من ضعف الأسرة العباسية وفسادها ، وسواء أكان هؤلاء الناس عرباً أم عجماً ؟ فإن يتولَّ الخلافة إمام من أسرة لعب تاريخها الديني والاجتماعي دوراً مهماً في جعل الناس يتفاءلون خيراً بتسلمها زمام الأمور ، نقول إن يتولَّ الخلافة إمام كهذا أنما كان يعني ان اولئك الناس المتذمرون سيعلنون طاعتهم للخليفة الجديد ويرفضُّوا من حول تلك القادة ، المتلاعبين بالخليفة العباسي والمدغدغين لعواطف ومصالح الجماهير بتبنيهم حق أهل البيت لكسب تأييدها ؟
اذن ألا يجوز القول أنَّ مصلحة القادة البويهيين المتشيعين كانت تقتضي تعاملهم مع خليفة ضعيف ولو أنه من غير مذهبهم ، بدلاً من العمل على مساعدة إمام من أهل البيت في تسلم الخلافة ، خليفة جديد سيكون له من القوة ما يضمن فرض سيطرته ، تاريخه الديني (قربه الشديد من النبي) ، انتماؤه القومي الذي يحصر الاسلام فيه أمر الخلافة ، مكانته الاجتماعية واستقامته غير المشوبة ، إذ كانت تلك العائلة ماتزال بعيدة عن مفاسد السلطة ، ألا يجوز قول هذا ، أي أن السياسة تغلبت على العقيدة؟
الناشر

والاحتفالات الأخرى تسمح لهذا الزواج السياسي ، العجيب بين المتدينين والعساكر ، بأن يسند وينسق العلاقات اليومية . مع ذلك ، فإن **عضد الدولة** قام بعملين «مكدِّرين» في نظر المسلم الورع ، اشارا في الواقع إلى بداية انحطاط الخلافة بصفتها سلطة عليا . بدئياً ، كان أول رئيس مسلم يتلقب **بشاهنشاه** ، وشكّل ذلك اساءة خطيرة للاسلام ، لأن هذا اللقب كان لقب ملوك **الفرس** قبل الإسلام ، الذين كانوا قبلاً قد حاربوا الإسلام وبالتالي فإن عضد الدولة كان يخطط بعنجهية لاظهار تحدره منهم . والأمر الثاني كان طلبه إلى الخليفة العربي ، أن يُذكر اسمه في خطبة الجمعة في جوامع بغداد بعد اسم الخليفة . وكان مثل هذا الطلب يشكل اهانة مريرة بالنسبة لنظام الخلافة ، نظراً لرمزية هذه الخطبة . مع ذلك وُصف **عضد الدولة** كحاكم كبير . وهنالك مؤرخون مهمون مثل **ابن مسكويه** الذي أعطى عنواناً لكتابه **تجارب الأمم** ، والفقيه **ابن العماد** مؤلف كتاب **شذرات الذهب** ، وقد خصص كل واحد منهما فصلاً حول امكاناته بصفته حاكماً بارعاً ورئيساً عسكرياً فذاً[١٠] . وتمثلت الحادثة في إعطائه أمراً بتصفية جارية بريئة كل خطبها التعس هو أنها أعجبته كثيراً مع أنها قلّما كانت تكدر عيشه كرجل سياسة . انه لمن المفيد أن نأتي على تفصيلات صيرورة قرار الأمير . فالذي كان يُضايقه في الحب ، أنه لم تعد لديه القدرة على التركيز . فبعد أول «خلوة» له مع الجارية التي امتدت على مايبدو ليال عدة ، أخذ في الحسبان أن أمور الحكم قد تكدست وأحس بالبؤس بسبب اهماله لواجباته . فاتخذ قراره بأن لايراها ثانية ، لكن

---

١٠ ـ ابي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ـ منشورات دارا لآفاق الجديدة ، بيروت جزء ٣ ص ٧٨ .

ـ مسكوية ، كتاب تجارب الأمم ، شركة التمدن ، مصر ط ١٩١٥ جزء ٧ ، ص ٣٩، وبالنسبة لعضد الدولة ، لست متأكدة من الجزء . ينبغي التأكد ان يكن في ج ٦ أو ٧

تصميمه لم يثبت بسبب شغفه العنيف بها . ورتب خلوة أخرى وحصل الامر نفسه ، «فتمثل وضعه وتأمل في الصورة فرأى الخلل . . . فاستدعى / شوكر/ ، وأمره بأخذ الجارية واغراقها في النهر[١١]» . لقد كانت محاكمته بسيطةً وقاطعةً وبيّن للجلاد **شوكر** : «أن من ينقاد للشهوات يصبح سياسياً سيئاً وسوف يفقد بالضرورة سلطته الأرضية» . ولحسن الحظ ، لم يكن للخلفاء العرب جميعاً الفكرة السخيفة بتصفية النساء اللواتي أحبوهن ،وخلافاً لحبابة ، فان الجواري الاخريات لم يكنَّ يكتفين باغراء الخليفة ، بل كنَّ يتطلعن إلى السلطة السياسية ، وتوصلن بسرعة إلى مشاركته بها . . .

إن أول جارية احتالت للوصول إلى دور سياسي ولعبت دوراً مؤثرا غير الدور المعين لها في الحريم ، هي **الخيزران** . . . لقد مارست السلطة لفترة طويلة جداً من الزمن ومن خلال عدد من الخلفاء ، زوجها وولديها ، ومن خلالهم حكمت الأمة والامبراطورية بكاملها[١٢] . وثمة جارية أخرى ظهرت على المسرح السياسي في عهد الأسرة العباسية ، هي الجارية **شغف** ، أم الخليفة الثامن عشر **المقتدر** (مات في ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) ، وقد نجحت في توجيه وتحريك كل النخبة البيروقراطية ، الدينية والعسكرية ، للاعتراف بابنها كخليفة ، وذلك بالرغم من انه لم يكن له من العمر سوى ١٣ سنة ، وقد عاند القاضي **أحمد بن يعقوب** فلم يعترف **بالمقتدر** وأصر ، بصفته سلطة دينية ، على أن هذا مايزال طفلاً وبالتالي ليس مؤهلاً ليصبح خليفة ، وقد صُفّي مع كامل الجماعة التي كانت تشاركه الرأي نفسه[١٣] .

---

١١ ـ المرجع ذاته جزء ٧ ص ٤٢ .

١٢ ـ سوف يرى القارئ في الفصل القادم المكرس لها ذكراً للمراجع المعتمدة .

١٣ ـ الطبري ـ التاريخ جزء ١٢ ص ١٦ .

في كل مرة حصلت فيها النساء على السلطة مارسن الفظائع التي لم يأت الرجال على مثلها ، وذلك باستخدام الحجة السياسية الوحيدة المقنعة قبل اكتشاف الانتخاب وهي : القوة الوحشية . وكانت النساء ، كالرجال ، يمضين في استعمال وسيلة الاغتيال السياسي ، عندما يكون ضرورياً ، لكن ربما بطرق أكثر نعومة ، مثل الخنق والتسميم ، بدلاً من استعمال السيف أحياناً ؛ وينبغي بحث الفارق ، على هذا المستوى من التفصيل التقني بدلا عن غيره . على كل حال ، اعطت تصفية القاضي مصداقية سياسية كبيرة لهذه الملكة التي لم يُسمّها المؤرخون ، والتي سوف يشيرون اليها إما بوظيفتها البيولوجية **أم المقتدر** ، وإما بوظيفتها السياسية **السيدة** ، اللقب الذي كان يدل ، كما رأينا ، على النساء من علية القوم ، النساء الحرّات ، والذي سرعان ماأعطي إلى كل اللواتي مارسن سلطة سياسية بطريقة رسمية ما .

لقد كان **للسيدة أم المقتدر** مفهوم سياسي يمكن توصيفه في أيامنا هذه بـ (النسوي) جداً . وبرأيها ، ان شؤون **الأمة** ، وبخاصة العدالة ، تدار بصورة افضل فيما لو تولتها امرأة . ولذلك عينت «تومال» احدى مساعداتها ، مسؤولة عن المظالم ، وهي وظيفة كانت تعادل مانسميه اليوم وزير العدل ، الأمر الذي أثار استنكار القضاة والوزراء . وقد بدأت السلطات الدينية ، وبخاصة القضاة الذين كان عليهم أن يعملوا حسب أوامر تومال ، بدؤوا بالمقاومة واستهجنوا هذا التعيين[١٤] . ثم أظهروا مطالبهم المعادية للنساء ورفضوا التعاون مع رئيستهم الجديدة . بيد أنهم عندما تأكدوا أن السيدة ليس لديها أيّ نية في التخلي عن **تومال** ، طأطؤوا رؤوسهم وقبلوا التعاون مع رئيستهم الجديدة . وكانت ذكرى مصير

١٤ ـ الطبري ـ المرجع ذاته ص ٣٧ .

القاضي **يعقوب** ماتزال ماثلة في الأذهان .

عندما يتعلق الأمر بالنساء فإنه لابد من الاعتراف بموضوعية كبار المؤرخين القدامى **كالطبري** مثلاً ، وهي موضوعية قلما يوجد مثلها عند المحدثين . وقد ذكر **الطبري** أن **تومال** قامت بمهمتها خير قيام وأنها رغم نفور الناس الأولي ، فإنهم أحبوها فيما بعد وثمنوا طريقة عملها ، وبواعثها . وبعد تعيين **تومال** كان أول أمر أصدره المقتدر هو إنهاء الرشوة وتخفيض مصاريف العدالة . ولم يعد يتوجب على المتداعين ان يدفعوا سوى الحد الأدنى من النفقات للنظر في قضاياهم ، وبعبارة أخرى لم يعودوا يدفعون سوى ثمن القريض (الورق) ، ولا يقدمون شيئاً ابداً للمساعدين وصغار الموظفين الآخرين الذين يتحلقون حول كبار موظفي العدالة[١٥] . وهذه التفصيلات الهامة التي تتعلق بأحد الأحداث المدهشة من التاريخ الإسلامي ، وهو تعيين امرأة على قمة العدالة وفرح شعب مستضعف أمام مسؤول يكافح فساد الجهاز القضائي ، سوف تزول بالطبع ، من السير الذاتية التي يكرسها المؤرخون المحدثون لأم المقتدر . وقد سبق **لابن حزم** الذي كتب بعد قرن من **الطبري** ، أن قال إن تسمية **تومال** في وظيفة المسؤول عن المظالم هي من بين الغرائب لمجموعة من الأعمال تشكل «فضائح لم يشهد التاريخ لها مثيلاً حتى أيامنا هذه»[١٦] .

ويُشاهد مع المؤرخين المحدثين شيء أكثر براعة ، هو محو التفاصيل . **فأم المقتدر** كما وصفها لنا الدكتور **علي ابراهيم حسن** ، أستاذ التاريخ في **جامعة القاهرة** في كتابه ، النساء اللواتي شاركن في تاريخ الإسلام ، هي مثال على الانحطاط المتربص بالأسر الحاكمة «الذي يدع النساء يتدخلن في

---

١٥ ـ تاريخ الطبري ـ المرجع ذاته ص ٣٨ .

١٦ ـ ابن حزم ـ كتاب نكات العروس ص ٩٨ .

شؤون الدولة[١٧]» . وطريقته التي اختارها لنا في تقديمه السيرة الذاتية لثلاث وثلاثين امرأة أمثلة لاتجعلكم ترغبون العمل في السياسة . فالنساء الأكثر كمالاً هن إما من اصحاب النبي ، وذلك شرف يستحيل الطموح إليه في أيامنا ، واما نساء مثقفات ضليعات في العلوم وقلما يضمن هذا الوصول إلى السلطة . و في وقتنا الحاضر ، نعلم أن الميدان الذي يمكن فيه للنساء المسلمات أن يتأصلن فيه بقوة إنما هو الجامعة . فالمرأة المثقفة لاتشوش النظام ، والسياسيات هن اللواتي يزعزعن الأسس . فهو يرى أن حياة **بلقيس** ملكة **سبأ** التي يفتتح بها سلسلة السِّيَر، تنقسم إلى قسمين ، أولهما لاقيمة له ، قبل لقائها مع **النبي سليمان** ، والثاني هو القسم الرائع بعدئذ . ويحاول إقناعنا أن كل ماقيل عن العرش مبالغ فيه وأن المؤرخين وضعوا الكثير من الأساطير حول مُلكها . وعلى ذلك ينبغي إنقاص ارتفاع عرشها وقيمة أحجاره الكريمة[١٨] . بيد أن إنقاص أهمية **ملكة سبأ** هو مغامرة ، لأنها واحدة من النساء العرب النادرات اللواتي يصعب إخفاؤهن أو تحجيبهن ، نظراً لأنها ذُكرت في القرآن كملكة حاكمة وقوية . ومن البداهة بمكان ، أنّ الحدث الكبير في حياة **بلقيس** كان لقاءها **بالنبي سليمان** الذي كانت له السلطة والحقيقة ، مع بُعدٍ روحي مؤثر . وتكمن عظمة **بلقيس** في فهمها لهذا ، وفي تقريرها بأن تستجر إعجابه بدلاً من أن تحاربه . لكن كره النساء اللاشعوري عند الدكتور **علي ابراهيم حسن** يظهر بطريقة أكثر براعة ، وإنما أكثر ضرراً بكثير ، عندما يتعرض للملكات المسلمات ، عند ذاك يمحو كل التفاصيل الإيجابية المتعلقة بهن ، مثل

---

١٧ - د . علي ابراهيم حسن (نساء لهن في تاريخ الاسلام نصيب) - مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ ص ٩٦ .

١٨ - علي ابراهيم حسن المرجع ذاته ص ٩ .

الاستقبال الحماسي للاجراءات التي تبنتها **تومال** . ويحدثنا عن معارضة العلماء لها ، وينتهي عند هذا الحد . يمكن القول إن التفصيلات التي ذكرها المؤرخون ، أمثال **الطبري** ، تتمتع بصفة «دينية» ، لأن رسالة المؤرخ كانت تعتبر من قبل القدامى كرسالة دينية . وتوضح تقنية محو التفاصيل الملائمة ، لماذا نجد أنفسنا حاليا إزاء ذاكرة اسلامية مبغضة للنساء وبنمط واحد ، ولماذا ينبغي أن ندرس بالتفصيل كل تفاصيل التاريخ الذي يقدم لنا كحقائق أزلية ، وكـ «سنن اسلامية» ولاسيما الجمع بين النسوية والسياسة ، واعتباره عملاً شريراً يجر عواقب وخيمة .

ولنعد إلى الجواري اللواتي فضلن توجيه الخلفاء من عمق حريمهم بدلاً من تمضية وقتهن بالتفكير حول العقبات التي تحتجز الوصول إلى السلطة . ويبدو أن **د . ابراهيم حسن** قد صدم ببيان يتعلق **بأم المقتدر** : أصلها الأجنبي حيث يصر بقوة على واقعة أنها كانت رومية ، أي من أصل روماني . فعبارة «روم» تشير بدئيا للامبراطورية البيزنطية ، العدو التقليدي والأكثر قرباً من الامبراطورية الإسلامية التي كانت تمتد إلى ماوراء كل الامبراطورية الرومانية[١٩] . كيف يسوغ أن تكون أم خليفة اسلامي ممثل الله على الأرض ، من أصل أجنبي ؟ هل يمكن شرعاً التساؤل عما إذا كان للخليفة ، الحاكم الإلهي حق بأن يتزوج ، أو أن يكون له أولاد من أم

---

١٩ ـ د . علي ابراهيم حسن . ص ٩٦ . . وفيما يتعلق بالكلمة «رومي» للمذكر وكلمة «رومية» للمؤنث ، فإنه كان للكلمتين المدلول ذاته الذي لهما اليوم: فتدلان على الأوروبيين المسيحين من شعوب البحر الأبيض المتوسط المجاورين لنا . وفي مدننا اليوم يشار دائماً إلى السياح ذوي السحنة الغربية /كروميين/ . واذا كان الروميون في بغداد هم البيزنطيون وفي الاندلس ، الإسبان والفرنسيون ، فإن الأمر يتعلق بالخارطة الثقافية الجغرافية ذاتها . فالروم هم الآخرون المختلفون ، مسيحيون واوروبيون ، ولكنهم مجاورون ، أي القريبون جغرافياً .

أجنبية ؟ ؟ وما الذي سيحصل عندما تحتل هذه الاجنبية مثل هذا المكان في قلب خليفة أنيطت به إدارة الأمة ، الجماعة الإسلامية ؟ ؟ . وهل حصل أن وجدت حالات انساق فيها الخلفاء إلى إغواء جوارٍ اجنبيات ، وبصورة خاصة اكثر ، مسيحيات ؟ ؟ . . . إن الحالة الاكثر شهرة هي حالة الجارية **صبح** جارية الخليفة **الحكم** أحد أكابر أمويي الامبراطورية الإسلامية في اسبانيا .

كان الطموح يتملك **صبح** . وكان يعتورها عيبان اساسيان يحولان دون مسامحة المسلمين لها ، اذ كانت أجنبية ومسيحية . ومن البداهة بمكان ، أن مثل هذه الأمور لايمكن أن تمر دون اضطرابات حتى في **اسبانيا المسلمة** ، ذات الحضارة المفتوحة والعالمية بصورة خاصة . لقد اعتاد المؤرخون على تسمية **صبح** بـ **صبيحة ملكة قرطبة** . وصبيحة تصغير تحبب مشتق من جذر الكلمة صباح ، الفجر . وكان اسمها في الأصل **اورورا** AURORA ، الذي اقتضى تعريبه دون تشويهه كثيراً . ولكن بعضهم يقول ، إن الأمير الذي فتنه جمال الاجنبية ، أسماها صبحاً لأنه كان لها ذلك الجمال المدهش الذي للشفق في حوض البحر المتوسط . كانت **صبح** زوجة **الحكم المستنصر** ، الخليفة الأموي التاسع في الغرب ، الفرع الذي حكم في **اسبانيا** وعاصمتها **قرطبة** خلال مايقرب من ثلاثة قرون مابين ١٣٨و٤٢٢ هجرية (٧٥٦ - ١٠٣١م) وقد دام حكمه ١٦ سنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م - ٣٦٦هـ/٩٧٦م) . ويتفق كل المؤرخين في الاعتراف على أنه رئيس دولة كبير . ويقول أحد المؤرخين المعتبرين ، **ابن حزم الاندلسي** المسلم[٢٠] ، المشهور بأنه لم يتملق الحكام عندما يحكم عليهم ، يقول بأن

---

٢٠ - ابن حزم «رسالة في فضل الاندلس وذكر رجاله» في (رسائل وبحوث) حققها وعلق عليها د . احسان عباس - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ←

الحكم «كان ذا قيادة حسنة» ، وأنه «تشبع في العلوم التي كان يُثمنها بصورة واسعة» وبرأيه ان **الحكم** ، كان أحد اولئك الذين أتاحوا للاسلام كي يصبح بؤرة ثقافية وعلمية باهرة ، وكان ذلك بسبب سياسته المنهجية في شراء الكتب من كل أنحاء العالم ، ولكرمه المثالي تجاه رجال العلوم ، الذين اسبغ عليهم التقدير والتكريم[٢١] . ثم يقول : إن الحكم كان يرسل مبعوثين إلى جميع البلدان للبحث عن الكتب وكان يعطيهم أمراً بشرائها ـ مهما كان سعرها ـ وحملها إليه[٢٢] . ويقول مؤرخ اندلسي آخر ، **المقري** : إن **الحكم** أنشأ مكاتب بحيث لم يكن أحد قادر على مماثلته بهذا . . وقد جمع حوله الخبراء الأكثر جدارة في فن النسخ ، وفي التصحيح والتجليد . .[٢٣] وعلى سبيل المثال فإنه أرسل إلى **الأصفهاني** ألف دينار من الذهب الصافي لكي يرسل له نسخة من كتاب الأغاني . وكان هو أول من قرأه ، حتى قبل عدوه الخليفة المتربع على عرش **بغداد**[٢٤] .

فالحكم كان ، إذن ، يتمتع بجانب من صفة الخليفة المثالي ، وفائدته بالنسبة للعلم كانت تتوازى مع إيمانه العميق . ويذكر **ابن حزم** الذي مارس

← ١٩٨١ جزء ٢ ـ انظر الملحق ١ ، ص ١٩١ ومايليها .

٢١ ـ المرجع ذاته ص ١٩٤ .

٢٢ ـ المرجع ذاته .

٢٣ ـ المقري ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ دار صادر ، بيروت ١٩٦٧ . وقد ولد المؤلف في عام ٩٨٦ (بداية القرن ١٧) جزء ١ ص ٣٨٦ .

٢٤ ـ عُرِفت الخصومة والعداوة بين الامبراطورية الاسلامية في الشرق حيث كان يحكم العباسيون الذين قضوا على الأمويين ، وبين الامبراطورية الاسلامية في الغرب أي الاندلس ، التي أنشأها احفاد الاسرة الأموية التي طردها العباسيون . والإشارة هنا تعود إلى شراء نسخة من كتاب الأغاني في المقري ، نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب ج١ ص ٣٨٦ .

لفترة من حياته مهنة القضاء أن **الحكم** : «أمر بتدمير كل مخزونات الخمر التي كانت توجد في البلاد وقد تشدد في ذلك . . . واستشار أعوانه في المقاطعات قبل أن يأمر بقلع كل أغراس العنب من الاندلس . . .»[٢٥] .
مع ذلك لم يتم تنفيذ هذا ، نظراً لأن الخبراء أوضحوا له بأنه حتى لو تم تدمير الكروم ، فإن الناس سوف يستمرون على استخراج الخمر من فواكه أخرى كانت وفيرة في اقليم اسبانيا الجميل . ويضاف إلى ذلك ، إكمالاً لهذه الصورة المثالية ، أن الحكم المشهور «كمجاهد» كبير كان يمضي وقته في قتال المسيحيين : «فلم يكن يتوقف عن محاربة الروم» ويمكن القول أنه كان لديه كثير من العمل في هذا الجانب ، اتجاه الروم ، والروم المقصودون هنا هم الاسبان بدئياً ، ثم الفرنسيون وكل امبراطورية الرومان الغربية . فالأمويون الهاربون من طغيان العباسين ، كانوا قد هربوا إلى الغرب باتجاه **افريقيا** ، وجاؤوا لإنشاء امبراطورية اسلامية جديدة في **اسبانيا** ، في قلب **أوربا المسيحية** . وكما رأينا ، فإن خليفة جديراً بهذا الاسم ، ينبغي عليه ، أن يقسم وقته بين مهمته الروحية (السهر على تطبيق الشريعة الدينية) ومهمته الارضية ، والتي من بينها مهمات أخرى كإدارة الضرائب ، والعدالة ، والدفاع عن الاقليم . فالجهاد ، الحرب المقدسة ، أخذ كثيراً من الوقت في حياة الخلفاء الأمويين الكبار بصورة عامة ، وفي حياة الخليفة الحكم بصورة خاصة . وقد بدأ حكمه بحملة مشهودة ضد المسيحيين «كانت غنائمه فيها لاتحصى سواء أكان ذلك من المال أو السلاح ، ومن القطعان أو عدد السبايا»[٢٦] . وفي الواقع ، لم يكن الروم يتركون راحة للأمويين ، فكانت عمليات مهاجمة الاندلس تعاد يوميا ، وكان كبار

---

٢٥ ـ ابن حزم ـ مرجع سابق ص ١٩٤ .
٢٦ ـ المقري ، ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب جزء ١ ص ٣٨٣ .

الحكام يذهبون بذاتهم على رأس جيوشهم ، وفي احدى هذه الحملات وقعت /صبح/ سبية .

فكيف توصلت صبح هذه ، التي لم تكن سوى سبية حرب ، أن تأخذ بذمام ومقاليد الأمة ؟ هنا ، لابد من التوقف قليلاً على سر صعود جارية في حريم مسلم ، حيث يتوفر الكثير من السبايا الجميلات ، حيث كانت المنافسة إذن ، منافسة حادة . فكيف تميزت ، وكيف استرعت انتباه الخليفة ؟ خلافاً لما يمكن افتراضه ، لم يكن الجمال الطبيعي والشباب الغض كافيين . بل لابد أن يكون هنالك شيء آخر وهذا الشيء الآخر بالنسبة للعرب ، كان العقل والذكاء والثقافة ، فكل الجواري ، بدون استثناء ، اللواتي نجحن في التأثير على سيدهن إلى حدٍ جعله يشركهن في السلطة ، كنَّ نساءً موهوبات بذلك الذكاء التحليلي الذي ضمن النجاح دائماً لمن يحوزه حتى يومنا هذا ، سواء أكان رجلاً أو امرأة . فالقدرة على الامتناع عن الثرثرة وعن إعطاء الرأي في شأن وضع معين ، أو حدث ، أو شخص قبل التحليل الهادىء ، وبرويَّة ، هي شكل من الذكاء المستحسن بصورة خاصة من قبل الرجال العرب ، وكان ذلك عاملاً في نجاح أكثر من رجل أو امرأة سواء أكان ذلك في الماضي أم في الحاضر . وعند توفر مثل هذا الذكاء لامرأة ، لاسيما عندما يترافق ذلك مع بعض الحياء ومسحة من الظرف ، تصل مباشرة إلى قلب الخليفة . . . . وطبيعي ان يستمر مثل هذا الذكاء ، وينبغي معه تجميع كل انواع المعلومات ، ومعرفة تبويبها وتصنيفها كي يمكن استعمالها حيث يجب . فالتلاعب بالكلمات المرصعة بالشعر ، والاستشهادات بآيات القرآن والمراجع التاريخية ، كانت من مؤهلات النجاح التي لابد منها . ومن أجل اللعب بالكلمات ينبغي معرفتها . فالجواري الكثيرات اللواتي نجحن في أن يصبحن مفضلات ، كن نساء يمتلكن معلومات جيدة ، وبصورة خاصة ، حول ماكان يجري في

الامبراطورية ، وقد كن ضليعات في العلوم الأساسية ، كالتاريخ وقوة الكلمة ، شاعرات وعالمات باللغة في آن معاً . ولم تكن صبح سوى استثناء يؤكد القاعدة .

اعتبر الكثيرون أن الاهتمام البالغ الذي اولاه **الحكم** للعلوم والكتب كان أحد الأسباب التي أدت به ، مع تقدم العمر ، إلى إهمال الادارة الروتينية لشؤون السياسة ، وإلى ترك زوجته تهتم بها . وكانت مساعداً لامثيل له . بيد أنها سرعان ماشعرت بالحاجة لأن تجد معاونا لها . وقد قُدِّم لها مرشحٌ لأعمال الادارة (السكرتاريا) ، بلبل خلال وقت قصير حياتها وحياة الامبراطورية الإسلامية . كان يدعى (ابن عامر) وكان له من العمر ست وعشرون سنة ،.وكان عربياً من حيث محتده ، شابا وجميلاً جداً ، ومثقفاً ثقافة عالية ، مهذبا في سلوكه ، متضلعاً في كل أنواع العلوم الدينية، وموهوباً بالقدرة على تطويع الوقت والناس حسب إرادته . وكان لديه ، كما اعترف فيما بعد ، منذ شبابه الباكر ، فكرة واحدة ثابتة هي : ان يحكم **الاندلس**[٢٧] . صبح ، شأنها شأن الموظفين الذين رتبوا اللقاء في القصر ، فتنت به . وبدأت بين الملكة وأمين سرها (سكرتيرها) علاقة محكمة ، لم تخف على الخليفة نفسه . فقد أبان ذات يوم ، في مجرى الحديث مع خاصته في شأن ابن عامر أن «هذا الفتى خلب عقول حريمنا»[٢٨] . فهل كانا متحابين أم أن الملكة ضحت برغبتها في سبيل واجبها ، الأولي كامرأة للخليفة ، ثم كأم للخليفة ومسؤولة عن الأمة وبصفتها وصية على العرش عند موت الحكم ؟ . فهل تحدد علاقتها مع

---

٢٧ ـ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب ـ دار الكتاب ، الدار البيضاء ـ الطبعة ٧ سنة ١٩٧٨ ص ٤٦ ومايليها .

٢٨ ـ المقري ـ نفح الطيب ـ في غصن الأندلس الرطيب ـ مرجع سابق جز٣ ص ٨٨

أحد الرجال الأكثر ابهاراً في التاريخ الإسلامي ، أو تاريخ كل بلاط ، بمجرد مساعدة ضيقة في النطاق السياسي ؟ . لقد ناقش المؤرخون القدامى هذه المسألة كما ناقشها المؤرخون المحدثون أيضاً . وكانت تلك مناسبة من مناسبات كثيرة ، أعطتنا فرصة لقياس مدى معاداة هؤلاء وأولئك للنساء .

كان الجدل حول الحياة الجنسية **لصبح** أساسياً في هذا الصدد . **فالمقري** مؤلف كتاب **نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب** ، وهو من كتَّاب القرن السابع عشر ، يبدأ القول بأن **ابن عامر** ، الذي سرعان ماأصبح الحاكم الفعلي **للاندلس** أبعد **صبح** واحتفظ بابنها الخليفة **هشام ابن الحكم** ، رهينة في قصره الخاص ، وقد أثار دائما الحسد ضده ، وأذكى مؤمرات حقيقية . ويوضح **المقري** أن ذلك مايحصل في كل مرة يكون فيها لشخص ما ، حظ في الحياة ومواهب متعددة ، وينسجم في كل مايقوم به ، وتلك كانت حال **ابن عامر**(٢٩) . ثم يوضح فيما بعد إنه في هذا الاتجاه يمكن فهم الشائعات التي انطلقت عنه بأنه كان عشيقاً لصبح ، وهي شائعات سرعان ما نظمت على شكل قصيدة هجائية تعلن أن المسلمين على وشك نهاية عالمهم :

«اقترب الوعد وحان الهلاك .

خليفة يلعب في مكتب وأمه حبلى وقاض ينال»(٣٠) .

ويبدأ **المقري** عندئذ بنفي التهمة عن **صبح** ، ويدافع عنها ضد مثل هذه الأراجيف ويستخلص : أن الله وحده العالم بالاسرار .

---

٢٩ ـ المقري ـ نفح الطيب ـ مرجع سابق جزء ١ ص ٦٠٢

٣٠ ـ المقري ـ المرجع السابق جزء ١ ص ٦٠٢ .

وتتعرض **صبح** من المؤلفين المحدثين بصورة مرتبة ، للحط من قدرها إلى مستوى جعلها متآمرة ، تافهة ، علاوة على ذلك ، بلهاء تنساق مفتونة بسكرتير لايهتم إلا بالسلطة ، وذلك هو مافعله **محمد عبد الله عنان** في كتابه **تراجم اسلامية**(٣١) . ومع هذا المؤلف تحول الخليفة **الحكم** مع **صبح** لشخصيتي مسلسل تلفزيوني من الدرجة الثانية في وسائل الاعلام المصرية ، التي تملك وحدها السر ، اضافة إلى ماتحمله من نزعة عرقية شوفينية تعيب بالكلية جوهر ثقافتنا العالمية : «تاريخنا الإسلامي يقدم الينا عدداً كبيراً من النساء الغربيات بين الرقيق والأسرى اللواتي لمعن في قصور الخلفاء والسلاطين ، واللواتي تمتعن بالسلطة والنفوذ . ولكنه قلما يقدم لنا كيف عاش المواطن ، واستجاب لأجنبية ، مسيحية ، مارست عليه سلطة شمولية طاغية ، مستظلة بأمة اسلامية قوية . . . . ولا يمكن ان نجد مطلقاً مثالاً أكثر كمالاً من مثال **صبح** ، أورورا الفرنسية الجميلة التي وجهت خلال عشرين عاماً خليفة **قرطبة** بفضل مفاتنها ونفوذها . . .»(٣٢) . ومع أحمد أمين ، أحد كبار المؤرخين الإسلاميين المحدثين ، مؤلف الكتاب المحترم ذو الاجزاء الثلاثة **فجر الإسلام** ، **وضحى الإسلام** ، **وظهر الإسلام** ، مع هذا المؤلف تصبح **صبح** أخطبوطاً ماساً يستهلك الرجال والسلطة . وثلاثية أمين التي لاتقل عن تسع مجلدات والتي هي من أكثر الكتب مبيعاً في السوق منذ ظهورها ، تحمل أذية خطيرة جداً للمرأة المسلمة ، إذ أنها منيعة على المستوى العلمي(٣٣) . وعداوته الكلية للنساء غير المقصودة واللاشعورية ،

---

٣١ ـ عبد الله عنان ـ تراجم اسلامية ـ شرقية واندلسية ـ دارالمعارف ـ مصر سنة ١٩٤٧ ص ١٧٢ .

٣٢ ـ المرجع ذاته .

٣٣ ـ احمد امين ـ فجرالاسلام ـ دارالكتاب العربي بيروت الطبعة ١١ ، ١٩٧٥ . يحاول في الجزء الأول توضيح الذهنيات والحياة العقلية في الإسلام منذ البداية ←

هي بمقدار أكبر مؤذية وضارة أكثر بسبب صفة الكتاب التي لاتزال لامثيل لها . فإن التقدير للأحداث والتعليقات القصيرة الصارمة ، والتنقل المستمر بين الماضي والحاضر ، وبموهبة راوٍ بالولادة ، وبمعرفة موسوعية ، جعل منه كتاباً مفضلاً ومرجعاً اساسياً بالنسبة للاجيال منذ صدروه . وكراهيته للنساء هي بقدر كبير مخاتلة ، ماكرة لأنها مقطرة ومزخرفة ، وموزعة بصورة جيدة هنا وهنالك ، وممزوجة بأشياء جميلة جداً مثل المشاركة العلمية لأسلافنا ، وحبهم للكتيّب والمعرفة .

غدت **صبح** متآمرة ، كلبية وقحة ، مثيرة للاشمئزاز . «وزاد الطين بلّة أن **هشام بن الحكم** وصل إلى السلطة وهو طفل له من العمر عشر سنوات ، حيث أعلن خليفة وأصبحت أمه وصية عليه . وكانت هي مسيحية من **نافار** ذات شخصية قوية جداً ، واستطاعت أن تبسط سلطانها على زوجها **الحكم** ، وأن تتدخل في شؤون الدولة ، رغم عظمة وقوة هذا الخليفة . بيد أن سلطتها أصبحت أعظم مع ابنها الذي كان لايزال طفلاً . . . واتخذت من **ابن عامر** أمين سر لها على الفور حتى قبل وفاة زوجها . وأخذت مكاناً كبيراً في قلبه كما أخذ مثل هذا المكان في قلبها . وقد عينته حاجباً بمعنى رئيس وزراء و بذلك مهدت له الوصول إلى السلطة . وبذلك تملّك أيضاً كل وظائف الخليفة . . .»(٣٤) . **وصبح** بقلم **أحمد أمين** ، لم تعد ملكة ولا سيدة ولم يعد لها لقب . إنها **صبح**

← حتى نهاية الأسرة الأموية . وكتابه ضحى الاسلام (ثلاثة أجزاء) مكرس للحياة الاجتماعية والثقافية للحركات العلمية والمذاهب الدينية اثناء العصر العباسي الأول) . مكتبة النهضة المصرية القاهرة طبعة ٦/ ١٩٦١ ، وفي كتابه ظهر الاسلام ـ مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة ١٩٦٦ (٤ أجزاء يبحث في الحياة الثقافية العلمية والأدبية والحركات الدينية اثناء العصر العباسي الثاني)

٣٤ ـ احمد امين ـ ظهر الاسلام جزء ٣ ص ١٢٦

المسيحية . ويعطي **المراكشي** وهو مؤرخ من القرن الثالث عشر ، توضيحاً أقل انتقاصاً للعلاقة بين **صبح وابن عامر** ، حيث يبدو أن كلاهما كان شريكاً في اللعبة السياسية . يقدم كل منهما للآخر مايفتقده ويستفيد كلاهما من هذا التعاون . « . . . استمر حظ **ابن عامر** في الفوز صعداً إلى أن عرف السيدة **صبح** ، ام **هشام بن الحكم** . وتولى مهام الدولة وانشغل بالتزاماته وتبادل معها التقدير . واستمرت الأمور هكذا حتى موت **الحكم** ، وكان **هشام** شاباً ، وكان هنالك خوف من الاضطرابات ، فضمن **ابن عامر لصبح** الأمن والهدوء الضروريين ليتمكن ابنها من الحكم . وكان **ابن عامر** مؤهلاً جداً وعملت الظروف لمصلحته . وهيأت صبح الأسس اللازمة . وهكذا استطاع ابن عامر التوافق مع الجيش . وتبع ذلك مجموعة ظروف سمحت له بالصعود إلى أعلى حتى صار عمليا الوحيد الذي يشغل أمور الدولة» (٣٥) .

لقد استمرت العلاقة بين **صبح وابن عامر** أكثر من ثلاثين سنة ، وكانا قد تعارفا قبل عشر سنوات من وفاة الحكم (عين ابن عامر سكرتير دولة في ٣٥٦هـ/٩٦٦م ومات الحكم في ٣٦٦هـ/٩٧٦م) وامتد تعاونهما عشرين سنة بعدئذ ، حتى اول خلاف مشهور بينهما عندما حاولت الملكة التخلص من نفوذه بالبحث عن سند لها من رجال آخرين ممن يحيطون بها . وقد أخفقت محاولتها هذه على نحو مثير للشفقة لأن اي واحد من اولئك لم يكن على درجة من الحذق والذكاء الذي كان **لابن عامر** والذي استطاع جعل الرجال الآخرين ممن حاولت ان تجعل منهم خصوماً له ، في حالة عجز أمامه . وفي ٩٩٧/٣٨٨ انقلب النزاع بين **صبح وابن عامر** لمصلحة هذا الأخير ، ولم يتوقف نجمه عن السطوع في حين كانت قد

---

٣٥ ـ المراكشي ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب ـ ص ٤٨ .

بدأت نهاية **صبح** . ليس لأنها كانت غبية أو سيئة السياسة التي مكنت **ابن عامر** من الاستيلاء على السلطة وانما لأنها بكل بساطة لعبت لعبة السلطة وفقدتها ، كما هو الشأن في أية مبارزة سياسية .

وعلى مايبدو ، كان للمؤرخين القدامى رؤية أخرى عن علاقة النساء بالسياسة ، هي غير نظرة المؤرخين المحدثين . فقد سموا الملكات بألقابهن وحاولوا فهم دوافعهن كما فعلوا ذلك مع الرجال ، وقد لاحظوا ان النساء الإماء يستطعن الزواج من الخلفاء ، وادارة الدولة من حريمهم ، وان يلدن لهم خلفاء المستقبل .

والطريقة الأكثر تسلية لفهم ظاهرة الجارية ، وكيف أنه في إسلام متراتب ومتدرج جداً ، استطاعت النساء ليس فقط التسلط على الخلفاء ، بل ومشاركتهم في سلطتهم ، هي في أن نعيش لفترة قصيرة في خصوصية **خيزران** ، وخلفاء مختلفين تتابعوا في حياتها . وسوف يسمح لنا مثالها قياس حدود سلطة الجواري التي هي على الأغلب من نوع موضعي . فانطلاقاً من الحريم ، المنطقة النسوية ، لم تستطع الجواري المذكورات ، سواء أكانت **أم المقتدر** أم **صبح** أم **خيزران** التوصل إلى اعتبارهن كنساء رئيسات دولة . اذ كان عليهن عبور العتبة التي تفصل منطقة النساء عن منطقة الرجال

- ٤ -

هل كانت خيزران محظية أم رئيسة دولة ؟

العقبة الكبرى التي تهدد المسلك السياسي لامرأة **كالخيزران** التي كانت على درجة عالية من الاهتمام بالسياسة والتي أظهرت فيها مواهب نادرة ، لم تكن ـ على مايبدو ـ من نوع بيولوجي (باعتبارها امرأة) ولا من نوع قانوني (باعتبارها أمة) وانما من نوع (موقعي) territorial : واقعة انتمائها للحريم ، الفضاء الداخلي ، منطقة السلام ، المقابل للفضاء العام ، فضاء الحرب . كل المؤرخين يحبون أن يكرروا لنا أنها حكمت ، وقادت ووجهت الامبراطورية الإسلامية في عهد ثلاثة خلفاء : زوجها **المهدي** ثالث خليفة عباسي الذي حكم مابين ١٥٨ و ١٦٩ هجرية (٧٧٥ - ٧٨٥م) وابنها البكر **الهادي** ، وابنها الثاني التي كانت تعزه ورد لها الجميل ، **هارون الرشيد** ، الأسطوري ، الرفيع الشأن الذي منحته الطبيعة مزايا خارقة ، والذي يتميز في الذاكرة كجوهرة ، والذي امتلك كياسة ورقة عيش احلامه ، ومن دون أن يستسلم لاغراءاتها فما أن وصل إلى الخلافة ، حتى اعترف بمواهب أمه وأظهر للعالم الإسلامي أنه غير خجول من مشاركته امرأة في السلطة ، عندما يكون لها موهبة وبصيرة **الخيزران** مع ذلك ماكان **هارون الرشيد** ، ليقوم بفعله هذا ، إلاّ ليدلل على أن

حدود المرأة هو الحريم وأنها سواء أكانت محظية أو وصية فإنها : لاتملك السلطة إلا بموافقة الرجل ومن خلاله . ولا يستطيع مسلكها السياسي الظهور على المسرح العام إلاّ مقنّعاً بوجود الرجل .

سيظل طريق **خيزران** السياسي محتفظاً بوجوده حتى نهاية الختم المحتوم لحياة الحريم : فقوته تكمن في إخفائه وفي كونه ليس سوى الإشراق من سلطة الغير . وقد لمست **بغداد** ، عظمة الأم في حزن الابن عند وفاتها . فالخليفة الذي يفترض فيه إظهار الكثير من الاحتشام والوقار عند موت امرأة كانت عزيزة عليه ، كان ينبغي عليه ، بصورة خاصة ، تجنب إظهار لوعته علانية . لكن **هارون الرشيد** انتهك كل الطقوس ، وكل شعائر الخلافة والجنائز . والعجيب ، في هذا الرجل الواثق من نفسه ، أن تأثيره في هذا المجال لن يكون إلا أكثر عظمة . وفي هذا الشأن يقدم الطبري شهادة انسان حضر دفن **الخيزران في تلك** السنة ١٧٣هـ قائلاً : « . . .لقد رأيت الرشيد يوم ماتت الخيزران وذلك في سنة ثلاث وسبعين ومئة . وعليه جبة سعيدية وطيلسان خرق أزرق وقد شد به وسطه وهو آخذ بقائمة السرير حافيا يعدو في الطين ، حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه ، ثم دعا بخف وصلى عليها ، ودخل قبرها ، فلما خرج من المقبرة وضع له كرسي فجلس عليه . . . الخ»[1] .

حتى في موتها ، تحدت **الخيزران** الامبراطورية وتقاليدها .

إن كلمة الخيزران تعني نبات الخيزران الذي يرمز للجمال واللدانة في آن معاً ، وقد بهرت حياتها النخبة من سيدات القوم اللواتي كن يقلدن حليها وتسريحات شعرها ، وعامة الشعب لم يكن يسعها الإعجاب بها إلا

---

١ ـ تاريخ الطبري ـ جزء ١٠ ص ٥٦ .

من خلال حكايات الف ليلة وليلة ، هذا الخيال الشعبي الذي وصفها بحق ، كحلم كلي لحياة امرأة ، استجمعت الإغراء والثروة والقوة التي ترابطت بإحكام وتشابكت بحساسية . لقد اتخذت قرارات سياسية على درجة كبيرة من الأهمية والتي يمكن القول ، معها بدون مبالغة ، أنها طبعت أثرها على احدى الفترات الأكثر أهمية من تاريخ الاسرة العباسية وتاريخ الإسلام . قلما توجد معلومات عن بنية جسمها التكوينية ، كما تقول **نابيا أبوت** ، التي كرست لها نصف كتابها (ملكتي بغداد)[٢] . لايزال الخيزران بلدانته ، ومرونته يعتبر حتى يومنا هذا مُعبّراً عن التوصيف الدقيق لسر الجسد النسوي . فإحدى الاطراءات التي يهمس بها عند مرور الصبايا ، في المدن المحافظة في **المغرب** اليوم ، ودائماً تحت سحر الماضي : «الله الله ، ياقضيب الخيزران» . لكن **خيزران** نفثت في الخيزران بعداً سحرياً لم يكن له قبلها . وكما في حكايا الجنيات ، كانت لها فتوة صعبة جداً قبل القيام بطيران مدوخ .

لقد أتت إلى العالم حرة في منطقة من **اليمن** تسمى جورش . ويتفق المؤرخون على هذه الواقعة ماعدا **ابن حزم**[٣] . وقد يكون مخطئاً في هذا ، لأن لهذا التفصيل اهمية . **فاليمنيات** بين نساء العرب ، هن اللواتي لم يقبلن أبداً ترك الرجال يهتمون وحدهم بالسياسة . ألم تبق ذكرى ملكة **سبأ** حية رغم اعتناق الإسلام ؟ . .وحسب أغلبية المصادر الساحقة ،

---

٢ ـ الملكة الأخرى زبيدة احدى النساء اللواتي سيطرن على قلب هارون الرشيد . نابيا أبوت كانت استاذة في جامعة شيكاغو . الترجمة الأصلية بالإنجليزية ، ولكننا نمتلك ترجمة عربية لها ، ملكات في بغداد ، ترجمة عمر أبو النصر ١٩٦٩ .

٣ ـ يوجد شبه إجماع على واقعة أن الخيزران هي من اليمن ، ماعدا ابن حزم الذي يقول انها من أصل مختلط من أب عربي وأم غير عربية . انظر ابن حزم (رسالة في أمهات الخلفاء) جزء ١١ ص ١٢٠

كانت **خيزران** عربية من **اليمن** ، وصلت إلى بلاط **بغداد** بصفتها جارية . ومع انه لايُسوّغ نقل مسلم للرق من قبل مسلم آخر ، كما تقضي الشريعة ، فإن أيَّ مؤرخ تقليدي لم يهتم مطلقاً بأن يطرح على نفسه مسألة الرق ، بعد قرن من وفاة **الرسول** الذي قضى في شريعته ومبادئه ، أن الكفار وحدهم ؛ الذين يؤخذون اسرى حرب ، يمكن نقلهم إلى العبودية(٤) . فشريعة الحرب خولت الحاكم المسلم الذي يفتح بلداً عن طريق الحرب ، ان ينقل سكانه إلى العبودية سواء أكان هؤلاء السكان رجالاً أم نساءً . وعلى ذلك لابد من توافر عنصرين كي يصبح المرء رقيقاً : أن يكون مشركا ، بدئياً ، وان يشكل جزءاً من غنيمة بالتالي . وكان **اليمن** من أولى البلدان التي اسلم سكانها في العقد الأول من تاريخ الإسلام . فكيف يمكن تفسير حالة يمنية **كالخيزران** التي ردت إلى الرق ؟ على كل حال كانت خيزران قد اقتيدت من قبل بدوي وباعها في **مكة** . ومن نخاس إلى آخر ، سوف تجد نفسها في قصر الخليفة **المنصور** والد **المهدي**(٥) . وقد استرعت انتباه المنصور منذ الكلمات الاولى التي نطقت بها عندما تحرى عن أصلها :

«لقد ولدت في مكة ، لكنني ترعرت في **جَوْرشْ** ، في ارياف **اليمن** . وسألها الخليفة : أما يزال لك أهل هناك ؟ .

واجابت :

كلا ، لم يكن لوالدتي أحد سواي ، واضافت بعد توقف ، عبارة أثرت في الخليفة : «انني وحيدة ، وليس لي في هذه الدنيا غير الله» .

---

٤ ـ هنالك فصل واضح جداً عن تنظيم الرق في الإسلام ، في كتاب ضحى الاسلام لأحمد أمين جزء١ ص ٧٩ .

٥ ـ نابية أبوت ـ ملكتان في بغداد ص ٣٤ .

وأصدر الخليفة الذي تأثر بعمق بأقوالها ، أوامره باعطائها إلى ابنه **المهدي** ، قائلاً : «خذوها إلى المهدي ، وقولوا له أنها أهل لأنجاب الأولاد»[٦] . وهكذا وجدت نفسها أمام من سوف يصبح خليفة ، وليضع الامبراطورية عند قدميها . وماتنبغي الإشارة اليه ، أنها كانت قد كذبت على الخليفة **المنصور** . فلم تكن لا الابنة الوحيدة ، ولا بدون عائلة . ولم تكشف عن وجود أمها وأختيها وأخويها إلا بعد أن ضمنت مستقبلها . وبعد أن ولدت ولدين للخليفة . واسرتها التي كانت تعيش في اليمن حياة عوز ، عوضت عن بؤسها بسعة بعد أن جيء بها إلى **بغداد** . وحسبما يبدو ، فإن اغراء الرجال الكبار كان من اختصاص الأسرة . **فأسماء** ، إحدى شقيقتيها ، حاولت ان تخطف **المهدي** منها . لكنها ، رجعت نادمة[٧] . واستأثرت شقيقتها **سلسل** بأمير آخر حيث تزوجت **جعفراً** شقيق الخليفة **المهدي** . وأخيراً عُين شقيقها **غطريف** حاكما على **اليمن** ».

وإذا كانت خيزران الجارية المفضلة لدى **المهدي** ، فإنها لم تكن المرأة الوحيدة في حياته . وتعطي واقعة نجاحها في الزواج منه ، بعامل الشكل والطيبة ، فكرة عن تأثيرها . فحسب الشريعة ليس على المسلم الزواج من أمته . انه يستطيع تماماً أن يقيم معها علاقات جنسية وأن ينجب منها الاطفال دون حاجة لعقد زواج وذلك ضمن المشروعية الكاملة . وهذا مايقودنا إلى تكرار ـ لحد ما ـ مفهوم تعدد الزوجات ، والى فهم السبب الذي جعل أمكنة الحريم تفيض بالجواري زمن الفتوحات . كلنا نعلم أن الإسلام لم يسمح للرجل بأن يتزوج أكثر من اربع نساء ، مع ذلك تجدر الاشارة إلى أن التحديد لايعني الا النساء الحرات ، لأن الشريعة تعطي الحق

---

٦ ـ نابية أبوت ـ ملكتان في بغداد ص ٣٨ .
٧ ـ الجاحظ ـ أشارت إليه نابية أبوت ـ ص ٥٠ .

للزوج المليء «مادياً» ، علاوة على التزوّج من أربع نساء حرات بعقد زواج ، بأن تكون له علاقات جنسية وأولاد، مع العديد من الجواري ، الإماء اللواتي يمتلكهن ، حسب الآية الثالثة من سورة «النساء» التي كانت ، من جانب آخر ، القاعدة لتعدد الزوجات بصفته مؤسسة، والتي لايجوز معارضتها :

«وانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم»(٨) .

لايوجد تحديد لعدد الإماء لأنه كما يقول لنا **الطبري** ، في /تفسيره/ «ليس على المؤمن واجبات تجاه هؤلاء (الإماء) كالتي عليه تجاه الحرائر» لأنهن من أملاكه(٩) . فالسيد غير مكلف بمقتضى العدالة تجاه أَمَته ، وبذلك يستطيع إذن الاكثار من عددهن . إذن فالخطر الأكبر الذي واجه **خيزران** ، بصفتها محظية مفضلة ، جاء على الأخص من جانب الجواري العبدات مثلها ، اللواتي كانت مصادفات القدر تصبّهن بدون انقطاع على أسواق القصر .

والجواري كان يُؤتى بهن إلى الخليفة ، سواء كنصيب خاص به من غنائم الفتوح ، أم يُقدمن إليه من قبل الحكام ، أو يرسلن له كهدايا من اولئك الذين كانوا يأملون التقرب من المهدي ، أم يُشترَين له ، طبعاً إذا كنَّ يمتلكن مواهب استثنائية . إن تطوير مواهبهن العقلية ، كتعليمهن الفقه (العلوم الدينية) أو الشعر ، أو مواهبهن الموسيقية ، كالعزف على العود أو الغناء ، كان الطريق الوحيد المقدم لهؤلاء النساء ، العرنيات أحياناً ، ولكن

---

٨ ـ السورة ٤ ـ الآية ٣ ـ ترجمة بلاشير ١٩٨٠ ص ١٠٤ .

٩ ـ تفسير الطبري ـ دار المعارف ـ مصر ـ طبعة محققة من قبل أحمد ومحمد شاكر جزء ٧ ص ٥٤١ .

الاجنبيات على الأغلب ، المنتزعات من بلدانهن الأصلية ، ليستمر عيشهن في بلد أجنبي .

إحدى الجواري التي كانت تغار منها **خيزران** كثيراً ، كانت تدعى **مكنونة** . وكان لها وجه جميل جداً وقوام رشيق ، وكانت معروفة على الاخص في **المدينة** ، مدينتها الأصلية ، كمغنية . اشتراها **المهدي** في حين كان لايزال اميراً وولياً للعهد . دفع ثمناً لامتلاكها مئة ألف درهم . وكان مثل هذا الثمن يعتبر غالياً ، مما دفعه إلى ابقائه سراً ، لأن والده **المنصور** لم يكن يقبل بمثل هذا التبذير[١٠] . كان المهدي مأخوذا بسحرها إلى درجة أن **خيزران** اعترفت فيما بعد : «لمْ أخف مطلقاً من امرأة كما خفت من هذه»[١١] .

كان ثمن الجواري يرتفع مع تعليمهن وتدريبهن على الفنون . فتعليم الجواري أصبح ، إذن ، مؤسسة حقيقية ، أغنت كثيراً اولئك الذين امتهنوها ، وكان ذلك بدقة في عهد الخليفة **المهدي** ووالده حيث اتسع تعليم الجواري إلى درجة لاسابقة لها . وكان معاصرهما ، **ابراهيم الموصلي** ، سيد الغناء والموسيقى العربية الذي كان يلازم قصر هذين الخليفتين ، كان «أول من بدأ بتعليم الجواري الجميلات جداً»[١٢] ، وأعطاهن تكويناً متقدما جداً في الشعر والموسيقى والغناء . ويقول لنا **الأصفهاني** : «انه كان لديه مدرسة حقيقية تضم ثمانين جارية يتدربن عنده في وقت واحد اضافة إلى جواريه»[١٣] . وقد تابع **اسحاق بن ابراهيم الموصلي** سنّة أبيه في ظل أبناء **خيزران** . واشترى له **هارون الرشيد** عدداً

---

١٠ ـ الأصفهاني ـ كتاب الأغاني جزء ١٥ ص ٢٨ .
١١ ـ الأصفهاني ـ كتاب الأغاني المرجع ذاته .
١٢ ـ المرجع ذاته جزء ١٨ ص ١٧٠ .
١٣ ـ المرجع ذاته جزء ١٨ ص ١٦٤

من طالباته الجواري ، ولثمنهن الذي كان غالياً جداً فقد أُجبر على مساومة شاقة مع الفنان الكبير ، الذي كان يحي سهراته بعد المعارك الحربية[١٤] . كان **ابراهيم الموصلي** وابنه من اصل فارسي ، وكان لهما تأثيرهما في الموسيقى والغناء ، وفي أنواع الإيقاع والأنغام الجديدة ، سواء أكان ذلك من ثقافتهما الخاصة أو ثقافة العبدات الاجنبيات ، اللواتي تعاقبن عليهما ، وقد حُشِيَ الشعر والغناء بكلمات ومفاهيم فارسية . فالجارية (شارعة) التي اشتراها **ابراهيم** ابن الخليفة **المهدي** ، والتي تميزت بإعلان نفسها فنانة رغم أنها من نسل أمير ، وكلفه شراؤها ثلاثمئة دينار ، وقد أعطاها دروساً على امتداد سنة كاملة ، اعفيت اثناءها من كل خدمة في المنزل . وقد كرست نفسها للدراسة والتدريب . وفي نهاية السنة ، عندما استدعى الخبراء لتقويم ثمنها ، أعلموه بأن ثمنها سيبلغ ـ إذا ماعرضت في السوق ـ ثمانية ألاف دينار أي أكثر من ٢٦ ضعفاً[١٥] . وبصورة أفضل ، فإن **المستعصم** (٢١٨هـ/٨٣٣م ـ ٢٢٧هـ/٨٤٢م) الذي كان يحكم في ذلك الحين سمع حديثاً عنها وعن مواهبها الخارقة ، وعرض على ابراهيم بن المهدي سبعين ألف دينار أي أكثر بمئتين وثلاثة وثلاثين مرة من ثمنها الاساسي ، وبداهة أن الأمير **ابراهيم بن المهدي** قد قبل . . . . ومعلوم أن المنافسة بالنسبة **لخيزران** كانت تأتي من جانب الجواري وليس من جانب زوجة **المهدي** الارستقراطية ، التي نجحت في تجريدها من كل امتيازاتها ، بما في ذلك حقها في أن ترى أبناءها يعينون أمراء وارثين للعرش .

ان الانقلاب الذي قادته **خيزران** ، إذا صح تسميته انقلاباً ، تمثل في حصولها من **المهدي** على تعيين أبنائها ، واستبعاد أبناء النساء الأخريات ،

---

١٤ ـ المرجع ذاته ـ جزء ١٨ ص ١٦٤ .
١٥ ـ المرجع ذاته ـ جزء ١٨ ص ٥ .

كورثة شرعيين . ومن بين المبعدين ، كان ابناؤه من زوجته الأرستقراطية وهي أميرة من اسرة ملكية ، **ريطه** ، ابنة عمه الخاصة ، ابنة الخليفة **السفاح** مؤسس الاسرة الحاكمة ، والذي كان قد تزوجها في عام ١٤٤هـ/٧٦٢م . وقبل قرن من الزمن لم يكن يسمح مطلقاً عند الأمويين الأوائل ، لأبناء السراري أن يصبحوا خلفاء»[١٦] . ولايمكن أن يكون حاكماً إلا ابن امرأة حرة . وقد سبق للخليفة الأموي العاشر **هشام بن عبد الملك** (١٠٥هـ/ ٧٢٤م - ١٢٥هـ/٧٤٣م) أن قال **لزيد بن علي** ، أحد المدعين بالخلافة «بلغني أنك تحدث نفسك بالخلافة ولاتصلح لها لأنك ابن أمة»[١٧] . وفي كتاب /العقد الفريد/ يكرس مؤلفه **ابن عبد ربه** جزءاً للنساء ، ويحاول فيه فهم ظاهرة صعود الجواري وكيف توصلن إلى قلب مجتمع عربي بقي ، رغم الإسلام ، مجتمعاً اريستقراطياً نخبوياً . يعيد التذكير بأن **النبي محمد** نفسه كان عنده امرأتان أمتان ، **مارية القبطية** التي انجبت له ابنه **ابراهيم** ، الذي توفي صغيراً ، **وصفية** ، التي كانت نساؤه الاخريات ينلن منها بتسميتها اليهودية : «عندما جاءت هذه إلى **الرسول** تشكو إليه ذلك ، نصحها بأن تقول لهن في المرة القادمة ، كرد على مايعيرنها به نساؤه الغيورات ، من الافتخار بأرومتهن العربية والارستقراطية : أبي **اسحاق** ، وجدي **ابراهيم** ، وعمي **اسماعيل** ، وأخي **يوسف**»[١٨] . ورغم موقف

---

١٦ - ابن عبد ربه الأندلسي - العقد الفريد - دار ا لكتب العلمية بيروت طبعة ١٩٨٣ حزء ٧ مخصص للنساء بعنوان « كتاب المرجانة في أخبار النساء) ، ص ١٤٢ - مات المؤلف في سنة ٣٦٨ هجرية .

١٧ - المرجع ذاته جزء ٧ ص ١٣٩ .

١٨ - المرجع ذاته ص ١٣٨ - يعترف الاسلام بجميع انبياء اليهود والمسيحين السابقين لبني المسلمين ، فالنبي منح صافية ثقته وهو ينصحها بمهاجمتهن وذلك بتذكيرهن ان الدين اليهودي دين محترم يحتوى على أنبياء محترمين يعترف بهم المسلمون كأنبياء لهم وبذلك فهم يحترمونهم .

النبي والاسلام ضد التراتبية الطبقية ، ومن أجل المساواة بين الاسياد والعبيد يقول الكاتب : «إن الناس في **المدينة** كانوا يزدرون بالنساء الاماء» . وكانت هنالك عبارات دقيقة تدل على الابناء المولودين من زيجات مختلطة : «كانت العرب تسمي العجمي إذا أسلم : المسلماني ، ومنه يقال : مسالمة السواد ، والهجين عندهم من كان ابوه عربياً وامه أعجمية ، والمذرع : من تكون امه عربية وأبوه أعجمي» . ويضيف بأنهم كانوا يدعون أعجمياً كل شخص لايتكلم العربية جيداً وحتى إن كان مسلماً . وكانت العرب في الجاهلية لاتورث الهجين[19] . لقد استغرقت فكرة المساواة التي أكد عليها **النبي والقرآن** ، كثيراً من الوقت كي تتغلب على مقاومة العرب . وقلما اتبعوا موقف **النبي** الايجابي جداً تجاه النساء بصورة عامة ونسائه بصفة خاصة ، اللواتي كان اعطاهن امكانية التفتح ، كما هو الحال بموقفه التحريري تجاه العبيد . فالمساواة بين العبيد والأسياد استغرقت وقتا طويلاً قبل أن تبدأ الدخول في آداب واعراف النخبة ، لا سيما عندما كانت تهدد المصالح الطبقية[20] . عندما علم **عبد الملك بن مروان** ، الخليفة الأموي الخامس (٦٥/٦٨٥ ـ ٨٦/٧٠٥) أن **علي بن الحسين** حفيد الخليفة **علي** ، قد حرر جارية وتزوجها ، أرسل له رسالة يلومه فيها على الارتباط بامرأة من درجة أدنى ، وقد أجابه هذا مذكراً اياه بأن الإسلام قد جاء ليرفع الطبقة الدنيا وأن هذا دين يعطي الكمال لمن هو غير كامل ، والاحسان للمسكين . وهو كمسلم لايستحي من التزوج بأمة»[21] .

---

١٩ ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جزء ٧ ص ١٣٩ و ١٤٠ .

٢٠ ـ انظر في هذا الشأن فصل: (النبي قائد عسكري) وفصل (الحجاب في المدينة) من كتابي «الحريم السياسي ، النبي والنساء» .

٢١ ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ جزء ٧ ص ١٣٩ .

ويضيف **ابن عبد ربه** أنه بعد مضي بعض الوقت لوحظ صعود الجواري ، وولادة القصائد والأمثال ضد النساء الحرات[٢٢] .

لقد خصلت **الخيزران** من المهدي ، على اختياره ولديها وليين للعهد، وقد عين بدئياً ، بصورة رسمية ، البِكْر موسى الهادي ولي عهده في سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م وفي السنة ذاتها حرر **الخيزران** وتزوجها . إن الإسلام كي يحارب الرق ، منع على الرجال الزواج بامرأة من الرق قبل تحريرها . وحالما يتم تحريرها يصبح ممكناً اجراء عقد زواج معها ، حسب الأصول . وكانت حالتها الشخصية ، قبل تحريرها تسمى ام ولد ، مقابل المرأة الحرة التي كانت تدعى أم البنين . وكانت **احدى التجديدات التي أدخلها الإسلام ، الإعلان أن ابن أم الولد يعتبر حراً** . . وبالتالي فإن الأم العبدة بذاتها يمكن أن تحرر جزئياً بوصولها لوضعية متقدمة اكثر ، أم البنين ، أي لن يعود لزوجها حق ببيعها بعد ذلك أي بعد مجيء الولد ، وأنها تكون حرة بعد موته ، ولم يعد بمكنة ورثة سيدها ان يتوارثوها كما كان يحصل قبل الإسلام ، وكان للأولاد من ام الولد الحقوق والامتيازات ذاتها التي للأولاد المولودين من امرأة حرة . فيمكنهم الارث من أموال أبيهم بالتساوي مع أولاده الآخرين وحسب نصوص الشريعة . وسوف يتأكد للجواري ايضاً بأن ابناءهن يمكنهم وراثة كل شيء ، حتى العرش .

في التاريخ الإسلامي ، كان عدد الخلفاء ممن كانت امهاتهم إماء ، أكثر من مؤثر . انها ظاهرة تستحق دراسة معمقة لأنها ترشدنا ، خارج قصص الحب ، إلى بعدٍ أهم جداً من صراع الطبقات والثقافات أثناء العصر الذهبي الإسلامي : البعد الجنسي . وفي هذا يلاحظ **ابن جزم** انه «بين **الخلفاء العباسيين** كان ثلاثة خلفاء فقط ابناء نساء حرات ، وبين أمويّي

---

٢٢ ـ المرجع ذاته .

الاندلس لم ينجح ابن خليفة واحد من امرأة حرة في أن يصبح خليفة»[٢٣] . **فسلامة** ، أم الخليفة **المنصور** (رقم ٢ من الاسرة العباسية) ، والد **المهدي** هي بربرية . وأمهات الخلفاء **المأمون** (السابع) **والمنتصر** (الحادي عشر) **والمستعين** (الثاني عشر) **والمهتدي** (الرابع عشر) هنَّ روميات ؛ وأم **المتوكل** (العاشر) تركية[٢٤] . مع ذلك فإن **خيزران** تجاوزتهن جميعاً بأن كانت والدة لخليفتين متعاقبين . فلم تغتبط من تعيين أول ابنائها كولي عهد وإنما أرادت مضاعفة فرحها بالاصرار على **المهدي** كي يعين ولدها الثاني **هارون** ، والمفضل عندها ، ولي عهده ايضاً . وفي سنة ١٦٦هـ/٧٨٢م ، بعد تعيين **موسى الهادي** بسبع سنوات ، عين المهدي هارون الرشيد كولي عهد مفترض في الدرجة الثانية . **فالمهدي** كان يحب أولاده من خيزران كثيراً ، وبخاصة ابنته منها **بانوقة** التي أحبها لدرجة أنه لم يكن يستطيع فراقها . وكان يلبسها ثياب ولد كي يتمكن من اصطحابها معه في اسفاره . ويروي شاهد عيان قائلاً : «رأيت المهدي مع جيوشه ، عندما زار البصرة ، وهو يتقدم وأمامه المسؤول عن الشرطة ، وكان بين الاثنين / البانوقة/ وهي ترتدي معطفاً اسوداً ، وسيف معلق على جنبها وتلبس لباس شاب ، وقد رأيت نهديها يشرئبان تحت ثيابها» . ويصف شاهد آخر **البانوقة** بأنها : «سمراء ذات قامة جميلة ، ومليحة جداً» وقد ماتت **البانوقة** وهي شابة وحزن **المهدي** عليها حزناً شديداً . ووجد كبار موظفي البلاط ، وكل من فيه ، أنفسهم ملزمين تقديم التعازي إليه ، مع كل المراسيم اللازمة إلى درجة بدأت السلطات الدينية ترى أن هذا كان كثيراً جداً من أجل امرأة . فموت هذه ، حتى ولو كانت أميرة ، ينبغي ان يعبر عنه بصورة

٢٣ ـ ابن حزم ـ نكات العروس في تاريخ الخلفاء ـ جزء ١١ ص ١٠٤
٢٤ ـ ابن حزم ـ رسالة في أمهات الخلفاء ـ جزء ١١ ص ١٢١ .

خفية ، لاسيما وأن **بانوقة** كانت ابنة جارية(٢٥) .

في زمن **خيزران** ، كان الإسلام في أوجه ، كامبراطورية دينية وحربية ، وقد استمر بالاتساع ، وفتح بلداناً أخرى ، وكان **هارون الرشيد** حاكماً كبيراً وفاتحاً كوالده الذي كان يصحبه معه مذ كان عمره ١٥ سنة على ساحات القتال . وقد حقق في سنة ١٦٥ للهجرة ، عندما كان في سن السابعة عشرة من عمره ، نصراً كبيراً بعبوره جبال اينّجه ENNEIGEES في الأمبراطورية البيزنطية ومحاصرته القسطنطينية . وكانت الوصية على العرش التي تحكم البلاد ، مجبرة على توقيع هدنة لثلاث سنوات ، كانت إلى حد كبير في مصلحة **بغداد** . وكان أحد الشروط ، التي فرض **هارون** توقيعها على الملكة الرومانية ، أن تلتزم باعطائه مرشدين يساعدونه على العودة باجتياز الجبال ، كي يعود إلى بلاده . وكان قد توصل مدفوعاً بحماسته وجرأته ، إلى اقناع الـ ٩٥٧٠٠ رجل الذين كان يتالف منهم جيشه بالمغامرة «بالدخول عن طرق وعرة أخافت المسلمين»(٢٦) . كان قسم كبير من سكان البلاد المفتوحة قد تحولوا إلى أرقاء ، وغصّت القصور بالجواري اللواتي جئن مع ثقافتهن واشيائهن الغريبة . كنَّ كرديات ، رومانيات ، أرمنيات ، أثيوبيات ، سودانيات ، هنديات أو بربريات . كان **لهارون الرشيد** الف جارية ، وكان عند المتوكل (٢٣٢هـ/٨٤٧م - ٢٤٧هـ/ ٨٦١م) أربعة آلاف(٢٧) . وقد

---

٢٥ - تاريخ الطبري جزء ١٠ ص ٢١ .

٢٦ - تاريخ الطبري - جزء ٩ ص ١٦٥ .

٢٧ - مروج الذهب - للمسعودي - دار المعارف بيروت ١٩٨٣ المؤلف من اربعة اجزاء ، وقد مات المؤلف سنة ٣٤٦ (القرن العاشر) - واستعمل كمرجع هنا الترجمة الفرنسية طبعة باريز ١٩٦٢ . وبالنسبة للأجزاء الاخيرة . . ترجمتها بذاتي واشير إليها - والمرجع حول جواري المتوكل هو في الجزء ٣ ص ١٢٢ . وانظر أيضاً أحمد أمين في كتابه ←

أصبحت مستودعات الحريم أمكنة عليا للترف ، حيث كانت النساء الجميلات من العالم يتمتعن بثقافات ومهارات في معارف مختلفة ، مما يعتبر بطاقة رئيسية لإغواء وإبهار الخلفاء والوزراء . ومن أجل اغواء الرجال هذا ، لم يكن يكفي تفتير الأهداب ، بل كان لابد من إدهاشهم في الميادين التي تبهرهم ، كالتنجيم والرياضيات ، والفقه ، والتاريخ ، ويضاف إلى ذلك كله ، الشعر والغناء . ولم يكن للفتيات الجميلات الغارقات في المحادثات الجادة أي حظ في صعود نجمهن ، أو في دوامه على الأقل ، وكانت المحظيات المفضلات يعلمن ذلك تماماً ، فيحطن انفسهن بمعلمين مؤهلين لذلك . ولكي تحافظ خيزران على محاباة المهدي لها ، وحظوتها لديه ، كانت تتابع دروساً في الفقه على يد أحد القضاة الأكثر شهرة في زمنها . وكانت الفنون الجنسية واللباقة في الشبقية ، ميداناً آخر حاولت الجواري تطويره ، وتستمد كل واحدة منهن أسرار ذلك من ثقافتها الخاصة . ولم تنجح النساء العربيات من أصل ارستقراطي في المباراة ، لاسيما في هذا الميدان الأخير ، حيث كن مكبوتات بسبب الأخلاقية القاسية التي كانت الطبقات صاحبة السلطة تفرضها على نسائها ، والتي نادراً ما كانت تفرضها على الجواري . وقد عمقت الجواري هؤلاء ، معرفتهن باللذة الذكورية ونزواتها(٢٨) ، بمقدار ماكان عدد الأسياد يتنامى .

← ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة الطبعة ٦ ، ١٩٦١ جزء ١ ص ٩

٢٨ ـ لمزيد من الإيضاح ، خاصة ، حول الرق والجواري في عهد العباسيين الأوائل يمكن الرجوع إلى: أحمد امين في كتابه ضحى الإسلام ـ مرجع سابق . حيث يعطي صورة موسعة عن الرق في عهد العباسين في الفصل الرابع من الجزء الرابع ص ٧٩ ومايليها تحت عنوان«الرق واثره الثقافي» .

وحول الجواري ولاسيما إفساد«حالة المرأة العربية الحرة والارستقراطية بتأثير الرق يمكن الرجوع إلى جرجي زيدان في كتابه التمدن الاسلامي المؤلف من خمسة اجزاء ←

وسرعان ما أصبحت كل منطقة من العالم معروفة بخصائص نسائها المميزة . وكان المغاربة هم الرابحون على نطاق واسع : «من يريد جارية من أجل اللذة ، فعليه بالبربرية ، ومن يريد امرأة موضع ثقة للحفاظ على أمواله ، فليأخذ رومية . أما من يريد جارية لإنجاب الأولاد فإن الفارسية هي أفضل من تختار لذلك ، واذا أراد جارية من أجل الارضاع فعليه أن يختار الفرنسية . ومن أجل الغناء فإن المكية لامثيل لها» . هذه النصائح هي نصائح خبير ، هو ابن بطلان ، طبيب مسيحي من القرن الحادي عشر مشهور في بغداد بكفاءته . وقد اصبح معروفاً أكثر عندما ألف رسالته حول شراء الرقيق(٢٩) . وهذه الرسالة ممتعة لأنها تعطي وصفات لإحباط ألاعيب النخاسين (تجار العبيد) الذين يموهون العبيد المرضى ويعطونهم دهوناً تجميلية ليكسبونهم مظاهر صحية باهرة، أو يغيرون لون شعرهن وجلودهن ، كل

← /جزء ٤/ ص ١٧٢ - اختلافات الأنساب عند العرب ، في الصفحة ٢٧ من الجزء /٥/ ٤ والعبودية في العصر العباسي جزء ٥ ص ٧٦ ومايليها (المرأة في الأسرة العباسية) . وتحليلات جرجي زيدان ملائمة تماماً ، بيد أن مايؤسف له ان كل واحد من هذه الموضوعات قد اعتمد هناوهنالك بشكل متقطع بحيث يمنع القارئ من الوصول إلى تركيب عام سواء أكان حول الرق أو حول النساء . بيد أنه يوجد ازدحام لايصدق بالمعلومات حول الموضوعين . ويمكن قول الشيء ذاته بالنسبة لأحمد أمين فهو نفسه ، أيضاً ، اختار التقطيع في أجزائه التسعة حول الحضارة الاسلامية حسب تسلسل الاحداث ، فينبغي إذن متابعة الموضوعات المهمة هنا وهناك .
ويمكن لمحبي التأليف الرجوع إلى الفصل ٤ الذي كتبه آدم ميتز المستشرق الألماني وكرسه للرقيق في كتابه (الحضارة الاسلامية) المترجم إلى اللغة العربية ، ١٩٦٨ مكتبة الخانجي ، القاهرة - دار الكتاب العربي . فهو يلقي ضوءأحول الظاهرة ، بمقارنته للممارسات العربية في موضوع الرق مع ماجرى في المسيحية واليهودية . فالكنيسة اتخذت منها ضربة رهيبة . واليهود كان لهم الحق بجعل أطفالهم رقيقاً . وباختصار يسر المرء أنه يعيش في سنة ١٩٨٩ .

٢٩ - ابن بطلان ، رسالة في شراء الرقيق ، مكتبةالجنة ، القاهرة ،١٩٥٤ الجزءالرابع عن سلسلة «نوادر المخطوطات» ، ص ٣٥٢ - مات الكاتب في سنة ٤٤٤ .

ذلك بهدف تلبية الطلبات . «يمكن للنخاسين تغيير لون الجلد ، ويمكنهم ان يحولوا جلد من هي سمراء باعطائه لونا ذهبياً . . . ويمكنهم اعطاء لون أحمر لذوي الوجوه الشاحبة ، كذلك الأمر بالنسبة للشعر حيث يمكنهم تحويل الشعر الأشقر إلى أسود غامق ، ويمكنهم تجعيد الشعر المرسل . . ويمكنهم إزالة إنواع الوشم ، وآثار ندوب الجدري الصغيرة ، والنمش والبقع السوداء الخ . .»[٣٠] ويمكن استخدام بعض وصفاته هذه دائماً . وهكذا ، فإنه ينبغي الارتياب باللواتي لهن عيون كبيرة ، لأنهن كسالى أو شهوانيات . واللواتي لهن عيون غائرة يكن غيورات ، وتشير العيون الزرقاء إلى الغباء ، ومن بؤبؤ عيناها يتحرك بسرعة فهي خبث مجسد . اما إذا كان لك شأن بشخصية لها عيون يغلب فيها السواد على البياض ، فينبغي عليك حمل ساقيك على عنقك ، وتهرب لأنها تكون مجنونة . والشعور الرقيقة جداً علامة على الغباء ، والشعر الكثيف والغزير ينبيء عن الشجاعة . ويرى ابن بطلان أنَّ محاولة التواصل مع شخص له أنف كبير هو جهد ضائع ، لأن هذا يعبر عن الغباء . وصاحب الجبهة الكبيرة كسول . لكن صغر الجبهة ليس حسنا ، لأن هذا الشخص يكون جاهلاً . ويعبر الفم الكبير عن الشجاعة ، والشفاه الكبيرة عن الغباء[٣١] . ويحطم ابن بطلان كل الارقام القياسية ، عندما ينصح الشاري المحتمل للعبيد ، حول صفات كل جنس . وبعد العرب ، ينصح بالجواري الهنديات ، وذلك لأمانتهن وصفاتهن ، لكنه يقول ان «مشكلتهن انهن يمتن وهن شابات» ، وهو ينصح بالتركيات من أجل صفاتهن وجمالهن ، ولكنهن بالأحرى قصيرات وبدينات وقلما يوجد بينهن فارعة القوام إلا فيما ندر .

٣٠ ـ المرجع ذاته ص ٣٧٨ ومايليها .

٣١ ـ المرجع ذاته ص ٣٦٥ ومايليها .

والروميات أمهات جيدات ، وغالبا مايمتلكن تقنية يدوية جيدة ، والكريهات اللواتي ينبغي تحاشيهن الأرمنيات ، لأنهن غير أمينات ، وسارقات ، وينبغي استعمال العصا لاستخلاص شيء منهن[٣٢] .

ومما يدعو إلى الدهشة ، في هذه البحوث ، هو ملاحظة انه في البلاد الإسلامية التي كان يفترض فيها ، تبعاً لرسالة النبي وتحريمات القرآن ، أن تعمل على إلغاء الرق ، وجدت نفسها مجلّية في ميدان الرق ، ومدافعة عنه حتى عندما كانت الأمم الأوروبية تتخلى عنه في القرن التاسع عشر . وفي تمام القرن الثامن عشر ، يكتب رجل مسلم رسالة ووصفات لتفحص العبد وتجنب التحول عنه ، فكان **لطف الله الغزالي** ، أحد رعايا **مصر** العثمانية ، أعطى عنواناً مهذباً جداً لرسالته «الطريق الصحيح لمن يبحث ، في فن تفحص العبيد»[٣٣] . وكما أن قطع الامبراطورية الإسلامية بدأ منذ زمن **هارون الرشيد** ، وابنه منذ قرون ، حيث لم يعد الإسلام فاتحا بل بدأ بالاحرى ، يُغلب ، فإنه تبعا لذلك يمكن التساؤل ، من أين كانت تجيء عبيده . ؟ لا يمكن أن يكونوا إلاّ مسلمين ، ولكن كيف حصل أن السلطات الدينية ، الحريصة على اهتمامها بالاسلام والدفاع عن مبادئه الرئيسية في العدالة والمساواة ، لم تنظم حملات ضد العبودية ؟ ؟ هذه المسألة لابد من طرحها للجواب عنها عاجلاً أم آجلاً .

بعد موت زوجها الخليفة **المهدي** فجأة في ١٦٩هـ/ ٧٨٥م ، احتلت **خيزران** مقدمة المسرح . كان موت الخليفة ، يشكل دائماً فترة من الاضطرابات ، وقد كان ولداها بعيدين عن **بغداد** ، فاستدعت الوزراء

---

٣٢ ـ المرجع ذاته ص ٢٧٠ ومايليها .

٣٣ ـ لطف الله محمد الغزالي ـ هدايةالمريد في تقليب العبيد ، منشور في كتاب ابن بطلان ذاته ـ مكتبة الجنة ـ القاهرة ١٩٥٤ .

للتشاور معهم ، وأمرتهم بأن يوزعوا الأموال على وجه السرعة هبة للجيش، وكان يتعلق بما يعادل رصيد سنتين . ولم يكن هذا قليلاً . فالأمر كان يقتضي طمأنة الجنود الذين بدؤوا يتململون عند تلقيهم النبأ . قسم منهم كان في غزوة مع ابنها **هارون** في **طبرستان** ، وكان **المهدي** قد قُبض في الطريق ، في حادث تبين انه قضاء وقدر ، ومات على الفور ، وقرر **هارون** ، بعد التشاور ، دفنه في المكان نفسه والعودة إلى **بغداد** . والتقى بأمه **الخيزران** ، وسهر الاثنان على طقوس الوراثة ، في غياب صاحب العلاقة . ورتبا الأمور كي يتم تعيين **الهادي** خليفة جديداً ، وقد بايع الاعيان وحلفوا اليمين امام شقيقه . واقتضى الامر مرور عشرين يوما ليلتحق **الهادي** بعاصمته . وكان الجنود في ذلك الحين «قد احرقوا بيت الوزير **الربيع** ، وفتحوا ابواب السجون وحرروا المساجين»(٣٤) .

عندما استدعت **خيزران** الوزيرين الأكثر أهمية ، **الربيع** والوزير الشهير **يحي البرمكي** ، مَثُلَ هذان الوزيران امام منزلها مباشرة . ثمة حدث بالغ الاهمية وقع ، يشير إلى مدى سلطة خيزران . فعندما أعلمت الوزيرين اللذين كانا ينتظران على بابها أنهما يستطيعان الدخول ، فإن واحداً منهما

---

٣٤ ـ الإستشهاد هنا لابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ دار الفكر ـ بيروت ، جزء ٥ ، ص ٨٤ ومايليها (موت المهدي وتنصيب الهادي وخلافة هارون الرشيد) وفيما يتعلق بالمصادر حول **خيزران** فهي عديدة . أكتفي بالإشارة إلى بعض كبار المؤرخين الكلاسيكيين . وقد كوَّنت شخصية خيزران موضوع كتب كاملة ، وهي تَمْثُلُ في كل أنواع الآداب النسائية أو الأعلام المشهورين الخ . . .

وتجد سيرة خيزران في كتاب الطبري في الجزء ١٠ ص ٣٣ ، ٣٤ ، وص ٥٢ المصنف على أساس التاريخ المتسلسل حسب السنين . وكذلك في كتاب المسعودي / مروج الذهب/ وفي كتاب الكامل لإبن الأثير وفي كتاب أبي الفلاح عبد الحي بن عماد الحنلي ـ شذرات الذهب . . . . الخ .

أطاع أمرها وأما الآخر فقد رفض . «بالنسبة **للربيع** فقد قبل أن يدخل لرؤيتها ، ولكن **يحي** رفض لعلمه بغيرة الهادي»(٣٥) . وفي الواقع ، كان **الهادي** أقل تسامحاً من أبيه أمام تدخل والدته وعندما تلقى النبأ ، أرسل رسولاً للوزير **الربيع** مهدداً إياه بالموت . فقد تجاوز عتبة الفضاء أو الحيز الممنوع ، حيز الحريم . هذا الاصرار على العتبة التي تفصل عالم الرجال عن عالم النساء ، كان مايزال يظهر ، بوضوح أكثر ، آنئذٍ من حادث آخر وقع فيما بعد ، بعد بضعة شهور .

في زمن زوجها ، كانت **خيزران** تعقد اللقاءات ، وكان العديد من الشخصيات الهامة يسرع إلى بابها . وبعد موت الخليفة ، لم تبد أية رغبة في تغيير ذلك : «فاستمرت تحتكر القرار دون مشاورة **الهادي** ، كانت تتصرف كما كانت تفعل ، ايام حكم **المهدي** . . . وكانت المواكب أمام بيتها تروح وتجيء . . .»(٣٦) . وشعر الهادي ، الذي كان غير واثق من نفسه ، بأنه مهدد بطموحات والدته ، وكان يغار إلى حد المرض من شقيقه **هارون الرشيد** ، المحبوب جداً من علية القوم والشعب ، والذي كان موضع تقدير واحترام لشجاعته في الحروب . وقد حاول ، في العديد من المناسبات ، تجريده من لقبه كولي للعهد كي يعطيه لابنه **جعفر**(٣٧) . وقد فضل هارون تبني الحل بالهرب ، حيث قلل من المناسبات التي يجتمع معه فيها . ولم تكن تلك طريقة **خيزران** التي استمرت بالتدخل ، وابداء رأيها في الأمور وفي المقام الأول منها ؛ ادارة شؤون الامبراطورية ، وفكر الهادي بعكس ذلك ، ولم يتوقف عن تكرار قوله لها : «ليس للنساء التدخل في

٣٥ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ جزء ٧ ص ٨٤ .
٣٦ ـ المرجع ذاته ، ج٥ ، ص ٧٩ .
٣٧ ـ المرجع ذاته جزء ٧ ص ٨٨ .

السلطة . . . وفي شؤون السيادة وعليك أن تولي اهتمامك لصلاتك ومسبحتك .»[٣٨] . وأصرت على موقفها . وفي أحد الأيام أتت إليه لالزامه بالموافقة على منحة . وتوسطت لمصلحة المدعو **عبد الله بن مالك** ، فرفض **الهادي** أن يستجيب لطلبها ، وإنما بأدب ، متحاشيا على الطريقة العربية تماماً اعطاء الجواب . فارتكبت **خيزران** رعونة في الحاحها ، قائلة : «ينبغي عليك تلبية طلبي لأني سبق أن وعدت عبد الله بهذا الشيء . . .» . فكشفت بذلك اوراقها بوضوح[٣٩] . وغضب ابنها مُطْلِقاً خطاباً يلخص تماماً مشكلة النساء مع السياسة قائلاً لها عندما رآها تهم بالخروج : «اسمعي كلامي جيداً ، إن كل من يذهب إليك من قادتي أو ممن يحيط بي أو من خدمي ليتوسطك في أمر ما ، سوف اقطع رأسه واصادر أمواله . ماذا تقصد هذه الجموع التي تقف كل يوم على بابك ؟ افلا يوجد عندك مغزل يشغلك ،وقرآن كي تصلين ، ومستقر يحجبك عن هذه الوساوس ، انتبهي ، والويل لك إذا فتحت فمك لمصلحة اي كان !»[٤٠]. فتركت إبنها وهي «لاتكاد تتحسس مكان قدميها» ـ كما يقول المؤرخون ـ فقد أعلنت الحرب بينهما .

لقد مات **موسى الهادي** في سن مبكرة ، حيث كان عمره ٢٤ سنة، بعد فترة حكم قصيرة لسنة وشهرين . ويقول كثير من المؤرخين أن موته كان بتدبير من خيزران التي أُحبطَت سياسياً[٤١] . ويقول بعضهم انها قد أجبرت على العمل بسرعة ، لأنها علمت بأنه كان ينوي قتل **هارون**

---

٣٨ ـ تاريخ الطبري جزء ١٠ ص ٣٣ .

٣٩ ـ ابن الأثير مرجع سابق .

٤٠ ـ الطبري ـ جزء ١٠ ص ٣٣ عن الترجمة الفرنسية .

٤١ ـ المرجع ذاته ـ ابن الأثير ج ٥ ص ٧٩ .

الرشيد . إن ظروف القتل كانت تختلف ، وأقساها هو القتل الذي كانت أمرت به جواريها الحسان للتسلل إلى مخدع **الهادي** حيث ينام وخنقه تحت الوسائد[٤٢] . فقد وضعن هؤلاء الوسائد على رأس الحاكم ، وكأنهن يداعبنه ، وجلسن عليها . هذا وان الطبري ، الذي لم يكن يتحيز الا فيما ندر ضد أحد ، شعر بأنه ملزم على التنويه بوحشية عمل **خيزران** نوعا ما ، راوياً في الوقت نفسه أن **الهادي** كان قد حاول مرة على الأقل قتل والدته . كان قد أرسل لها أطعمة مع من قال لها انه وجدها لذيذة فخصها بها كي تتذوقها . لكن **خيزران** ، كأم حنونة وعاطفية عملت على أن يتذوق كلب من هذا الطبق اولاً . وقد سقط الكلب ميتاً على الفور[٤٣]

ومع أن خيزران كانت قوية ، فإنها لم تحلم ، مع ذلك ، أبداً في تغيير قاعدة اللعبة ، لتولي السلطة مباشرة . فقد قبلت فصل العالم إلى قسمين ، الحريم بالنسبة للنساء والحياة العامة بالنسبة للرجال . وأرادت التعامل مع العام انطلاقا من الخاص ، بدلاً من كسر الحاجز ، والوجود رسمياً في الجانب الآخر . فالسلطة هنا خارج المنزل في الحلبة العامة . وهنا يمكن الاعتراف بها كرئيسة للدولة .

ليست واقعة كون **خيزران** امرأة أو أم هي التي جمدت مسيرتها السياسية ، بل واقعة انتمائها ، بصفتها امرأة ، إلى الحريم ، محيط الطاعة . فالمبادهة ، والقرار في كل مادة لاسيما السياسية ، قُيِّدت في الإسلام المثالي ، في محيط كان ممنوعاً عليها : الفضاء العام ، فالعمل بالسياسة ، هو بالضرورة القيام بعبء الحرب ، والاضطلاع بعمل القتل . ومقر النساء ، أو محيطهن ، هو محيط الحياة ، الجنس والانجاب . المرأة تعطي

٤٢ ـ المرجع ذاته ص ٣٤ .
٤٣ ـ المرجع ذاته ص ٣٣ .

الحياة والرجل يقوم بالصيد والحرب . ان الحريم (الذي يعرفه الغربيون كحرم) يجد جذوره اللغوية في الفضاء القدسي ، حرم مكة الذي يتقاسم معه امتيازاته وقوانينه . فيحرم الصيد (قتل الحيوان) والحرب (قتل البشر) اثناء فترة الحج ، في محيط الحرام ، معبد مكة ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أو بعده . تلك هي احدى تقاليد الجاهلية التي حافظ عليها الإسلام ، مع بعض التغييرات[٤٤] . فشعيرة الثياب التي كان ينبغي على حجاج ما قبل الإسلام التجرد منها اثناء الطواف الذي كانوا يقومون به عرايا ، رجالاً ونساء ، ثُوبر عليها في الإسلام . فالثياب رمز للذنوب التي كانوا يتجردون منها وكانت محرمة على اللمس[٤٥] . فالحرم هو اذن المعبد ، وفي الوقت نفسه ، مقر الرجل الذي تقيم فيه نساؤه وأولاده ، إنه الفضاء الممنوع على الغير .

لقد أراد **الهادي** ، الابن البكر **لخيزران** ، إرجاع والدته إلى مكانها ، إلى محيطها في البيت . وبالنسبة له فإن شخصيات الامبراطورية الذين جاؤوا يطلبون لقاءها فيه ، يطغون على عتبة حرمه . حجة الهادي ضد أمه، عندما قرر معارضتها بعد أربعة أشهر من موت والده ، قلما كانت مبنية على دليل من اختصاصه . وبرأيه «ان التدخل في السلطة ليس من امتيازات النساء» وذلك بسبب توزيع أعباء تعود إلى تخصيص المناطق .

فبعد أن نبه أمه كي تلتزم مكانها ، أي الحريم ، استدعى الأشخاص الذين كانوا يطلبوا مقابلتها و استدرجهم إلى الاعتراف بأنهم انتهكوا

---

٤٤ ـ البغدادي ـ كتاب المحبّر . المكتبة التجارية بيروت ـ فصل حول تقاليد الجاهلية التي حافظ عليها الإسلام وتلك التي ألغاها . ص ٣٠٩ ومايليها . (مات المؤلف سنة ٢٤٥هـ)

٤٥ ـ لسان العرب ـ انظر كلمة حرم .

القانون المتعلق بالمناطق : قانون الشرف . فعندما علم المهدي بمواكب القادة الذين يتقاطرون على باب والدته ، استدعاهم وسألهم :

- من هو الأفضل بيننا ، انتم أم أنا ؟ . فأجابوا :
- بالتأكيد ، أنتم ياأمير المؤمنين . . واكمل الخليفة السؤال :
- أي الأمهات أفضل ، أمي أم امهاتكم ؟ وأجابوا :
- بل أمكم ياامير المؤمنين . . . وأكمل الخليفة :
- من يعجبه منكم اشاعة الاخبار عن أمه ؟ واجاب الحضور :
- لأحد يحب الحديث عن والدته . وقال الخليفة :
- اذن ، لماذا يأتي الرجال منكم إلى والدتي للحديث معها .؟[٤٦] .

ولأن خيزران كانت تعشق السلطة ، وتتألم إذا عزلت في حريمها ، لذا قررت اللجوء إلى السلاح الوحيد الذي يشكل جوهر السياسة : قررت أن تقتل . ومن حَرَمِها راحت تخطط للقتل ، رغم ان هذا الحرم هو مكان السلام[٤٧] . فالحريم هو في آن واحد ، المكان والنساء اللواتي يعشن فيه . انه تشابك مركزي مطلق في كل الهندسة التزيينية الإسلامية بين الكائنات والفضاء . فالحريم هو الفضاء المحمي ، الذي يمكن للرجل أن يقتل كي يمنع الوصول اليه . القتل في الخارج ، وليس في الداخل . وواجب العلماء هو السهر على الأعتاب ، وأن يذكرونا بأن الإسلام ليس الا هذا : احترام الحدود ، وعدم انتهاك الأعتاب والحدود . ومع العلماء كل الحق في أن يصروا على واقعة أن إزالة التمييز الجنسي ، وخروج النساء من البيت للاضطلاع بالوظائف ذاتها الخاصة بالرجال ، إنما يبشر بقرب نهاية العالم . فالذين يحاولون القول بأن الإسلام وديمقراطية الغرب (ولايوجد هنالك

---

٤٦ ـ الطبري ـ جزء ١٠ ص ٣٤ .
٤٧ ـ الطبري ـ المرجع ذاته .

سوى هذا على ما أرى) هما متوافقان ، أي أن غياب الامتيازات في النطاق السياسي بين الرجال والنساء لايعكر الإسلام في شيء ، يريدون في الواقع تجنب طرح المشكلة في أعماقها ، وبخاصة الجدل حول الفرد ومكان الفردية في توجيه القرار . لكل واحد محيطه ، ذلك هو مبدأ الهندسة التقليدية . كل الافراد لهم الحق في كل المناطق ، تلك هي رسالة الديمقراطية الحديثة . إنه نزاع كوني في طبيعته وفي مقياسه .

إن هذا المفهوم للاقليمية يمكنه أن يفسر أيضاً ظاهرة أخرى أكثر شناعة في نهاية القرن العشرين : الخوف شبه اللامعقول عند الغربيين من الارهاب . ويكفي ملاحظة أخبار **برلين** أو **باريز** لنفهم أن الرؤية التي تقدمها وسائل الاعلام تعود ، خارج الحوادث الدقيقية ، إلى هيجان جماعي حول قوة **الاسلام** . وهو تعبير عن خوف عميق ووراثي من الإسلام ، وذلك رغم الضعف التكنولوجي والحربي للدول الإسلامية . وبما أن الإسلام ظاهرة كونية فهو، بصفته مفهوماً اقليمياً ، يشكل تهديداً . لاينبغي ان ننسى قول النبي : « . . . **جعلت لي الارض مسجداً**»(٤٨) . يكفي لعامل من معامل (رينو أو استروني) في أي مكان من **فرنسا** ، أن يصل إلى حنفية ماء نظيف كي يقيم طقس الوضوء ، وأن يوجه بالتالي رأسه نحو الشرق في اتجاه **مكة** ليُحول رواق معمل إلى جامع ، فضاء للصلاة . فالاسلام ظاهرة كونية ، وعلاقة محددة للمكان . وهذا البعد الكوني هو الذي يصنع من الفرق بين الجنسين هندسة .

فالمرأة تنتمي للمكان الداخلي ، الحريم ، المكان المحمي ، ورئيس الدولة ينتمي إلى الفضاء الخارجي ، المكان العام . من هنا كانت الضرورة

---

٤٨ ـ الإمام النسائي ـ جزء ٢ ـ ص ٥٦ .

بالنسبة لنا لاكتشاف الطقوس ، التي ينبغي أن تنغرس بالضرورة في المكان ، الذي بموجبه سوف تطالب النساء ، رئيسات الدولة ، بوجودهن في مكان الرجال ، فبأية علاقة وبأية رموز ؟ .

ليس ذكاء خيزران ، ولا جدارتها هو ماشكك فيه ابنها ، عندما أخذ ينكر عليها حقها بمتابعة سلوكها السياسي ، التي كانت مارسته في عهد زوجها : «أرادت خيزران أن تسيطر على ابنها كما كانت تسيطر على أبيه، أي تغليب أمرها على أمره»[٤٩] . إن تألقها وموهبتها لم يكونا موضع شك وهما يفسران كيف استطاعت الإنفصال عن جماعة من المحظيات كانت تحيط بالمهدي ، وأن تكسف ابنة عمه ، **ريطه** الزوجة الارستقراطية . وعلى العكس من ذلك ، فإن ذكاء ابنها ، الذي كان يحمل اسم موسى قبل أن يتلقى لقب الخليفة الهادي (بمعنى الذي يقود أو يهدي) ، بعيد عن أن يكون على هذه الدرجة من ذكائها المؤسس بجدية . ولم يغفل المؤرخون عن إعطائنا الأوصاف الطبيعية للخلفاء . تتضمن أوصاف موسى الهادي تفصيلات تدع مجالاً للافتراض أن سرعة الخاطر لم تكن قوية لديه : «كان كبيراً ، قوياً ، جميلاً ، مع بياض مشرب بحمرة» . وكانت شفته العليا قصيرة جداً وقد لقب موسى أَطْبِقْ» التي تعني حرفياً : موسى أغلِقْ[٥٠] . ويوضح ابن الأثير الذي اهتم بالتفاصيل ،انه قد سُمِّيَ بذلك لأن الخليفة المهدي كان قد عين عبداً من أجل موسى كي يقول له ، أطبق في كل مرة كان ينسى فيها ضم شفتيه وهكذا أعطي لقب (موسى اطبق[٥١]) . فالجدارة ، لم تكن إذن الأرضية التي كان الخليفة الهادي يستطيع المقارنة

٤٩ ـ الطبري ـ التاريخ جزء ١٠ ص ٣٤ .
٥٠ ـ الطبري ـ التاريخ جزء ١٠ ص ٣٨ .
٥١ ـ ابن الأثير الكامل جزء ٥ ص ٨٠ .

عليها مع أمه ، ولذلك رفع ضدها سلاحاً آخر هو : واجبها أن تعود إلى منطقتها ، الحريم .

هنالك أربع كلمات تأتي من حرم : المحرم ، الشخص الذي تمنع قوانين المحرمات الزواج منه «وهو الشخص الذي توجد علاقة رحم معه تجعله محرماً» . والمنطقة الخاصة أي حرم الرجل ، والذي يدافع عنه ضد أطماع الآخرين . وحرم البئر هو المساحة التي تحيط به من الأرض ، والتي يكون دخولها ممنوعاً : «فالبئر الذي يتعب المرء ويجدُّ في حفرها هي ممنوعة على الآخرين وليس لأحد أن ينازعه في احتكاره لها . وقد سمي محرماً لأن استعماله ممنوع على أي واحد آخر ، إلّا على من حفره»[٥٢] . ونلاحظ أن كلمة حريم تعبر في الواقع عن مفهوم عتبة ، حد ، فصل بين منطقتين . وهي تمد جذورها في آن معاً في الفضاء ، كحقل مرتبط بالحياة (الجنسيه) وبالموت (الحرب) وأهلية الدفاع والوقاية . إنها عتبة تنظيم العالم ، توزع الكائنات في الفضاء ، وذلك حسب علاقتها بالقوة وتفانيها في أن تقتل ، وأن تدافع عن العتبات .

إن الإسلام هو أحد الأديان النادرة ، التي أقامت فارق الجنسين في بنيان هندسي اجتماعي . فقبل **خيزران** كانت **عائشة** زوجة **النبي** ، **أول** امرأة مسلمة طالبت واضطلعت بسلوك سياسي . وقد جوبهت بالمنطق ذاته ، المنطق الاقليمي . وكان ذكاء **عائشة** أيضاً واضحاً : «عائشة أفقه الناس وأعلمهم» حسبما ورد عند ابن حجر[٥٣] . لقد قادت أول تمرد ضد

---

٥٢ ـ لسان العرب ـ مادة «حرم» .

٥٣ ـ ابن حجر العسقلاني ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ دار النهضة ـ القاهرة جزء ٨ ص ١٩ .

خليفة . وتولت رئاسة العصيان المسلح في سنة ٦٥٨/٣٦ ضد الخليفة الراشدي الرابع **علي ابن أبي طالب** . وقد توجهت إلى الجوامع لتحريض الجماهير ، والطلب إليها حمل السلاح ضد **علي** ، ثم توجهت بعدئذ إلى ساحة المعركة ، وهي ترأس عدة ألوف من الرجال . وعرفت هذه الموقعة بـ (وقعة الجمل) باسم الجمل التي كانت تمتطيه عائشة ، وكانت المرأة الوحيدة في ساحة المعركة . لقد سقط سبعة آلاف مسلم قتلى في المكان خلال بضع ساعات . كانت تلك أول حرب أهلية ، سببت صدمة للاسلام ولم يزل أثرها حتى يومنا هذا ، وسجلت بداية الانقسام بين الشيعة (الذين بقوا موالين للخليفة **علي** والمنحدرين منه) ، والسنة أولئك الذين قبلوا بخليفة يوقف الحرب الاهلية ، ويقيم السلام حتى ولو لم يكن من عائلة **النبي** .

كانت **عائشة** أول امرأة تخرق **الحدود** ، بانتهاكها الحد القائم بين منطقة النساء ومنطقة الرجال ، وإصرارها على القتال في حين أن عمل الحرب هو امتياز للرجال ، ويعود لمنطقة خارجة عن الحريم . فالمرأة ليس لها أن تقتل . تقرير الحرب هو من وظيفة الرجل ومبرر وجوده . **فعائشة** أول امرأة تتخذ قراراً سياسياً ، بقيادتها للرجال المسلمين ، وستبقى مرتبطة في الذاكرة بـ **الفتنة** ، بمعنى الاضطراب والتدمير[٥٤] . فحين مضت في حملتها لتجنيد أنصار لها ، لاسيما من بين صحابة **النبي** ، الذين كانوا يشغلون في تلك الفترة وظائف تقريرية بصفتهم حكاما في المقاطعات ، وهذا ما كان يجعلهم قادرين على مساعدتها بامتشاق السلاح ، فإن حجة أولئك الذين اعترضوا على مبادرتها وقرروا البقاء مخلصين للخليفة **علي** ، لم تكن تتعلق بالجدارة أو الأهلية ، بل كانت دائماً وبمنهجية ، حجة من

٥٤ ـ أحد الأوصاف الأكثر إثارة لموقعة الجمل هي وصف الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٦١ ومايليها .

نوع «تخصصية الموقع»[٥٥] . وتخصصية الموقع هذه تتوضح بما كان قاله **علي** لـ **عائشة** التي جرحت جرحاً خفيفاً على جملها ، الذي كانت النبال تغطيه ، وكان ذلك بعد فشلها : «حميراء . . . أهذا ماأمرك به رسول الله ؟ ألم يأمرك ان تقري في بيتك ؟»[٥٦] . حميراء كان تصغير التحبب الذي كان الرسول يحب إعطاءه **لعائشة** . ومع مايزيد على قرن من الزمن كانت **خيزران كعائشة** ، تجد نفسها في حالة مواجهة عتبة لاينبغي تجاوزها ، إنما في ظروف مختلفة .

إن المرأة رئيسة الدولة ، هي المرأة التي تطالب بأن يكون لها وجود خارج عتبة المنزل . وهو ماستبحث عنه ليكون مرئياً على الأرضية الأكثر عمومية : منبر الجامع ، حيث هنا تتحد بشدة السلطتان : السلطة الإلهية والسلطة الأرضية وتظهر الواحدة منهما من الأخرى وتتجلى فيها .

---

٥٥ ـ المرجع ذاته .

٥٦ ـ المسعودي ـ مروج الذهب جزء ٢ ص ٣٧٦

القسم الثاني

السيادة في الإسلام

ـ ٥ ـ

معايير السيادة في الإسلام

إن معايير السيادة التي لااعتراض عليها في الإسلام هيَ معياران : ذكر اسم رئيس الدولة في خطبة الجمعة ونقشه على العملة . مع ذلك ، إذا أريد اختيار مايبدو مفروضا بطريقة مستمرة ويقينية ، منذ السنة الأولى للهجرة / ٦٢٢م/ حيث أنشأ النبي بيديه أول جامع في المدينة ، فإن ذلك سوف يكون الخطبة ، موعظة صلاة الجمعة . وقد رأينا اختلاف ألقاب رؤساء الدولة في الإسلام بحسب طبيعة السلطة التي مارسوها ، فهناك الخليفة مع سلطاته الروحية والأرضية المرتبطة بإحكام ، وهنالك الملك بالمعنى الذي أشار إليه **ابن خلدون** أي صاحب السلطة الأرضية دون أي ادعاء آخر . صحيح ، أن سلطتهما تختلف حسب درجة السيطرة على القوة العسكرية ، لكن هنالك شيئاً يبقى يقينيا : فالذي ينطق باسمه في خطبة الجمعة هو وحده من يعترف به كحاكم رسمي .

إن خطبة الجمعة هي في آن واحد المرآة والانعكاس لما يجري على المسرح السياسي . ففي حالة الحرب ، يجري الإعلام حول مايجري على الجبهة بالاصغاء اليها : فاسم السيد الذي يذكر هو الذي يسيطر على الاقليم عسكرياً وبشكل فعلي . ويتغير الاسم في فترات الإضطراب بالتتابع

وتبعاً للأحداث . فالخطبة هي المقياس الأمين للمداولات الدقيقة بين الديني (الخليفة) والدنيوي (الرؤساء العسكريون الذين يعلنون أنفسهم رؤساء للدولة) . وافق الخليفة العباسي عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م ، حين أصبح ضعيفاً عسكرياً ، وافق على أن يخطب باسم الحاكم البويهي الذي كان أعطى نفسه اللقب الفارسي القديم **شاهنشاه** (امبراطور الأباطرة) ، وعندها كادت ان تندلع الفتنة[1] . فلقب الشاهنشاه هذا ، ويقابله بالعربية ملك الملوك ، اعتبر نوعاً من التجديف في نظر الأتقياء ، لأن الله وحده مالك الملك كما جاء في الاية ٢٦ من سورة آل عمران . ولإعادة النظام ، أُجبر الخليفة على دعوة العلماء ، وطلب إليهم إصدار فتوى في هذا الشأن . وكما هو الشأن دائماً ، انقسمت آراء هؤلاء العلماء حسب مصالحهم ، وشجاعتهم ودرجة إيمانهم . فكثير من القضاة وافقوا الحاكم البويهي على ماأراد ، معلنين ، أنه ليس من الهرطقة في شيء بالنسبة له أن يأخذ لقب **ملك الملوك** ، وما عدا واحد منهم ، **أبو الحسن الماوردي** الذي تفرّد عنهم بكونه صوت الضمير ، وفضّل قول الحقيقة ، حتى ولو أدى ذلك إلى قطع رأسه . فقد أعلن أن عمل رئيس الدولة في طلب مثل هذا اللقب هو عمل هرطقي ، وقد كانت فتواه خطيرة لأنه كان يشغل وظيفة **قاضي القضاة** . وهي وظيفة محترمة ومرجع كلي في مادة الفقه . و «بعد إصداره هذه الفتوى قبع في بيته خائفاً . . .»[2] .

---

١ - الموسوعة الاسلامية - انظر مادة لقب . ومن أجل تفصيلات الحدث انظر: الكامل لابن الأثير جزء ٩ ص ٢٢٦ . طبعة بيروت ،١٩٨٧
ملاحظة : في معرض اجراء هذا البحث كنت أتنقل بين مكتبتين توجد في كل منهما نسخة من كتاب الكامل لابن الأثير مختلفة في طباعتها ، الأمر الذي يجعل خلافاً في الإشارة إلى الأجزاء التي رجعت إليها من حيث رقم الجزء والصفحة . . فاقتضى التنويه .

٢ - ابن الأثير - جزء ٨ ص ٢٢٦ و٢٢٧ . دارالكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧ .

في حالة الانشقاق الذي يقع ، وهو شبه دائم من طبيعة دينية ، تكون أول اشارة عصيان هي أن يعمد من طمح إلى السلطة على أن يخطب باسمه أو باسم الحاكم الذي يرتبه ، وقد صدم العالم الإسلامي في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٢م بخطبة نطق بها العصاة باسم حاكم شيعي في **بغداد** ذاتها ، عاصمة الامبراطورية الإسلامية (السنية) ، وذلك عندما احتلها الجنرال التركي ، **البساسيري**(٣) . وقد جرت هذه الخطبة في حمام من الدم حيث بلغت الفتنة أوجها . وهكذا نفهم اذن أهمية الخطبة بصفتها معياراً لتمييز النساء اللواتي مارسن السلطة رسمياً ، عن اللواتي اكتفين بممارستها بصفة شبه رسمية كزوجة أو أم ، مثل **خيزران** . إن فكرة النطق بالخطبة في جوامع العراق باسم **خيزران** كان عملاً تجديفيا قطعاً ، ومع ذلك فإن العراقيين استمعوا بروية للخطب التي نطق بها باسم الملكة **تيندو** من اسرة **الجالاردين** ، التي تولت حكم البلاد في القرن الخامس عشر(٤) .

إذا كانت خطبة الجمعة محملة رمزيا إلى هذا الحد ، ومحددة بمضمونها المزدوج الروحي والمادي ، المتجسد بحضور فعلي لجماعة من المؤمنين ، من عامة تجتمع لأداء صلاة عامة بتوجيه الإمام ، فإن هذا يكون أكثر أيضاً في حالة النساء اللواتي ينظر اليهن كغريبات عن الفضاء السياسي . والنساء النادرات اللواتي قد توصلن إلى أن يُنطق باسمائهن من أعلى منابر الجوامع ، يُشكلن حالة استثنائية في تاريخ الإسلام السياسي ، في المقياس الذي نجحن فيه في صنع الموافقة الرسمية على انتهاكهن للمحرمات . وإذا أدركنا العلاقة المتنازع فيها بين النسوي والديني ، والغموض المخيم على مشروعية «وجود» النساء في المساجد ، الغموض

---

٣ ـ المرجع ذاته ص ٤٥٠ .
٤ ـ الذهبي ـ شذرات الذهب جزء ٧ ، ص ١٥٣ .

الذي يبدو مختلفاً حسب الأمكنة ، وحسب الثقافات والعصور التاريخية ، سوف يتبين لنا بصورة أفضل الوزن الرمزي والسياسي العجيب لهؤلاء النساء النادرات ، اللواتي توصلن إلى ذكر أسمائهن في الخطب، أيام الجمعة .

والمعيار الآخر للسيادة ، العملة ، هو أحد امتيازات السلطة العليا ، لكن الفارق بين المعيارين من حيث الشرعية كبير جداً في المقياس ، فالخطبة تُعتبر العلامة المميزة لصاحب السيادة المسلم ، بينما سك العملة هو شعار ملكي يوجد في الإسلام كما يوجد في ثقافات وديانات أخرى . كان العرب قد بدؤوا باقتراض عملة جيرانهم ، الأمر الذي يدعو إلى الدهشة عندما نتذكر أن مكة كانت مركزاً تجارياً كبيراً في فترة الإسلام . وقد استعملوا النقود الفارسية أو الرومانية ، ولعدَّة عقود من ظهور الإسلام ، استمروا على ارتباطهم بالعملات الأجنبية . ويذكر المؤرخون أن قرار صاحب السيادة المسلم بمنع استعمال العملات الأجنبية كان في السنة ٦٥ من الهجرة . وتعزى هذه المبادرة للخليفة الأموي **عبد الملك بن مروان** ، الخليفة الخامس ، الذي فرض استعمال عملة رسمية جديدة على الاراضي الإسلامية ، موشحة بلغة عربية مع كلمة الشهادة ، منقوشة على وجه منها ، وعلى الوجه الاخر السنة التي ضربت فيها واسم الحاكم[٥] . ولم يرض الامبراطور الروماني عن هذه الإشارة للاستقلال ، فهدد الخليفة بأنه سوف ينشر في السوق عملة يُدَون عليها شتيمة للنبي . وقد عمد الخليفة الذي أرعبه احتمال نشر شتائم مطبوعة على معدن متعدد إلى ما لا نهاية ،

٥ ـ الشهادة هي إحدى اعمدة الاسلام الخمسة ، وتتكون من عبارة (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» والأعمدة الأربعة الأخرى : الصلاة ، الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى مكة . والمرجع المتعلق بأول عملة اسلامية هو كتاب جرجي زيدان «تاريخ التمدن الاسلامي» جزء ١ ص ١٤٢ ومايليها . تاريخ النشر والدار غير مذكورة .

عمد إلى طلب مشورة السلطات الدينية التي نصحته بتجاوز تهديد الرومان ، والطلب إلى الصناع أن يصنعوا له دنانير (من ذهب) ودراهم (من فضة) مكتوب عليها بالعربية . كانت هناك محاولات سابقة ، وبخاصة منها محاولة **خالد بن الوليد** . لكن هذا اكتفى بضرب دنانير بالتعاون مع الرومان ، ينقش اسمه باللاتينية على العملة الرومانية التي ينقش عليها صليب وتاج ، وهما رمزان شنيعان في الإسلام[٦] . وكان **معاوية** أول خليفة من الاسرة الأموية ، عمل تماماً ، كخالد بن الوليد ، على نقش اسمه على دينار فارسي[٧] . وإذا كان تداول عملة خاصة بالاسلام قد تعرض لبعض العناء في فرضه عند الفتح كرمز للسيادة ، فإن الخطبة ، الموعظة القصيرة التي يتلفظ بها الخطيب أي الإمام المكلف بتوجيه المرفق الديني ، كانت منذ بداية الهجرة ، عنصراً ثابتاً لايتغير للطقس الإسلامي ، المحتفل به في الجامع في مناسبات محددة جداً : احتفال يوم الجمعة الديني ، واحتفال الأعياد الكبرى ، واخيراً الاحتفالات الخاصة بمناسبة الأحداث الكونية غير المعتادة والمثيرة للاهتمام ، أمثال الخسوف وبخاصة الجفاف . وكانت الصلاة تجري من حيث المبدأ قبل الخطبة ، ماعدا يوم الجمعة ، حيث يجري عكس هذا الترتيب : فالخطبة تلقى اولاً ، وتتم الصلاة بعدئذ . والخطبة شفوية ، وهي موعظة ، في حين ان الصلاة حركية بدئياً ، وكل حركة تترافق بعبارات مرسومة تكملها وتدعم مدلولها الرمزي . وتتضمن الخطبة أدعية وابتهالات لله وانبيائه ، وقراءة آيات من القرآن واخيراً دعاء للمؤمنين . وهذه الأدعية تنتهي بذكر الحاكم ، وصلوات تطلب من الله أن يعينه في مهمته . فالدعاء باسم الحاكم القائم على رأس السلطة ، الذي

---

٦ ـ زيدان ـ المرجع ذاته جزء ١ ص ١٤٢ .

٧ ـ المرجع ذاته .

يشكل في آن معاً ، نوعاً من الاشهار بالنسبة للحاكم الذي يذكر اسمه (بخاصة في أوقات الاضطرابات) ، وتجديداً بالاعتراف والارتباط به في حالة السلام ، يترافق بصلوات وشفاعات لله كي يعينه ويطيل عمره . وطالما أن سعادة وأمن المؤمنين مرتبطة بحسن إدارة الحاكم لشؤون الدولة ، فإن تمني الحياة المديدة لهذا الحاكم والدعاء له أثناء موعظة الجمعة ، هو تدعيم للفكرة الأثيرة في الإسلام بالتناسق الشامل بين السماء والأرض ، بين الروحي والمادي ، بين الحاكمين والمحكومين . إن خطبة الجمعة ، الشعيرة الدينية المركزية للنظام ، تعبر عن جوهر هذا النظام نفسه ، أي أن الدين سياسة والسياسة دين . إنها دائماً تقال باللغة العربية ، ولكن هنالك استثناءات لهذه القاعدة في البلدان الإسلامية التي لاتتكلم العربية . تجري طقوس الصلاة وفق ترتيب دقيق : «إنه مطلوب (كسنة) من الخطيب أن يأخذ مكانه على درج ، أو مكان مرتفع وأن يسلم على الحضور في الفترة التي يتوجه نحوهم ، وأن يجلس إلى أن يقوم المؤذن بالأذان [٨] ، وأن يستند على قوس ، حربة أو عصا ، وأن يتوجه مباشرة نحو الحضور ، وأن يدعو من أجل سلام المسلمين ، وان تكون خطبتة قصيرة»[٩] . احتفال الجمعة الديني هام جداً ، وهو يشكل موضوعاً لفصل خاص في جميع دراسات الفقه[١٠] .

---

٨ ـ صحيح أن التدوين الصوتي لكلمة «مؤذن» هو تدوين دقيق عند محرري (الموسوعة الاسلامية) المتشددين ، لكنه معقد . لقد اخترت لتدوين الكلمات العربية طريقة أكثر بساطة ، وحتى صوتياً ، أي إلغاء الكلمة هو الأكثر تحديداً . والأمر الأساسي هو أن القارىء يكتشف مع الكلمات المعلّمه أنه يعرفها قبلاً .

٩ ـ الموسوعة الاسلامية ، انظر في الخطبة .

١٠ ـ يوجد في كل كتب الفقه فصل يسمى (كتاب الجمعة) و يأتي عادة بعد كتاب الصلاة. ويمكن على سبيل المثال أن نقرأ: آ) اذا شئنا الاستعلام بسرعة : فصل مؤلف من ٢٠ صفحة مكرسة للجمعة في صحيح البخاري . ب) و على العكس ←

ولفهم مدى هذا الاحتفال ، وتجذره في الذاكرة والاحساس الجمالي المستخلص منه ، ينبغي العودة إلى الخطب الأولى التي القاها النبي بذاته في أول جامع في العالم ، أنشيء في المدينة . جامع كانت عظمته وجماله البساطة والتجرد من مظاهر البذخ والترف . جامع يدهشنا حتى وقتنا الحاضر لأن قوة رئيسه ، النبي ، عبرت عن نفسها بكل وضوح بتواضعه الجم ورفضه لكل أباطيل السلطة . لقد اعتبر نفسه كحكم ، مجرد وسيط مصلح للجماعة وليس طاغيتها المستبد .

إن أول بادرة للنبي ، بعد هجرته من مكة برفقة أنصاره ، وإنشائه أول جماعة مسلمة في المدينة ، كانت إنشاء مسجد : «قبل هذا ، كانت العادة عند النبي ان يصلي في مرابض الاغنام ، وعملياً في اي مكان تقريباً كان يتواجد فيه وقت الصلاة»[11] . ولكن أول جامع لم يكن مكانا للصلاة فحسب . وهنالك اتجاه اليوم مع قيام البرلمانات ومجالس الشعب حسب النموذج الغربي ، لتناسي أن المسجد كان الفضاء السياسي الأول والوحيد الذي كان يتناقش فيه المسلمون مجتمعين مشاكلهم . وعلى كل حال ، كانت تلك هي الفكرة التي أرادها النبي للمسجد ولم يفكر بمنزله الا كجزء لايتجزأ منه : «لقد قرر النبي انشاء مسجده حيث تبرك ناقته ، كما يقول لنا ابن سعد . وقد اشترى الأرض بعشرة دنانير . . . وأعطى تعليماته لرفع النخلات التي كانت فيها . . وكان فيها ايضاً قبور جاهلية . . . وأعطى تعليماته بفتحها وطمر العظام على عمق كبير . . . وعكف

---

* من ذلك اذا أردت معرفة تفاصيل عن مفهوم و كلمة و تركيب طقوس الجمعة مع تاريخيتها و شروحاتها اللغوية اقرأ تعليق ابن حجر العسقلاني على كتاب الجمعة من صحيح البخاري الذي يسمى فتح الباري في شرح البخاري ـ مكتبة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ، طبعة اولى ١٩٥٩ جزء ٣ ، صفحات من ٣ ـ ٧٤ .

١١ ـ تاريخ الطبري جزء ١ ص ٢٥٦ .

المسلمون على إنشاء المسجد . . . وقد بنى **النبي** بالتالي ، إلى جنب المسجد ثلاث غرف سقفها من جذوع شجرات النخيل . وعند انجاز البناء ، تزوج **عائشة** وقضى ليلة عرسه في الغرفة التي تطل مباشرة على المسجد . . .»[١٢]. وكان النبي مستعجلاً جداً لتسوية مسألة إقامته ليتفرغ لما هو أساسي ، أي لإدارة شؤون الجماعة بحيث قرر أن يترك الجامع دون سقف . وعندما طلب إليه الصحابة معرفة ما اذا كان ينوي أن يسقفه اجابهم بأن «هناك ماهو أعجل من ذلك»[١٣] .

هكذا بدأ الإسلام تحت علامة من البساطة ، كتجربة جماعة تحت قيادة **نبي** لم يفكر مطلقاً باتخاذ قرار لوحده . وكان يبذل كل عنايته وعلى الدوام ليتناقش مع أصحاب العلاقة ، وكان ذلك في الجامع الذي كان مكانَ العبادة وتنظيم الأعمال العآدية . إن مسجد **النبي محمد** كان في آن معا البرلمان وقصر العدل ، مركز القيادة ، ومركز اتخاذ القرار ، وكانت خطبة الجمعة الفترة التي تجتمع فيها الجماعة للصلاة ، والنساء بينها ، وكانت تُعلَم بآخر الاخبار وتتلقى تعليماتها . «كان يستعمل صوت المؤذن لجمع الناس من أجل الصلاة وايضاً لاعلامهم بحدث ما ، قد حصل ، مثل فتح اقليم جديد أو شأن من الشؤون التي تهمهم . وكانت دعوة المؤذن تستعمل لاجتماع جماعي كما هو بالنسبة للصلاة ، حتى ولو لم يكن ذلك وقت الصلاة»[١٤] . وكانت خطبة الأعياد ايضاً مناسبة للإعلان عن المغازي المتوقعة ، والبرامج الاستراتيجية لأمد قصير نوعاً ما : «عندما كان

---

١٢ ـ طبقات ابن سعد ـ دارالفكر بيروت ١٩٨٠ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، عاش ابن سعد في القرن التاسع ومات في سنة ٢٣٠ هجرية .
١٣ ـ طبقات ابن سعد جزء ١ . ص ٢٤٠ .
١٤ ـ ابن سعد ـ الطبقات ، جزء ١ ص ٢٤٧ .

النبي ينهي صلاة أيام العيد بالتسليم(١٥) ، كان يبقى قائماً ويتوجه نحو الحضور الجالسين ؛ وحين كان يرغب بإرسال بعثة أو عندما كان يريد إيقاف بعض قرارات أخرى ، كان يعطي الأوامر التي تتعلق بها ، وكان من عادته أن يقول : أحسنوا ، أحسنوا ، . . .ثم يذهب»(١٦) . حقيقة كانت الجماعة في بداية الهجرة تنقص قليلاً عن ١٠٠ مؤمن ، فقد «كان يوجد ٤٥ مهاجراً (المكيون الذين هاجروا مع النبي) و ٤٥ من الانصار انصاره الاساسيين في المدينة»(١٧) .

إن فكرة أن يكون المسجد ، الجامع ، هو المكان المميز ، الفضاء الجماعي حيث يتناقش فيه الرئيس مع أعضاء الجماعة كلها ، قبل اتخاذ القرارات ، هي الفكرة القوية لهذا الإسلام الذي يُقدَّم لنا اليوم وكأنه معقل الطغيان . فكل شيء كان يمر عبر المسجد ، الذي هو في آنٍ معاً مدرسة لتعليم المؤمنين الجدد كيف يقيمون الصلاة ، ومما يتكون الإسلام ، وكيف ينبغي أن يكون تصرف وسلوك بعضهم تجاه البعض الآخر في امكنة العبادة وفي كل مكان . هل ينبغي أن يأتي إليه المرء مسلحاً أم أعزلاً من السلاح ، وهل كان يمكن الالتقاء فيه لعقد صفقات البيع والشراء (كان النبي قبل الوحي وأصحابه المكيون يتعاطون التجارة) ، وهل يمكن احتجاز أسرى الحرب في باحة المسجد لتحسن مراقبتهم أم لايجوز ؟(١٨) . تلك كانت

---

١٥ ـ التسليم ـ دعوة للسلام تتكون من عبارة «السلام عليكم» :والتكبير هو القول: الله أكبر . . .

١٦ ـ مسلم ـ فصل حول (الدين) ـ وانظر موسوعة المعارف الاسلامية مادة خطبة) .

١٧ ـ ابن سعد ـ الطبقات جزء ١ ، ص ٢٣٨ .

١٨ ـ إحدى التفصيلات الهامة حول مسجد الرسول هي ما أتى به الإمام النسائي (كتاب المسجد) في السنن ، بشرح وتعليق خبيرين اخرين في الفقه ، السيوطي والامام السندي . ـ المكتبة المصرية بالأزهر ـ طبعة ١ ـ ١٩٣٠ ـ جزء ٢ ، ←

المسائل البسيطة ، اليومية ، العادية فعلاً ، ولكنها تظهر لنا أن المسجد كان شيئاً آخر وليس مكاناً بسيطاً للصلاة . كان فضاءً يسمح فيه للمرء أن يبدي جهله ، ويُشجَّع على طرح المسائل ، أما اليوم فكل النشاطات ممنوعةٌ فيه بشدة . بيد أنه كان على الأخص فضاء يجد فيه الحوار بين الرئيس والشعب مكاناً له . فتقرير شيء على هذه الدرجة من البساطة مثل العمل على انشاء منبر في المسجد ، كان بالنسبة للنبي شأناً يهم كل المسلمين : «كان النبي يقيم صلاة الجمعة واقفاً ، مستنداً على جذع شجرة نخيل . وقد أعلن ، في أحد الايام ، أن البقاء واقفاً يتُعبه . وقد أجابه تميم الداري : لماذا لاننشيء منبراً كما رأيت في الشام ؟ وقد شاور الرسول المسلمين وطلب إبداء رأيهم في المسألة ، وقد وافقوا على هذا الاقتراح[١٩] . فذهب النجار في المدينة وقطع شجرة من الغابة وانشأ منبراً مع مقعد ودرجتين للوصول اليه . وتشير نصوص أخرى إلى أن **النبي** قد نُصح بأن يستوي على المنبر عند الصلاة كي يمكن للجميع رؤيته ، لأن عدد المسلمين قد تضاعف خلال بضعة أشهر ، الأمر الذي يبدو سبباً مقبولاً أكثر من التعب الطبيعي . فلم يكن **للرسول** من العمر سوى خمسة وأربعين سنة في السنة الأولى من الهجرة ، وكان في كامل قوته من حيث العمر ، إذ أنه لم يتوقف عن قيادة الغزوات الأكثر أهمية بنفسه بصفته رئيساً عسكريا ، وحتى الحملة المظفرة لفتح مكة ، مدينته الأصلية ، فقد قادها بنفسه وذلك بعد ثماني سنوات من الهجرة . وقد كانت الغزوات التي قادها **النبي** شخصياً حسب رواية **ابن مسعود** «ستة وعشرين غزوة»[٢٠] . على كل حال ، فإن الاتصال المباشر بين النبي بصفته إماماً يدير الصلاة وأولئك الذين

← ص ٣١ - ٥٩ - مات النسائي في سنة ٣٠٣ هجرية .

١٩ - ابن سعد - الطبقات - جزء ١ ص ٢٥٠ .

٢٠ - مروج الذهب - للمسعودي جزا ص ٢٨٧ .

يأتون لحضورها ، كان يبدو عنصراً هاماً في خطبة الجمعة . «كان من عادة الرسول عندما يصعد المنبر أن يبدأ بالسلام ، وعندما كان يجلس كان المؤذن يُؤَذِّن للصلاة . . وكان يلقي الخطبة في يوم الجمعة مستنداً على عصا . . . وكان الناس في مواجهته ، ووجوههم مرتفعة نحوه ، وكان يصغي اليهم جميعاً وهم يرونه . ومن عادته أن يقيم صلاة الجمعة في الفترة التي تكاد فيه الشمس أن تميل . وكان يضع في هذا اليوم ، بردة على كتفيه ، وهي نسيج عماني . . . ولم يكن يضعها إلّا في صلاة الجمعة والأعياد ، ثم تطوى بعدئذ بعناية تامة»[٢١] .

مع ذلك ، فإن هذا المسجد ، كمكان للعبادة وادارة الشؤون العامة ، ومكان الاتصال المباشر بين النبي (رئيس الدولة وإمام الجماعة) لم يطل عهده .

بعد ثلاثين سنة من وفاة النبي ، حافظ معاوية (٤١هـ/٦٦١م - ٦٠هـ/٦٨٠م) أول خليفة أموي ، والذي استعمل القوة للوصول إلى السلطة ، محطماً بذلك الأصولية التي كانت توجب أن يتم ذلك بالاختيار ، حافظ على سنة النبي من حيث وظيفة المسجد ، ولكنه أدخل تجديداً هاما : هو وجود الحراس . وكما يقول لنا **المسعودي** ، فإن **معاوية** كان يخرج فيقول :

«ياغلام اخرج الكرسي ، فيُخْرج إلى المسجد فيُوضع فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي ويقوم حوله الحراس فيتقدم إليه الضعيف والإعرابي ، الصبي والمرأة ومن لاأحد له فيقول ظلمت ، فيقول : أعزوه ، ويقول عُدي علي ، فيقول : ابعثوا معه ، ويقول : صُنع بي ، فيقول : انظروا في أمره ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول

---

٢١ - طبقات ابن سعد جزء ١ ، ص ٢٥٠ .

، إئذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام . فيقال كيف أصبح امير المؤمنين اطال الله بقاءه ؟ فيقول بنعمة من الله ، فإذا استووا جلوساً قال : ياهؤلاء إنما سميتم اشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائج من لايصل الينا . . .»[٢٢] .

وبعد قرن من الزمن تقوضت نهائيا طقوس صلاة الجمعة ، التي اقامت الاتصال المباشر بين الخليفة والجماعة . وكان **هارون الرشيد** أول من اناط بغيره مهمة القيام بخطبة الجمعة بدلا عنه[٢٣] . وأصبحت الخطبة من شؤون المختصين ، فالخطباء هم الذين كانوا يعظون بخطبة الجمعة باسم الحاكم . ومنذئذ ، سوف يكتفي هذا بتوجيه صلوات الأعياد الكبرى كعيد الأضحى الذي يتضمن طقوس التضحية (بخروف) .

وكما هو الشأن عند كل تغيير عميق في المؤسسات ، فإن تراجع الحاكم عن اللقاء وجها لوجه مع المؤمنين التي يفرضها انتظام خطبة الجمعة ، أوجبته ظروف عديدة . وكان من بين هذه الاسباب التوتر النفسي الذي تفرضه المواجهة على الحاكم . فقد سبق ان سئل الخليفة **عبد الملك بن مروان** لماذا ابيض شعره في حين أنه لايزال شاباً . وقد رد على السؤال **«كيف لا ، وأنا أعرض عقلي في كل جمعة على الناس . . .»[٢٤] وقد كان ذلك واجباً مضنياً ، ويتطلب بلاغة خاصة ، بلاغة الايجاز كما يقول الجاحظ** ملك الفصاحة[٢٥] . لقد كان يجب أن يختصر الحاكم

---

٢٢ ـ المسعودي ـ مروج الذهب جزء ٣ ص ٣٩ .

٢٣ ـ الفرج بعد الشدة ـ للتنوخي ـ أشار إليه آدم ميتز في كتابه الحضارة الاسلامية جزء ٢ ، ص ٩٨ .

٢٤ ـ آدم متيز الحضارة الإسلامية جزء ٢ ـ ٩٧ .

٢٥ ـ البلاغة عند الجاحظ هي «الرد المباشر على السؤال المطروح وذلك بكل دقة» ، البلاغة الايجاز ، «والايجاز ان تجيب فلا تبتعد وان تقول فلا تخطئ» ←

بسرعة زائدة الوقائع الهامة ، وبطريقة منسقة ، ولا سيما بأن يقول هذا بطريقة تعلم الحضور مع الأخذ في الحسبان كل اختلافاتهم ومنازعاتهم .

كان من عادة النبي أن يوجز في خطبه . وكانت خطبه في أيام الجمعة قصيرة جداً . وينبغي القول أنه لم يكن لمواهبه الشخصية مثيلاً : «كان النبي قد أوتي الحكمة والفصاحة ، أي المواءمة ، الرصانة والإيجاز في الكلام موضحاً في الوقت نفسه أفكاراً عديدة ومختلفة ملأى بالمعاني المفيدة . وبالفعل كان كلامه الأجمل والاكثر ايجازاً من انواع الكلم ، لأنه كان يُضمِّن كلمات قليلة افكاراً عديدةوكبيرة» (٢٦) . إن خطب الوزراء والمسؤولين الطويلة ، لاسيما الأحاديث المتلفزة التي لانهاية لها والتي أصبحت معتادة في العديد من البلدان الإسلامية في أيامنا هذه هي بالتأكيد بدع شائنة لامثيل لها في تقاليد الصحابة الأُوَلْ الذين كانوا كالنبي ، رجال عمل جادون كثيراً ، فيستيقظون مع الفجر لتوفيق حياتهم التقية وسلوكهم الحربي ، والذين كانوا يعتقدون أن المؤمنين لايوجد عندهم وقت لاضاعته . وأبو بكر الخليفة الأول الذي تولى السلطة بعد وفاة النبي (١١هـ/٦٣٢م-١٣هـ/٦٣٤م) كان اهتمامه كرئيس دولة يفرض عليه ألا يغرق في خطاباته . وقد نصح أحد قادته الذي أُوكل إليه فتح سورية أن يوجز في كلامه :

«فلا تكثرَنَّ عليهم الكلام ، فإن بعضه ينسي بعضاً . واصلح نفسك يصلح الناس لك . . .»(٢٧) .

كانت خطبة الجمعة تلزم الحاكم إذن بأن ينمي أهليته للاتصال مباشرة

← في البيان والتبيين .

٢٦ - مروج الذهب - للمسعودي جزء ٢ ص ٢٩٩ .

٢٧ - مروج الذهب - للمسعودي جزء ٢ ص ٣٠٩ .

مع الجماعة ، وبأن يُعْلِمَها بسرعة ، وأن يقتصر على الاشياء الاساسية ، وأن يضطلع سياسياً بمسؤولية مايقول . المسؤولية المضنية لرئيس الدولة تأتي من ارتباطه بما يقول أكثر بما اختار أن لا يقوله . وهكذا يمكن فهم لماذا ، أن الحاكم المسلم سرعان مايحاول التحلل من هذا الالزام ، وتجنب معاناة التماس المباشر مع الجماعة . ولكنه ، بفعله هذا سوف يفرغ المسجد من وظيفته السياسية ، من وظيفته كجمعية مؤمنين يجري إعلامهم ويطلب اليهم بالضرورة إبداء رأيهم . وإذا كان النبي ، الرئيس يعيش ويعمل إلى جانب المسجد ، فإن الخلفاء سيمضون ، فيما بعد ، بسرعة للانقطاع عن الجماعة وهجر الجامع ، ووضع الحجب بينهم وبين من يحكمونهم . إن مؤسسة الحجاب أي الستار بمعنى الحاجز الذي يفصل الحاكم عن الناس ويمنعهم من الوصول إليه ، كان قد اعتبره النبي والخلفاء الراشدون الأربعة مخالفة خطيرة لواجبات الرئيس ، ولكنه سرعان ماجرى اعتماده في الممارسة السياسية[٢٨] . وسوف يصاغ اسم الموظف المسؤول عن رقابة الوصول إلى الحاكم من مصدر كلمة الحجاب ذاتها ، حيث سوف يطلق عليه اسم الحاجب بمعنى : الذي يحجب الخليفة . فالحاجب هو الذي يشكل حاجزاً ، انه يستقبل اصحاب طلبات المقابلة بدلاً عن الخليفة ويقرر في آخر المطاف من ينبغي مقابلته ومن يتم صرفه . وقد لاقت مؤسسة

---

٢٨ ـ حول مسألة الحجاب ينبغي التمييز بين نوعين من الحجاب :
أ ـ الحجاب الذي يقيمه الحاكم بينه وبين المحكومين في الحياة العامة ـ انظر في هذا الشأن الجاحظ ـ كتاب الحجاب (رسائل الجاحظ ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٦٤ جزء ٢ ص ٢٥

ب ـ الحجاب الذي يقيمه بينه وبين موظفي بلاطه في حياته الخاصة ، انظر في هذا الموضوع ، نصاً آخر منسوباً للجاحظ وتوجد له ترجمة فرنسية . انه يتعلق بالفصل ٣ المكرس «للسلوك الواجب مراعاته اثناء مسرات الملك» ، كتاب التاج في أخلاق الملوك ، المنسوب للجاحظ و(ترجمة فرنسية) ، باريس ١٩٥٤ ص ٤٩)

الحجاب هذه في بدايتها معارضة شديدة وبخاصة من قبل الأشراف وعلية القوم الذين ساءهم قرار الخليفة باتخاذ الحاجب ، الرجل ، حجاباً بينه وبينهم ، مُحطِّماً بذلك التضامن والمحبة اللتين كانتا تجمعان بينهم سابقاً . وقد كانت رسالة الجاحظ الشهيرة حول الحجاب محاولة لتعداد الاشكالات التي نجمت عندما احتجب الخلفاء عن رؤية الناس لهم والاجتماع بهم(٢٩) . فما أن اعتمد الخليفة مؤسسة الحجاب هذه حتى وجد نفسه أمام مشكلة أخرى أكثر صعوبة من التماس المباشر هي : اختيار الحاجب المثالي . وحسب الخليفة **المهدي** ، زوج **خيزران** ووالد **هارون الرشيد** ، يجب أن لايكون الحاجب جاهلاً ، ولاغبياً ، ولاغافلاً ولاقلقاً ، ولامحتقراً ولامزدريا ، ولاعبوسا . فكم من الحكام وجدوا مثل هذه الجوهرة ؟ الله وحده يعلم .

يمكن اعتبار حجاب الخليفة كحدث مفتاحي دفع بالخلافة إلى الطغيان ، لأنه يشكل انقطاعاً مع السنة النبوية لخطبة الجمعة ، التي كان ينفذها الحاكم شخصياً . قد يكون بمقدورنا تصور اسلام سياسي آخر كان ممكناً اقامته ، شيئاً فشيئاً انطلاقاً من الجامع ؛ اسلام ذو ديمقراطية مسجدية ، وممارسة برلمانية حقيقية بكل ماتحتويه من مداولات حول تضارب الآراء والمصالح . وقد يكون بمقدورنا تصور تحول المسجد ، من مكان للصلاة ، إلى جمعية شعبية مع توسع الأمة وتنامي أعداد المسلمين . وهكذا كان يمكن أن نشاهد ابداع ديمقراطية عملية في الإسلام ، مبنية على جامع معتبر كجمعية محلية ، طالما أن الجامع يوجد في كل مكان توجد فيه جماعة من المسلمين ورئيس لإدارتها . **فالنبي** كان قد أودع كل شيء في مكانه للمضي قدماً في هذا الاتجاه . ولكُنَّا عندئذ أنشأنا البرلمان بدلا من

---

٢٩ ـ الجاحظ ، كتاب الحجاب ـ في رسائل الجاحظ جزء ٢ صفحة ٢٥ ومايليها .

النقاش فيه وكأنه مستورد من الغرب الشيطاني . ولكان الإسلام قد اعطى إلى العالم ، قبل الأمم الاخرى ، هذا المثل الأعلى ، المثل الذي كان النبي وعلى امتداد استراتيجيته يوجهه على أساس : جماعة موجهة من قبل رئيس حَكَمْ ، اللقب الذي أحبه أكثر من غيره والذي كان يتباهى به . بيد ان الامور اخذت مجرى آخر ، ففي الممارسة السياسية ارتبط الإسلام منذ السنة ٤١ هـ ، مع تولي **معاوية** السلطة ، مؤسس أول أسرة حاكمة اسلامية (الأسرة الأموية) ، ارتبط بطريق الطغيان ، ومن ثَمَّ حُوِّل الجامع عن طبيعته بإدخال الحراس إليه .

ما من شيء يوضح بجلاء خيانة النبي ورسالته في هذا الشأن أكثر من الموقف تجاه وصول النساء إلى المساجد . ففي **كتاب الجمعة** للأمام **البخاري**[٣٠] ، الذي كتب بعد قرنين من وفاة **النبي** (مات في السنة ٢٥٦ من الهجرة ، القرن التاسع) ، نجد الحديث الشهير التالي : «لاتمنعوا إماء الله مساجد الله» . وبعد نصف قرن من الزمان لاينسى **الإمام النسائي** الذي ألف سننه في القرن العاشر ، أي بعد ثلاث مئة سنة من وفاة **النبي** ، لاينسى ابداً أن يعطي توجيهات حول طريقة إدارة علاقة الرجال بالنساء أثناء الصلاة ، في الفصل الذي خصصه «للمسجد» وذلك على سبيل المثال فيما يتعلق بصفوف الرجال والنساء ، وكثافتها والمسافة بينهم تجاه بعضهم . وكانت المسألة ، اعترضت ، حسب رأيه ، تنظيم تعايش الجنسين في الجامع وليس لمنع هذا التواجد كما حصل فيما بعد .

ويبدأ **النسائي** بإعلان أن **النبي** قد قال : «**إن اقامة الصلاة في**

---

٣٠ ـ «لاتمنعوا اماء الله مساجد الله» الإمام البخاري ، في النص الذي شرحه ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري في شرح البخاري ـ مطبعة مصطفى الحلبي ـ مصر ـ الطبعة الأولى ١٩٥٩ جزء ٣ ص ٣٤ .

المسجد تعادل ألف صلاة تجري في مكان آخر ، باستثناء الكعبة»[٣١] .

ثم يؤكد على أن أفضل طريقة لمحو ذنوب الإنسان هي الذهاب إلى المسجد . وقد قال **الرسول** : «عندما يترك رجل بيته متجها نحو الجامع ، فالخطوة التي يقدمها تُشكل عملاً جيداً ، والأخرى تمحو سيئة»[٣٢] . ويستخلص من ذلك بالطبع أنه لايحق للرجل منع زوجته من الذهاب إلى الجامع . وقد قال النبي : «اذا طلبت امرأة أحدكم الذهاب إلى المسجد فعليه أن يسمح لها»[٣٣] . وقد حسم مسألة الوصول إلى المسجد متسائلاً : «من هو الذي يمنع الوصول إلى المسجد ؟» ويقول ، إنه حسب توجيه النبي ، لم يمنع أحد من دخول المسجد سوى أولئك الذين أكلوا بصلاً وثوماً . لقد كانت حاسة الشم عند النبي مرهفة جداً ، فكان يحب الطيوب ، ويؤكد على الرعاية الصحية والنظافة وكان يتأذى من القذارة والإهمال . وكان يرى أن في المجيء إلى المسجد بعد تناول الثوم غلاظة لاتحتمل . خاطب **عمر بن الخطاب** الناس مرة فقال : أيها الناس أراكم تأكلون من هاتين النبتتين الخبيثتين الثوم والبصل . لقد رأيت **النبي** صلاة الله وسلامه عليه وهو يطلب من أولئك الذين يحضرون ، ورائحة الثوم والبصل تفوح منهم أن يتركوا الجامع . فمن يريد من بينكم تناول هذه الاشياء فعليه أن يطهيها لكي يخفف من رائحتها[٣٤] .

لم يكن للجنس أي علاقة بمسألة دخول الجامع أو حضور صلاة الجمعة حسب مايرى **النسائي** . والمهم بالنسبة للنساء حسب رأيه أن لاتمييز في هذا الشأن . ويؤلف ابن الجوزي الامام الحنبلي المتوفي سنة ٥٩٧ من

---

٣١ ـ الامام النسائي : «كتاب المسجد» ، في السنن ، جزء ٢ ، ص ٣٢ .
٣٢ ـ المرجع ذاته .
٣٣ ـ المرجع ذاته .
٣٤ ـ الامام النسائي ـ ص ٣٣ .

الهجرة ، القرن الثالث عشر ميلادي ، يؤلف كتاباً حول الأحكام الشرعية التي تحكم شؤون النساء في الإسلام ، ويكرس الفصل ٢٤ منه «لصلاة المرأة في يوم الجمعة» . وقد أكره على الاعتراف بأن للنساء الحق بذلك طالما أن الأحاديث في هذا الشأن ، لايمكن الإحاطة بها . مع ذلك ، اتخذ أربع مبادرات تثير الشك . فهو ، بدئياً ، عندما يعالج مسألة الصفوف يقول : «إن صلاة الرجال الذين يصطفون خلف النساء تبطل»[٣٥] . وعلى ذلك ، غالباً مايحصل أن يأتي الرجال إلى الجامع متأخرين ولذلك قد يصطفون خلف صفوف النساء اللواتي بذلن الجهد في الحضور باكراً . ويمكن تماماً تصور الانزلاق الحتمي : منع وصول النساء إلى الجامع لهذا السبب ، طالما أن مجرد حضور المرأة يخاطر في إثارة مشكلة ، ويضيف من ثَمّ فصلاً آخر يطرح فيه مسألة تشكل بذاتها طعناً بالنصوص القديمة : «هل يسمح للنساء بالذهاب إلى المسجد ؟» وهاهو جوابه : « إذا خافت أن تفتنهم ، فمن الأفضل أن تصلي في بيتها»[٣٦] . وبعد أن قال هذا ، منشئاً بذلك مسؤولية محزنة بالنسبة للمرأة ، يذكر الحديث المبدئي من أحاديث **البخاري** ، حيث يصر **النبي** على واقعة أن مساجد الله لاينبغي أن تحظر على النساء . وينتهي إلى القول «ان صلاة الجمعة ليست فرضاً على المرأة»[٣٧] . وأخيراً يكرس فصلاً كاملاً بعنوان : «في تحذير النساء من الخروج»، حيث يصبح عمل الخروج نفسه عملاً خطيراً وكفراً بالنسبة للمرأة ، ويبدأ هكذا : «ينبغي على المرأة أن تحاول تحاشي الخروج بكل ماتستطيع»[٣٨] .

---

٣٥ ـ ابن الجوزي كتاب أحكام النساء ـ منشورات المكتبة العصريةو بيروت ، ١٩٨١ ص ٢٠١ .

٣٦ ـ المصدر ذاته ص ٢٠٢ .

٣٧ ـ المصدر ذاته ص ٢٠٥ .

٣٨ ـ المصدر ذاته ص ٢٠٩ .

ومن البداهة بمكان أن الوصول إلى الجامع ، في هذه الحالة ، لم يعد جليا تماما . فعادة استبعاد النساء عن الجوامع سرعان ما انتشرت ، لأن ابن بطوطة الذي كان تقريباً معاصراً لماركو بولو ، والذي كان قد سافر باتجاه إيران في بداية القرن الرابع عشر ، كان قد استغرب جداً العدد الكبير للنساء اللواتي كن يذهبن لجامع شيراز وقال : « أهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف ، وخصوصاً نساؤها ، وهن يلبسن الخفاف ويخرجن ملتحفات متبرقعات ، فلا يظهر منهن شيء ، ولهن الصدقات والإيثار . ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم ، فربما اجتمع الألف والألفان ، بأيديهن المراوح يُروِّحن بها على انفسهن من شدة الحر ، ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد »[٣٩] . بيد أنه بقراءتنا لمؤلفات مؤلفين محدثين مثل محمد صديق الغنوجي ، العالم الهندي المعاصر (مات في سنة ١٣٠٨هجرية القرن العشرين ميلادي) نجد تأسيس استبعادٍ حاسم للنساء عن فضاء المسجد . ففي الفصل الذي يحمل عنوان «ماقيل عن أنّ صلاة الجمعة ليست فرضاً على النساء» ، يورد حديثا مشكوكاً فيه يقول : «صلاة الجمعة واجب على كل المسلمين ماعدا أربعة : العبد ، المرأة ، الطفل والمريض»[٤٠] .

وهكذا جرى الابتعاد عن مسجد النبي ، المفتوح للجميع ، والذي كان يستقبل كل من يعنيهم الإسلام ، بما في ذلك النساء . وقد سبق أن جُزِّأ بالحجاب السياسي الذي يخفي الخليفة ويبعده عن المؤمنين ، وسيشهد

٣٩ ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار ـ رحلة ابن بطوطة ص ١٥٥ ـ (وصف شيراز)
٤٠ ـ السيد محمد الصديق حسن خان الغنوجي البخاري «حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة» ـ مؤسسة الرسالة ، ص ٣٤٥ .

الجامع طعناً آخر في المثل الأعلى العام كما جاء به النبي محمد : بالإعلان عن اعتبار النساء أجنبيات عن مكان العبادة ، فالمرأة التي كان لها الامتياز بالوصول إلى الجامع بصفتها صحابية للنبي ، سرعان ما أضحت الكائن الشرير الملوث كما كانت في الجاهلية ، قبل الإسلام . ومن جديد ستنبعث عادة كره النساء من رفاتها ، تلك العادة التي تمتد جذورها إلى مخاوف الجاهليين من النسوية ، وسيتم تجاهل مساعي النبي في طرد تلك المخاوف ، وإلحاحه على ضرورة أن يشارك المسلم زوجته في كل شيء . وتظهر لنا **سيرة النبي** استعداده الدائم لأن يكمل مع نسائه العملين الأكثر أهمية في بداية الإسلام : **الصلاة والحرب** . ولن يكتفوا في تلفيق الأحاديث الكاذبة التي تستبعد النساء من الصلاة ، بل سوف يجري تفصيل مذكرة ، وفق مقياس يبدو فيه ظهور النسوية في المسجد متلازما مع الفوضى والاضطراب . وسوف تشكل **نوار** ، الجارية التي أُكرهت من قبل أحد الطغاة للظهور متنكرة بإمام كي تدير الصلاة ، سيُجعل منها إحدى مباحث التاريخ التي لن تنسى مطلقاً من أن تذكر بها ، والتي مايزال يعاد التذكير بها بأمانة اليوم .

إن ظهور **نوار** ، العبدة المغنية على المحراب قد صدمت الناس ، وذلك لأنها ارسلت لهذه المهمة من قبل خليفةٍ ثَمِلٍ حتى الموت ، **الوليد** الذي ارسلها بدلاً عنه لتؤم المؤمنين في الصلاة[٤١] . **فالوليد بن يزيد بن عبد الملك** ، الخليفة الأموي الحادي عشر الذي حكم في بداية القرن الثاني للهجرة (١٢٥هـ/٧٤٣م - ١٢٦هـ/٧٤٤م) ، وُصف من المؤرخين كافة ،

---

٤١ - **الوليد بن يزيد بن عبد الملك** المعروف باسم **الوليد الثاني** وهو الخليفة الأموي الحادي عشر وقد تولى السلطة في سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣) . وينبغي عدم الخلط بينه وبين **الوليد الأول بن عبد الملك** الخليفة الأموي السادس من هذه الأسرة .

بأنه أكثر الخلفاء فساداً وأنه الاكثر انحلالاً في التاريخ الإسلامي . وحتى **ابن حزم** ، الاندلسي ، المدقق الذي ترك لنا رسالة رائعة عن الحب بعنوان (طوق الحمامة) ، لايخفي كراهيته لشخصيته ويغمره بأوصاف من الشتيمة مثل : الفاسق المنحل . وبصورة ، أفضل يصنفه في قائمة «الخلفاء الذين اشتهروا بشرب الخمر» ، وفي قائمة أولئك الذين اشتهروا بتمرغهم في الذنوب (المجاهرين بالانهماك في المعاصي)[٤٢] .

وسنترك أمر وصف هذا المشهد اللعين لجارية تتنكر في زي إمام ، وهي توجه الخطبة ، سنترك ذلك إلى أحد كبار المؤرخين الإسلاميين المعروفين ، وهو **ابن عساكر** مؤلف **تاريخ دمشق** الذي خص الجارية **نوار** بسيرة من بين ١٩٦ سيرة من كتابه المكرس للنساء : « . .**نوار** جارية **الوليد بن يزيد بن عبد الملك** . لاأعلم لمن كانت . ولا ممن ابتاعها الا أنها قد اخذت بغير شك من كبار المغنين الذين كانوا بحضرته . مثل **معبد وابن عائشة** ، **وحكم** ، ومن هو فوقهم . وكانت حظية عنده وهي التي أمرها أن تصلي بالناس ـ وقد سكر وجاءه المؤذن فآذنه بالصلاة ـ وحلف أن تفعل . فخرجت متلثمة عليها بعض ثيابه فصلت بالناس ورجعت . وكانت لها صنعة صالحة . ورواية كثيرة مع فضل وعقل ولم نعرف لها خبراً

٤٢ ـ ابن حزم «نكات العروس في تاريخ الخلفاء» منشور في مجموعة الرسائل جزء/٢/ انظر على التوالي الصفحة ١٣٤ بعنوان/فاسق/ ؛ وصفحة ٧٢ بالنسبة للخلفاء الذين كانوا يحبون الخمرة ، صفحة ٧٥ بالنسبة للخطاة . وأوصي بهذه الرسالة /نكات العروس/ لكل الناس المستعجلين الذين يريدون الحصول على معلومات بتعبيرات برقية موجزة حول الأسرتين الأموية والعباسية حيث أن ابن حزم قد أدرك أوج الإقتضاب ، وملاءمة التفصيلات التي تقتضي معرفتها لفهم نفسية أمير ما أمثال عيوبه الطبيعية ونقائص خلقه . . . وحول «شناعات» الوليد انظر المسعودي ج٣ ص ٢٢٣ ؛ والطبري جزء (٤) ص ٢٨٨ وجزء ٥ ص ٥ ومايليها .

بعده»[٤٣] . فهذه الحادثة التي ارتبطت فيها إمامة امرأة بخليفة كان تجسيداً للفوضى والشر تردد امرها في كل مكان تقريباً و في كل الأدب التاريخي . ففي كل مرة كان يستدعى فيها يزيد[*] ، كانت نوار تظهر إلى جانبه ، متنكرة بثوب الخلافة ومصلية بالمؤمنين المذهولين . وفي القرن الثالث ، سوف يعيد أبو الحسن المالكي كتابة المشهد ذاكراً نوار بين «تراجم النساء الشهيرات في صدر الإسلام»[٤٤] . وتظل نوار حاضرة بيننا دائماً ، ففي كتابه ، شهيرات النساء في الغرب والشرق ، لم يجد المؤلف عمر رضا كحالة معلومات يضيفها في القرن العشرين ، اللهم سوى مشهد الجامع[٤٥] . ولاتفيد الاضافة هنا إلى أن الوليد كان ينبيء بنهاية أسرته الأموية الحاكمة . وهو سوف يزاح سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م بعد سنة وشهرين من وصوله إلى السلطة . وفي تلك السنة تتابع ثلاثة خلفاء ، وكانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ إلى أن استولى العباسيون على السلطة في سنة ٧٥٠م .

إن وقوف المرأة في المحراب ، مع مايمثله من تصور مأساوي وساخر ، لظهور جاريةٍ متنكرةٍ بزي خليفة ، إنه إذ يشكل نعياً لأول أسرة إسلامية ، فإنه أيضاً يُظهر مكنونات وملاغم الذاكرة الجماعية . كما ويؤكد أن خطبة

---

٤٣ ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر جزء تراجم النساء ص ٤١١ ومايليها والذي حققته سكينة الشهابي .

(*) نعتقد أن خطأ وقع في الاسم فالمقصود كما يشير الحدث هو الوليد وليس يزيد . «الناشر» .

٤٤ ـ أبو الحسن المالكي «الحدائق الغناء في أخبار النساء» تراجم شهيرات النساء في صدر الاسلام ـ الدارالعربية للكتب وقد نشر الكتاب لأول مرة في سنة ١٩٧٨ في ليبيا وتونس . حققه الدكتور العليبي .

٤٥ ـ عمر كحالة ـ «اعلام النساء» ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٢ ومقدمة المؤلف تحمل تاريخ ١٩٥٩ .

الجمعة كمعيار للسيادة بالنسبة للنساء هو الأكثر دلالة . وبرغم المقاومات من كل نوع ، المتراكمة عبر قرون ، والمتجهة إلى اعتبار المؤنث غريباً عن المسجد ، أو معاكساً لنظامه تماماً ، بتضخيمه لمشاهد غريبة وفاضحة ، فإن ذلك كان يشكل قطعاً للاسلام عن ديناميته (حيويته) التاريخية ، بإنزاله إلى هذه المقاومات وإهمال المقاومة المعاكسة . وفي حالة مختصرة كهذه سوف يُنزّل الإسلام إلى اتجاهاته الكارهة للنساء . ليس ذلك لأن الأسياد يقولون للفقراء والعبيد أو النساء ، أنهم ادنى مما يعتقد به هؤلاء ويتوافقون معه . إن فهم دينامية حضارة ما ، هو في آن واحد محاولة فهم رغبات الأسياد (القوانين ، الأفكار الخ) ، ومقاومة أتباعهم المفترض أنهم ضعفاء وبدون دفاع . ينبغي تخليص الإسلام من الرواسم (الكليشات) ، والمضي إلى ماوراء التصورات ، التي اضفت عليها جماعات السلطة صفة المثل العليا ، كما وينبغي تقصي المقاومة المضادة ، ودراسة الحالات الهامشية والاستثنائية . ولفهم تاريخ (النساء) في الإسلام ، وعلى الأخص في الإسلام ، فإنه محكوم عليه كتاريخ الفلاحين أو الفقراء بألاّ يعبر عنه مطلقاً في الخطاب الرسمي . لقد آن الأوان للبدء في عمل تاريخ للمسلمين ، بالذهاب إلى ماوراء إسلام الإمام ـ الخليفة ـ رئيس الجمهورية ، تاريخ القصر وعلمائه ، وبتجاوز إسلام الأسياد ، وبالدخول ـ من أجل هذا العمل ـ إلى مناطق موحلة وقاتمة من الهامشية والاستثنائية ، أي تاريخ التوترات الدينامية ، تاريخ النظام المتعارض ، تاريخ الرفض والمقاومة . تلك هي القراءة التاريخية الوحيدة الجديرة بأن تعطي المسلم من جديد عظمته الانسانية ، بإظهاره لنا ، ليس كمطيع آلي وإنما ككائن مسؤول ، قادر على رفض الطاعة عندما يؤمر بأن يشوه نفسه ، وأن يتخلى عن أهليته في التفكير بحياته .

تلك هي المسائل التي يمكن أن توصل إلى «تاريخ آخر ، يعرض نفسه

في بحثه عن التفسير ، للخطر من جانب المرآة الآخر»[٤٦] .ان الإسلام بحضارته ، ذات الخمسة عشر قرناً ، الذي يضم حياة ملايين الأفراد من جنس ، وطبقة وأثنيات مختلفة ، لايمكن أن يكون سوى تاريخ التعقيدات ، والتوترات وأنواع الرفض . فالقول اليوم ، بأن «الاسلام يحرم على النساء الوصول إلى الميدان السياسي» هو حقيقة مؤكدة . بيد أننا سنتقدم نوعا ما في فهم تاريخنا بقبولنا لها كحقيقة بين حقائق أخر . فيمكن ، حسب المصالح المتعارضة ، اختيار حقيقة تاريخية أخرى ، الحقيقة التي سوف تدرس حالات بعض النساء اللواتي سلكن بقوة الطريق الموصل إلى السلطة السياسية . فبقبولنا أنه يوجد حقائق تاريخية عديدة ، فإنه حسب وجهة نظر هذه الحقيقة التي تدرس تلك الحالات، نكون قد خطونا خطوة كبيرة إلى الأمام . لأن ذلك قبول بأن الإسلام وتاريخه المزعوم ليسا سوى أسلحة سياسية ، الأسلحة الأكثر فاعلية ، الأكثر مضاءً والتي عرضت أمامها اعناق ملايين الكائنات البشرية الحية في ثيوقراطيات ، أي مجتمعات محكومة باسم الله ، حيث لايوجد للجميع الحق نفسه بالتكلم ولا الحكم باسمه .

في هذا السياق ، تكون الرغبة الحالية اليوم في تحجيب النساء ، هي رغبة في تحجيب المقاومات . فالمجازفة من قبل النساء هو ترجيح للمقاومات . وأن تهمل المقاومة ، فستهمل التوترات التي هي محرك الحياة . وللاضطلاع بحاضرها ورؤيتها تظهر مستقبلاً ينبغي أن تتجهز بماض يتحرك ، ماضي كائنات حافظت دائما على مزيتها الانسانية ، من بين مزايا أخرى من بينها مزية معارضة مرامي السيد . ولا بد من مباغتة هذا الماضي . إن دراسة الملكات اللواتي لم يبرزهن التاريخ ، هي غوص في المادة

---

٤٦ ـ جاك لو كوف «الذهنيات: تاريخ غامض» ، صنع التاريخ: الموضوعات الجديدة ، جزء ٣ ـ مجموعة فوليو غاليمار ١٩٧٤ ، ص ١٢٥ .

الحية ، لكنها المضطربة من ثقافتنا . ويبقى علينا الآن أن نحصي كم من النساء يستجيب لمعيار الخطبة ، وسك العملة ، ليتسنى تصنيفهن كرئيسات دولة . إن هذه المسائل يمكن ان تساعد في الوصول إلى تاريخ لايزال مموهاً حتى الآن ، خلف الحجاب ، تاريخ محجوب ومطمور بعناية في الغيب . ولكن هل سبق أن وجد مؤرخون أولوا بعض الاهتمام لهذه المسألة وحاولوا تعدادهن ؟ ؟

المؤرخة التركية بدرية اوجوك آن ، مؤلفة كتاب (النساء الحاكمات في التاريخ[٤٧]) ، حققت وبحثت عن وجود ستة عشرة امرأة حكمن الدول ، وقد رجعت في بحثها إلى أكثر مصادر التراث الإسلامي احتراما . وحسب رأيها فان أولى هؤلاء كانت السلطانة **راضية** من أسرة تركية من المماليك ، التي تولت السلطة في **دلهي** سنة ١٢٣٦م/٦٣٤هـ . ويمكن أن تكون آخرهن **زينة الدين كمالات شاه** ، التي حكمت في **سومطرة** مابين ١٦٨٨ و١٦٩٩ . لكن **بنازير بوتو** سوف تكون إذن السابعة عشرة ، ولكونها آسيوية تبدو متوافقة مع نظرية الدكتورة **أوجوك آن** القائلة : كل هؤلاء النساء الستة عشر ، رئيسات الدولة ، آسيويات ، تركيات ، منغوليات ، إيرانيات ، اندلسيات أو من المنتميات للاسلام في **جزر مالديف** أو جزر هندية أخرى ولم تكن أية واحدة منهن عربية . وكمؤرخة منهجية ، اختارت الدكتورة **بدرية أوجوك آن** معيار الخطبة وسك النقود . «لم تتناول أية امرأة رئيسة دولة إذا لم تكن هذه قد سكت عملة باسمها أو لم يخطب باسمها خطبة الجمعة»[٤٨] . وسوف تتوضح واقعة أن اية صاحبة سيادة ممن

---

٤٧ ـ الدكتورة بدرية اوجوك آن ـ النساء الحاكمات في التاريخ ـ ترجمه إلى العربية إبراهيم داكوكي ، مكتبة السعدون ـ بغداد سنة ١٩٧٣ .

٤٨ ـ المرجع ذاته ٢٥ .

اشارت اليهن ليست عربية ، بواقعة معارضة العرب في وصولهن إلى الحكم، وبحيث لم تتمكن إحداهن من الوصول إلى الحكم إلا مع نهاية سيادة العرب ، أي سقوط الخلافة العباسية . واذا كان صحيحاً ان الملكتين المملوكتين ، **راضية وشجرة الدر** ، قد توصلتا للاستيلاء على السلطة بفضل العبيد ، الذين كانوا يشكلون آنئذ طبقة عسكرية ، فإنه يستحيل أن نستخلص من ذلك وجود ديمقراطية عند **المغول** . فهؤلاء أبادوا الجماهير الانسانية ببساطة محيِّرة ، وكان الاغتصاب وتحويل مدن بكاملها إلى حالة العبودية ، يشكل جزءاً من مشهد يومي هو اجتياح البدو الرحل للمدن . ويجب بأي ثمن تحاشي مقارنة مالا يمكن مقارنته . وأن نسقط على الأحداث التاريخية للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الإسلاميين ، حاجتنا نحن المسلمين لأن نعمل على تقديم مطالبينا بعلاقة ديمقراطية بين حاكمين ومحكومين . وبهذه الذهنية ، ينبغي قراءة الفصول التالية عن النساء اللواتي توصلن إلى العرش ، مع نظرية نقدية ، حيوية ، مداعبة بما يمكن ، ودون مدح أو تبجح ، وبأقل تباكٍ على احلام العظمة . ومع مخاطرتي بتخييب أمل بعض النسويات اللواتي يرون أن يهدهدننا بالأحلام ، بصدد أنظمة الأمومة matriarcats الديمقراطية لفجر الحضارات ، ونماذج النساء القويات جداً اللواتي عشن في ممالك الماضي ، فإنني أستدعي قليلاً من الدعابة وعدم الاحترام تجاه السلطانات .

إن مايعطي القوة ، ليس هم الأسلاف من خارج العامة ، وانما هم الأسلاف الإنسانيون جداً ، الذين توصلوا في ظروف صعبة ، لمعاكسة قاعدة الأسياد ، وإدخال القليل من المسؤولية والحرية . فضلاً عن ذلك فإن تلك النساء كن وصلن إلى العرش في سياقات مختلفة ، ولايعني ذلك أن نرصهن ضمن نموذج وحيد من القوة العليا ، كما هو الحال في المسلسلات الأمريكية . بل على العكس من ذلك ، يجب تحاشي التعميم وترميم

المفارقات ، وإغناء تفكيرنا بأن لانهمل مايسمى التفاصيل .

إن هدف هذا الكتاب عن الملكات المسلمات ليس وصف الجدّات العظيمات بدون أخطاء ، المتمتعات بكل المزايا وبخاصة منهنّ اللواتي لايمكن مجاراتهن في ألاعيب السلطة ، سواء أكان ذلك بعامل السياسة أو الحب . ومهما كان وضعنا الحالي صعباً ، فإنني اعتقد أنه لاحاجة بالمرأة ، لابالأمس ولا اليوم ، أن تكون كاملة ، بهية ورائعة كي تتمتع بكامل حقوقها . إن هذه الفكرة ذاتها هي التي قادت النساء للإعتقاد بانه يجب ان تكون نادرة كي تصبح مساوية للرجل ، ولها الحق بامتيازاته . فسواء أكانت الملكات اللواتي ندرسهن الآن ذوات شخصيات مبتذلة ، طموحة ، أو ماكرة أو ارتكبن اعمالاً خرقاء ، وأسأن تقدير بعض العوامل ، وفشلن في أكثر الأوقات على نحو محزن ، فإن ذلك لاينبغي أن يزعجنا . فواقع المحاولة بأن نجعل من التفاهة أو النواقص ورقة رابحة ، وتحدي المصير والتراتبيات التي تسنده ، هو الذي يشكل عظمة الكائنات البشرية ، فالعادي والإنساني هما اللذان يتحركان عندما تراقب حياة هؤلاء الملكات ، كذلك الأمر في تأمل حياتنا . لقد كنّ هؤلاء الملكات قتاليات دائماً ، ولكنهن نادراً ماكان الانتصار حليفاً لهن .

- ٦ -

السلطانات الخمس عشرة

من هن هؤلاء النسوة اللواتي كان لهن شرف التاريخ ، أي الحق بالعلامات المؤكدة للسلطة : الخطبة وسك النقود ؟ وفي أية ظروف استولين على السلطة ؟ هل كان لهن مواصفات فريدة ؛ جمال مذهل ، فتنة صاعقة ، ذكاء لامثيل له ؟ هل كن أميرات بالدم ، أم نساء من عامة الشعب تسلقن الدرجات المقدسة للوصول إلى القمم المخصصة رسمياً للرجال ؟ هل كن يحلمن بالديمقراطيةأو بسلطة موزعة بعدل بين مختلف أعضاء المجتمع ؟ أم كن وصوليات لايفكرن إلا في مصالحهن الخاصة ؟ نسمع الآن وفي كل مكان تقريباً النظريات النسوية التي تشبه إلى حد التطابق الشعارات الدعائية والتي تؤكد ، لو أن المجتمع حكم من قبل النساء لاختفى العنف عن المسرح السياسي . هل كانت سلطاناتنا الخمس عشرة مُحبّات للسلام (مسالمات) أم دمويات ؟ وأخيراً وليس آخراًهل كن رومانسيات (عاطفيات) ؟ هل وقعن في الحب مثلي ومثلك بحماقة وبشكل مثير للشفقة ، أم كان لهن قلوب فولاذية عديمة الشعور ، باردة ؟

إن أسلم الطرق لتبوّء العرش ولاشك هي بالزواج من رجل يملك عرشاً . وإذا كان على النساء المسلمات «الطبيعيات» ، وفق قانون تعدد

الزوجات أن يرضين بربع زوج ، فإن هؤلاء الملكات ، باستثناء السلطانة **رضية** التي كانت عازبة عندما تبوأت العرش ، كان لهن في المتوسط زوج عند أقدامهن ، وربما زوج آخر بعد موت الأول ، وبعضهن توصلن إلى ثلاثة بسهولة مدهشة . ومهما تكن الواسطة الخفية للجمال أو الزينة أو العطر . فالسلطة السياسية تبدو واسطة إغراء أكثر فعالية لتأمين النجاح العاطفي للمرأة . ولنبدأ بسلطانات المماليك : **رضية وشجرة الدر** .

ـ آ ـ

سلطانات المماليك

رضية وشجرة الدر

غريبة المسارات المتوازية لهاتين السلطانتين ، فكلتاهما تركية ، نقلتا إلى السلطة بحماس من قبل أنصارهما الذين دافعوا عنهما بشجاعة ، ولكنهما انتهيتا بالطريقة نفسها ، إذ هجرتهما جيوشهما وحوربتا وتعرضتا للخيانة ، وأخيراً اغتيلتا بوحشية ، و جزء من هذا كان بسبب حياتهما العاطفية المضطربة .

وقد تزامن عهداهما تقريباً . فتسلمت السلطانة **رضية** السلطة في **دلهي** عام ٦٣٤هـ/١٢٣٦م وتبوأت شجرة الدر عرشّ مصر بعد أربع عشرة سنة أي في عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م . كلتاهما توصلتا إلى السلطة بفضل قوة المماليك العسكرية ، أولئك الأرقاء الأتراك الذين نجحوا في طرد أسيادهم ، واحتلال عروشهم بعد أن خدموا القصور التي جندتهم خلال قرون . لقد أخذت السلطانة رضية العرش عن أبيها السلطان **ايلتوتمش بن غلام خان** ملك دلهي ، أما**شجرة الدر** فدخلت عرش زوجها الملك الصالح

آخر ملوك السلالة الأيوبية ، التي تأسست قبل قرن من الزمن ، من قبل صلاح الدين بن أيوب صلاح الدين الأيوبي المشهور بقاهر الصليبيين الذي حكم بين ٥٦٤هـ/١١٦٩م إلى ٥٨٩هـ/١١٩٣م . وكان أول قرار ملكي للسلطانة رضية هو سك النقود باسمها بالصيغة التالية ، والتي وضعت بشكل واضح وسكت آلاف النماذج منها :

عـمـدة الـنـسـاء
مـلـكـة الـزمـان
السلطانة رضية بنت شمس الدين ايلتوتمش[١]

واختارت لنفسها لقبين ، اللقب الأول «رضية الدنيا والدين» ، وباللعب على معنى كلمة رضية فإنها مشتقة حرفياً من كلمة رضا (التي تعني التبريك) : مباركة من العالم الدنيوي والديني ، واللقب الثاني «بلقيس جهان» باعتبار أن بلقيس هو الاسم العربي لملكة سبأ[٢] ، وجهان لقب النبالة (النبل) . وعلى أحد نقودها التي وصلتنا نقشت الصيغة التالية التي تبين ولاءها للبيت العباسي :

في عهد الامام المستنصر أمير المؤمنين
السلطانة الأعظم جلالة الدنيا والدين
الـمـلـكـة ايـلـتـوتـمـش ابنة السلطان
نـصـيـرة أمـيـر الـمـؤمـنـيـن[٣]

---

(١) «عمدة النساء ، ملكة الزمان ، السلطانة راضية بنت شمس الدين ايلتتمش» ، د . بدرية أوجوك آن ، (النساء الحاكمات في التاريخ) ، ص ٣٣ .

(٢) المرجع ذاته .

(٣) «في عهد الإمام المستنصر أمير المؤمنين ، سلطانة الزمان ، جلالة الدنيا والدين الملكة ، التوتمش ابنة السلطان ، ناصرة أميرة المؤمنين»؛ انظر صورة عن قطعة نقدية في ←

والإمام المستنصر هو الخليفة العباسي السادس والثلاثون ٦٢٣هـ/١٢٢٦م إلى ٦٤٠هـ/١٢٤٢م . وقد كان يحتفظ بسلطة شبه سحرية ، يوزع بموجبها الشرعية الروحية على السلاطين الذين لايستطيعون الحصول بقوة السلاح إلا على السلطة الدنيوية ، ومن هؤلاء كان ايلتوتمش والد السلطانة رضية ، أحد العبيد الأتراك الذي أسّس ، بصفته قائداً حربياً ، دولة الإسلام في الهند في عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩ .

أما شجرة الدر ، فإنها لم تكن تملك أي حق في أن تمنح نفسها أيّ لقب ، وصيغة الدعاء الوحيدة ، التي كان المؤمنون في مصر يرددونها طيلة حكمها واضحة ، ولم تستمر سوى بضعة أشهر ، فقد كانت :

واحفظ اللهم الجهة الصالحة

ملكة المسلمين

نعمة الدنيا والدين

أم خليل المستعصمية

صاحبة السلطان الملك الصالح[٤] .

← نلسون رايت ، كاتالوك النقود في المتحف الهندي كالكوتا ، إكسفورد ١٩٠٧ ج٢ ، ص ٢٦ والتي أشارت اليها الدكتورة بدرية أوجوك آن في كتابها «النساء الحاكمات في التاريخ» . ص ٤

(٤) «واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين ، نعمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة السلطان الملك الصالح .» رويت هذه الصيغة في عدة مصادر وبخاصة:

- السيوطي (جلال الدين) ، المستظرف من أخبار الجواري ، وقد قدم له وعلق عليه الدكتور صلاح الدين المنجد ، دارالكتاب الجديد ، بيروت لبنان ، ١٩٧٦ ص ٢٣ .

- توجد صيغة مختلفة في (الخطط ، مكتبة الثقافة الدينية) للمقريزي ، القاهرة . ط: ١٩٨٧ (مات المقريزي عام ٨٤٨) ج٢ و ص ٢٣٧ .

- عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، دارالنهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ١٥٨ . وفي هذا الكتاب يوجد فرق بسيط على مستوى ←

وبالنسبة لشجرة الدر ، فإن ادخال لقب المستعصمية بين ألقابها إنما هو اعتراف منها بالولاء للخليفة العباسي المستعصم ، الخليفة السابع والثلاثين الذي كان يرفض دعم ملكيتها . إنه إقرار محزن بضعفها ونداء يائس لنيل فضله . إن عدداً كبيراً من المؤرخين يرون في ظهور النساء على المسرح السياسي علامة تنذر باضطرابات مصيرية في العالم الإسلامي . فقد أعلن عهد**شجرة الدر** نهاية **العباسيين** وتدمير **بغداد** من قبل **المغول** (عام ١٢٥٨م) ، وهو الحادث الذي أدى إلى اعادة التوزيع الأساسي لخرائط السلطة في الامبراطورية الإسلامية، وإزالة الارستقراطية المسيطرة ولاسيما الخليفة المستعصم ، الذي كان آخر أسرته ، وإعطاء الفرصة لجيوش الأرقاء المماليك المدافعين عن الله . لقد استولى هؤلاء على السلطة في بلاد عديدة ، واحتفظوا بها لأكثر من قرنين في **مصر وسوريا** . لقد كانوا يستحقون العروش التي استولوا عليها لأنهم كانوا يشكلون جيوشاً مختارة ، فهم وحدهم الذين تصدوا **لجنكيز خان** ، والذين نجحوا في صد هجماته ، وجيوشهم هي التي خاضت المعارك ، أولاً ضد الصليبيين ثم المغول بعد ذلك . إنهم الوحيدون الذين تحدُّوا أبناء **جنكيزخان** وأحفاده ، حين كانت، في كل مكان ، في الشمال كما في الجنوب ، في الشرق كما في الغرب ، تنهار ملوك وعروش وجيوش وقلاع أمام زحفهم .

إن المماليك الذين بيعوا كعبيد عندما كانوا مايزالون صبياناً تربوا في مدارس عسكرية حقيقية ، حيث كانوا يتخرجون محنكين في فنون الحرب، ولايقهرون في ميادين المعارك . ففي القرن الثالث عشر ، في **دلهي** كما في

← المقطع الثاني «نعمة الدنيا والدين» أُبدلت بـ«عصمة الدنيا والدين» .
ـ ياسين الخطيب العمري «الروضة الفيحاء في تواريخ النساء» تحقيق عماد علي عمره ، الدار العالمية ، عام ١٩٨٧ ، ص ٣٨٢ .

القاهرة ، ارتبطت قوة الإسلام وشهرته بالطبقة العسكرية التركية [٥] . ففي **آسيا** كان أبو رضية ، **(إيلتوتمش)** الذي بدأ مهنته كعبد مقاتل في خدمة القادة الذين كانوا يعملون لصالح سلاطين **غزنة** ، قد بدأ باحتلال أراض جديدة لصالح الإسلام . في افريقيا ، لم يفكر مماليك البحرية (ضباط سلاح الهندسة) الذين كانوا يعملون لصالح السلالة الأيوبية ، والذين كانوا يقاومون الصليبيين[٦] بشجاعة ، لم يفكروا بالاستيلاء على السلطة إلا بعد وفاة السلطان **الصالح أيوب** زوج **شجرةالدر** . وكانت هذه تركية مثلهم ، ولم تكن ممارسة السلطة غريبة عليها . وكانت في حياة زوجها تهتم عن قرب بكل مايجري في الدوائر العليا ولاسيما **داخل الجيش** . لقد أدهشت الجيش بالقرارات الأولى التي اتخذتها في الساعات التي تلت موت زوجها ، تلك القرارات التي سمحت لجيوش المماليك إضافة لذلك ، بضمان النصر .

فاوضت **شجرة الدر** أولاً ، قادة الجيش لإبقاء موت زوجها سراً ،

---

(٥) المنصوري ، كتاب التحفة الملكية في الدولة التركية طباعة الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٧ . مات المؤلف في ٧٢٥ هـ (ق١٤) .
ـ أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب في اخبار من ذهب تسمى عموماً «شذرات الذهب» منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، احداث عام ١٢٥٠ ، ج٥ ، ص ، ٢٦٧ ، ومايليها .
(٦) حول المماليك انظر :
ـ مملوك «الموسوعة الاسلامية» .
ـ ستانلي لان بول المطبوعة للمرة الأولى عام ١٨٩٣ ، ترجمت ونشرت بالعربية تحت عنوان طبقات سلاطين الاسلام في عام ١٩٨٢م . الدار العالمية للنشر ص ٧٩ بالنسبة لمماليك مصر ، وص ٢٧٤ بالنسبة لمماليك دلهي .
ـ «تاريخ الدول الاسلامية ومجامع الاسر الحاكمة» للدكتور أحمد السيد سليمان ، دار المعارف مصر ، ١٩٦٩ ، ص ١٦١ بالنسبة لمماليك مصر .

لتفادي أخطار الإضطرابات . ثم خططت معهم العمليات العسكرية لمجابهة الأمور العاجلة : قهر الفرنسيين الذين جاؤوا لمحاصرة **مصر** مع ملكهم **القديس لويس** ، والذين دام حصارهم من سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٩م إلى ٦٤٩هـ/١٢٦٠م . وبعد انتصارهم وغَلْبِهم للصليبيين وأخْذِ ملكهم أسيراً ، حاولت شجرة الدر الالتفات إلى مشاكل خلافة زوجها . كان لزوجها ابن اسمه **توران شاه** ، وكان غائباً عن **القاهرة** عند وفاة الأب . فبدأت بإرسال موفدين لإعلامه بالأحداث في القصر وعلى الجبهة ، وطلبت منه العودة إلى **القاهرة** . وعندما عاد عهدت إليه بالسلطة ولكن **توران شاه** اكتشف أنه لايستطيع إدارة الجيوش . وفقد صحبة الضباط ، ولم ينجح كما كانت الحال مع أبيه في الحصول على احترامهم ، ثم تفاقم الخلاف بين توران شاه الأمير الأيوبي والضباط الأتراك ، فدبروا اغتياله عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م . وبعد هذا الحادث قرر المماليك أن يرفعوا إلى العرش **شجرة الدر** .

ولكن عندما اعتلت عرش القاهرة عانت من معارضة الخليفة العباسي الذي رفض أن يعترف بها ، مما أجبر الجيش على إعادة النظر في قراره وسحب ثقته بها . عندما قرر مماليك البحرية تولي السلطة في مصر و انشاء سلالة لهم عوضاً عن الاستمرار في خدمة الآخرين ، كانوا بحاجة إلى دعم الخليفة العباسي أكثر من أية مجموعة أخرى ، ورغم إعجابهم **بشجرة الدر** فقد اضطروا إلى عزلها بعد بضعة شهور . وكان ذلك تجاهلاً لصلابة جارية استطاعت أن تتسلق درجات الحريم ، وفرضت نفسها كمحظية في قصر الأيوبيين . ومنذ أن علمت باسم القائد الذي اختاره الجيش ليُقَدَّم إلى الخليفة كمرشح لتسلم السلطة في **مصر** ، فكرت بالزواج منه وكان يسمى **عزالدين إيبك التركماني** . كان أقوى قادة المماليك وقد وثق من الجيش ودعم الخليفة العباسي . فتزوجته شجرة الدر وتوصلت مرة أخرى إلى

اجتياز المسرح السياسي الذي يقاومها رغم مواهبها[٧] . أكثر ماكان يشغل بالها تحاشي العودة إلى الظلال الباردة للحريم . ولكي لاتقع مجدداً في مجاهل الساحة النسائية عملت على أن تكون خطبة الجمعة في جميع مساجد القاهرة باسمها واسم زوجها[٨] . سهرت على سك النقود باسمها واسم عزالدين ، وأن لاتخرج أية وثيقة رسمية من القصر دون توقيعهما المشترك[٩] .

عبارة مملوك تأتي في اللغة العربية من فعل مَلَكَ وتعني العبد ، الشيء المملوك . والمماليك عبيد بيض ، بعكس كلمة عبد التي تعني في العربية الرقيق وتنطبق بالعادة على الزنوج . والمماليك أتراك أصلهم من مراعي آسيا، كان تجار الرقيق يقتادونهم ويبيعونهم للسلاطين . وكانوا ، بعد تدريب عسكري معمَّق ، يُعتقون ويُدمجون في الفئات العسكرية التابعة للقصر .

---

(٧) شجرة الدر هي أكثر السلطانات شهرة ، ولم ينسها المؤرخون أبداً . انظر في أكثر المراجع تحت عنوان سيرتها في:
- عمر كحالة (اعلام النساء في العالمين العربي والاسلامي) ، ج٢ ص ٢٦٧ .
- خير الدين الزركلي «الاعلام» ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٨٣ ، ج٤ ، ص ١٤٢ .
- زينب فواز العاملي «الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور» المكتبة الكبرى ، بولاق ، مصر ط :١ ، في ١٩٨٢ . الطبعة المستعملة هي طبعة ١٩٨٥ .
- محمد عبد الله عنان «تراجم اسلامية» دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٧ ، ص ٦١ ،
- علي ابراهيم حسن «لهنَّ في التاريخ الاسلامي نصيب» مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١١٥ .
- ياسين الخطيب العمري «الروضة الفيحاء في تواريخ النساء» ، تحقيق عماد علي سمرة الدار العالمية ، ط١ ، ١٩٨٧ .
- د . بدرية أوجوك آن «النساء الحاكمات في التاريخ» ص ٤٦ .
(٨) بيبرس المنصوري « التحفة الملوكية في الدولة التركية» ص ٢٨ .
(٩) المرجع ذاته .

وقد اشتهرت القاهرة بمدارسها العسكرية المقامة في اثنتي عشر ثكنة داخل القلعة . وكان الضباط يضيفون إلى أسمائهم اسم الثكنة التي تدربوا فيها وحصلوا على شهاداتهم منها . كانوا يتلقون إلى جانب التعليم العسكري (فنون الحرب والفروسية) التعليم الديني المعمق ، المخصص لتطوير التطابق بين النجاح في المهنة والدفاع عن الإسلام .

كان للخصيان دور كبير في تعليم المبتدئين وكانت إحدى مهامهم «منع اللواط باقامتهم بين اليافعين والبالغين»[١٠] . وعندما تنتهي فترة التدريب كان هؤلاء المماليك يُعتقون ويعينون في مراكز هامة في الرتب العسكرية ـ ويقدمون للسلطان في احتفال كان يخصص لدخولهم احدى الطبقات الارستقراطية الأكثر قوة في العالم الإسلامي ، وهي الارستقراطية العسكرية[١١] . وكانت امكانية احتراف مهنة مملوك تعتبر نعمة من السماء بالنسبة للفتى التركي الذي كان يعيش في القفار ذات الحياة القاسية ، والتي كان العوزُ فيها من نصيب الأكثرية الساحقة . وكان هؤلاء الذين ينفردون بالحق في احتراف هذه المهنة يستجيبون لمعايير محددة . كان ينبغي «امتلاك بشرة بيضاء والعيش في المناطق الواقعة شمال وشمال غرب البلاد الإسلامية ، وأن يكون قد ولد وثنياً واقتيد ولداً أو يافعاً ويفضل (من كان في سن البلوغ) وأن يكون قد اشتُريَ ورُبيَ وحُرِّر من العبودية»[١٢] .

والولادة الوثنية هي المعيار الذي كان يحجز عدداً كبيراًمن أولاد مراعي آسيا الذين أسلم أهلهم . وكان هؤلاء الأهل يلجؤون إلى الخداع والغش لاخفاء هذا الأمر على اعتبار أن المسلم مبدئياً لايمكن إحالته إلى

(١٠) الموسوعة الاسلامية «مملوك» ؛ انظر كذلك المقريزي «الخطط» ج ٢

(١١) الموسوعة الاسلامية «مملوك» .

(١٢) المرجع ذاته .

العبودية[١٣] . **فالاسلام** الذي كان يشدد على مساواة الجميع أمام **الله** ، قبله الأرقاء الأتراك وطبقوه بالحرفية ، وكانوا يدافعون عنه تجاه أعدائهم بمن فيهم الصليبيين **والمغول** ؛ وهم يتربعون بارتياح على العروش ، ويمنحون أنفسهم كل الألقاب المخصصة للكبار ولذوي القوة والنفوذ . وحالة الجنرال **عزالدين ايبك** الزوج الثاني **لشجرة الدر** ، الضابط المملوكي الذي أعلنه جيش مصر سلطاناً ، توضح هذه الثورة السياسية التي هزت لحدٍّ ما ، القصور والامبراطورية . وعلى خطا جيش المماليك في **الهند** ، احتلت **رضية** السلطة في **دلهي** قبل بضعة عقود .

تسلقت **رضية** درجات السلطة في ظروف مختلفة . فهي على العكس من **شجرة الدر** ، لم تكن جارية بل ابنة سلطان . فأبوها كان قد جاء إلى الهند كرقيق ، وجاء ارتقاؤه من هذا الوضع إلى رتبة سلطان ليشكل خير دعاية للإسلام في الهند ، التي كانت تعيش في نظام طبقي قاسٍ . وقد حطم الإسلام الطبقات وهز الأسياد ، وسمح للأرقاء إذا كانوا من ذوي الكفاءة أن يأخذوا مكان أولئك الذين يحكمونهم . وحين قام قطب الدين **إيبك** ، أحد سلاطين غزنة بارسال أحد قادته الأرقاء **ايلتوتمش** على وجه السرعة إلى **دلهي** ، وضع هذا كل حماسه واندفاعه لرفع راية الإسلام على الأراضي الهندية . وقد نجح بسرعة لدرجة جعلت السلطان **قطب الدين إيبك** يُعجب بشجاعته ، ويُزوجه ابنته . وعند وفاة إيبك في عام ٦٠٧هـ/١٢١١م احتل **ايلتوتمش** السلطة وأعلن استقلاليته عن أسياد **غزنة** ، واحتل اسمه في التاريخ كأحد أعظم الملوك الأرقاء مؤسسي السلطة الإسلامية في **الهند**[١٤] . **والمشكلة التي كانت تبرز بعد الحصول على**

---

(١٣) المرجع ذاته .

(١٤) محمد يوسف النجرمي «العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة ←

السلطة الدنيوية هي الشرعية . وكان للديمقراطية الإسلامية حدودها . فكل عبد كان عليه مع ذلك لكي يصبح سلطاناً أن يؤمن تحريره من إرادة سيده[١٥] . وهذا ماطلبه علماء دلهي من ايلتوتمش . ويشرح لنا ابن بطوطة المشهد الذي قدم لهم فيه بعد موت سيده ، وثيقة تحريره التي بدونها لم يكن باستطاعته شرعياً أن يحصل على السلطة : «وذهب الفقهاء لمقابلته وكان على رأسهم القاضي الكبير آنئذ وجيه الدين الساساني . ودخلوا إلى القاعة التي كان يجلس فيها وجلسوا أمامه . أما القاضي فقد جلس إلى جانبه حسب الأعراف وكان السلطان على علم بما يرغبون التحدث إليه فرفع زاوية من السجادة التي كان متربعاً عليها وقدم لهم القرار الذي يثبت تحرره . فقرأ القاضي والفقهاء القرار وقدموا له جميعاً قسم الطاعة . وهكذا أصبح الحاكم المطلق ودام عهده عشرين سنة»[١٦] . يمكننا تصور تأثير هذا المشهد على عامة الناس في دلهي وكل المواطنين الصغار من الطبقات الدنيا . والاختبار الذي بقي على ايلتوتمش اجتيازه هو موافقة الخليفة العباسي في بغداد ، ولم يكن هذا صعباً طالما أن المماليك من الطائفة السنية . ففي عام ١٢٢٩/٦٢٦ ـ أرسل إيلتوتمش طلباً رسمياً إلى خليفة بغداد المستنصر للاعتراف به . وقد أجاب هذا بسرعة فأرسل وفداً استقبل استقبالاً رائعاً في دلهي وكرسه رسمياً سلطاناً للهند . فسك ايلتوتمش النقود معترفاً ومبيناً ولاءه للخليفة السني في بغداد بالصيغة التالية : «ناصر

← العباسية ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٢٢ ومايليها . انظر كذلك سيرة ايلتوتمش في الموسوعة الإسلامية .

(١٥) لقد رأينا أنه ، عند مماليك بحرية مصر ، الذين كانوا منظمين في طبقة عسكرية بمدارسهم ، وشعائرهم ورموزهم ، كان التحرر (العتق) يتم اوتماتيكياً في نهاية التدريب . وكان (العتق) يتبع ـ ظاهرياً ـ أعراف أخرى عند مماليك البلدان الأخرى .

(١٦) ابن بطوطة (الرحلة) ج٢ ، ص ٣٦٨ .

أمير المؤمنين» . وعرّضه هذا الولاء لمحاولة اغتيال من قبل طائفة شيعية كانت نشطة في **الهند** ، وشهيرة في نشر الاضطرابات ، هي طائفة الاسماعيليين . حاولت هذه الطائفة قتل **ايلتوتمش** عندما كان يؤم الصلاة في المسجد ولكنهم أخفقوا في ضربتهم . لكن ايلتوتمش الذي أصبح أكثر تعصباً لسنيته غزا أراضٍ وأحاط نفسه بالفقهاء والعلماء ومات في أوج نصره في دلهي من مرض تافه في عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م ، بعد حكم دام ستاً وعشرين سنة[١٧] . وقد سمّى ابنته الأميرة **رضية** وريثة عرشه بالرغم من أنه كان له ثلاثة أولاد . وواقعة أن أولاد إيلتوتمش لم يكونوا من أم واحدة جاءت لتعقد أمر الخلافة بالعداوة القائمة بين الأخت وأخويها من أبيها ، والتي غذتها وعمقتها مؤامرات الأمهات من داخل الحريم . فأحد الأخوة واسمه**ركن الدين** لم يكن مسروراً من مبادرة أبيه بتسمية رضية أميرة وولية للعهد و كان يطمح للسلطة . وجه **لرضية** ولأخيه من أبيه حقداً انفجر في وضح النهار بعد وفاة أبيه . ودفعه هذا الحقد إلى محاربة الأولى وقتل الثاني .

لم يكن لدى إيلتوتمش العبد الذي رُفع إلى أعلى الرتب بفضل كفآته الشخصية أي تعقيد إزاء الاعتراف بقيمة المرأة . فالكفآة والعدالة بالنسبة إليه تسيران جنباً إلى جنب . وهنا يكمن أساس فهمه للإسلام ، وبما أنه كان كثير الورع ، فكل ماتبقى ، بما في ذلك اختلاف الجنس ، يظل ثانوياً . ومقارنة بضعف خلق **ركن الدين** فإن مواهب **رضية** تؤهلها لتكون خلفاً بديهياً لأبيها . وعندما ضُغط على **إيلتوتمش** من قبل امراء حاشيته لشرح اختياره الذي رأوه مدهشاً ومفاجئاً ، أجاب جواباً مذهلاً ببساطته : «أولادي غير قادرين على إدارة شؤون البلاد وابنتي رضية هي الجديرة في أن

(١٧) المرجع ذاته .

تحكم بعدي»[١٨] .

مع ذلك ، حاول الأمراء والوزراء ، بعد موت **إيلتوتمش** ، ابعاد رضية لمصلحة أخيها **ركن الدين** . وكانت أول إشارة للسلطة من قِبل هذا هي تصفيته الأخ الآخر **لرضية** معتقداً أنه بذلك يرهبها ويبعدها إلى ركن الحريم المهمل . ولكنه ابتلي بمفاجأة كبيرة : **رضية** لم تذهب لتختبئ في حجابها ، ليس هذا فحسب بل استردت السلطة بمناشدة شعب **دلهي** مباشرة ، واستغلت لحسابها المؤسسة التي أنشأها أبوها لمكافحة الظلم : إذ أن أباها **إيلتوتمش** كان قد «أمر بأن يرتدي كل من لديه ظلامة ثياباً ملونة ـ بينما كان جميع سكان الهند يلبسون الثياب البيضاء عادة ـ وكان إذا رأى أحداً يلبس ثياباً ملونة ، سواء أكان يجتمع إلى رعاياه أو يتنزه على جواده ، كان يستدعيه ويدرس ظلامته ويحكم له بالعدل تجاه غريمه»[١٩] . وللإسراع في عملية العدالة ولكي يسمح للمضطهد أن يطلب المساعدة ، قرر وضع جرس : «بنى على باب قصره أسدين من الرخام ووضعهما على برجين كانا في هذا المكان ، وكان في رقبة كل أسد سلسلة من الحديد يتدلى منها جرس ضخم . فكان الانسان المضطهد يأتي ويهز الجرس ، فيسمع السلطان الصوت فيقوم ويدير الموضوع فوراً ويرضي الشاكي»[٢٠] . ولم تجد **رضية** أجدى من أن تلجأ إلى المنهج الذي أنشأه أبوها والذي كان معروفاً من الشعب . لذا قررت أن تلبس ثوب ضحايا الظلم الملونة وأن تذهب إلى الشعب وتعرض عليه آلامها وأن تطلب مساعدته لتنتقم لموت أخيها من أبيها ، وأن يطرد **ركن الدين** من العرش ، والذي كان يتهددها

(١٨) محمد يوسف النجرمي «العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية . دارالفكر بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٢٥ .

(١٩) ابن بطوطة (الرحلة) ج٢ ص ٣٦٨ .

(٢٠) المرجع ذاته ص ٣٢٢ .

بتصفيتها بدورها . انتظرت يوم الجمعة واجتماع المؤمنين في المسجد لتنفيذ مخططها لأنه كان من الضروري تأمين الدعاية اللازمة لتصرفها . وعندما خرج **ركن الدين** إلى المسجد المجاور حيث تُلقى خطبة الجمعة ، صعدت رضية إلى الشرفة لابسة ثوب التظلم وأخذت في الكلام : « . . إن أخي قتل أخاه ويريد أيضاً أن يقتلني ، ثم استعادت عهد والدها والحسنات التي أغدقها على الشعب، وهنا تحرك الحضور نحو السلطان **ركن الدين** الذي كان آنئذ في المسجد وأمسكوا به ، وقادوه إلى **رضية** التي قالت : القاتل يُقتل . وهكذا قتل **ركن الدين** كعقاب على قتل أخيه ، ثم اتفق الشعب على الاعتراف **برضية** كملكة لهم»[٢١] .

يقول لنا **ابن بطوطة** (في رحلاته) ، وهو واحد من أقدم المراجع الخاصة بها : «إن الملكة **رضية** بعد أن تسلمت السلطة ، كانت أول بادرة منها هي رفع الحجاب عن وجهها ، وقد حكمت حكماً مطلقاً خلال أربع سنوات . وكانت تمتطي الحصان على طريقة الرجال مسلحة بقوس وجعبة ومحاطة بحاشيتها ولم تكن لتحجب وجهها»[٢٢] . ومصادر أخرى تقول إنها «قصت شعرها ولبست لباس الرجال ، وهكذا ارتقت إلى العرش»[٢٣] . يقول هؤلاء أيضاً ، إنها قررت أن تلبس ثياب الرجال ، ليس فقط لتوجيه الحملات العسكرية بل لتحافظ على اتصالها مع الشعب : «كانت تتنزه في الأسواق بلباس الرجال وتجلس بينهم لتستمع إلى شكاويهم»[٢٤] . وعلى كل حال فقد وفَّت رضية بكل مهامها وأجمع

---

(٢١) المرجع ذاته ص ٣٧٠ . ج٢ .
(٢٢) ابن بطوطة ج٢ ص ٣٧٠ .
(٢٣) د . بدرية أوجوك آن (النساء الحاكمات في التاريخ) ص ٣٦ .
(٢٤) محمد يوسف النجرمي (العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية) ص ١٢٥ .

المؤرخون على أنها كانت إدارية جيدة ، ويؤخذ عليها شيء واحد فقط : وقوعها في حب شخص كان دونها طبقة . قصة الحب هذه ستعجل في سقوطها ولكن بقفزات غير متوقعة كما في الأفلام الهندية .

كانت رضية الملكة العازبة تقدر كثيراً ميزات أحد مسؤولي الإصطبلات واسمه **جمال الدين ياقوت** وهو عبد حبشي ، وقد منحته ترقية أسرع من ترقيات القادة الآخرين ، وهكذا بدأ هؤلاء في الارتياب في أنها مغرمة به . وكان لقب ياقوت «أمير الخيل» وبسرعة سمَّته **رضية** «أمير الأمراء» ، ولم يكن العديد من هؤلاء معجبين بهذا التغيير في ألقاب أولئك الذين كانت تديرهم الأميرة وتبديل الأمراء بالخيول . وبدأ الأمراء الغاضبون في التجسس عليها حتى يتفهموا أسباب هذه الترقية السريعة جداً . وقد أدركوا أنها كثيراً ماتستأنس برفقة **جمال الدين** ، وأنها كانت تعفيه من بعض المهام التي كان يفترض أن يقوم بها[٢٥] . والأسوأ من ذلك أنهم بدأوا في مراقبة أدق حركات السلطانة وفارسها لدرجة أنه في أحد الأيام لاحظوا أنها عندما كانت تهم في امتطاء الحصان قام بحركة ، بشكل عادي رغم غرابتها : «فكان يدلج يديه تحت إبطيها ليرفعها على مطيتها»[٢٦] . فانتشرت الاشاعات في المدينة بأن «عمدة النساء **وملكة الزمان» السلطانة رضية** انتهكت حرمة الأخلاق وسمحت لعبدها بأن يمسها . وهكذا وصل أعداؤها إلى هدفهم : «والشعب الذي ارتاب في أن لها علاقة مع أحد عبيدها ، الحبشي المولد قرر تنحيتها وتزويجها»[٢٧] .

---

(٢٥) سيرة راضية ، عمر كحالة «أعلام النساء» ج١ ، ص ٤٤٨ ؛ محمد يوسف النجرمي مرجع سابق ص ١٢٥ .

(٢٦) سيرة راضية في أعلام النساء ، عمر كحالة ص ٤٥٠ .

(٢٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٣٧٠ ج٢ .

بالرغم من انتشار الإسلام في الهند فقد استعاد نظام الطبقات سلطته . فتحالفت السلطات الدينية والأمراء ضدها ، وجندوا جيشاً وعلى رأسه الحاكم **اختيار الدين التونيا** ، وخوفاً من الحصار غادرت **رضية دلهي** مع جيشها لتحارب التونيا ، ولكنها خسرت المعركة وأصبحت أسيرته ، ولكن الوضع انقلب فجأة : إذ أن سجّان التونيا وقع في حب **رضية** أسيرته فأفرج عنها وتزوجها ، وعاد معها بجيش كبير لإعادة احتلال دلهي واستعادة عرش حبيبته[٢٨] . ولكن النحس كان قد استأثر **برضية** ، فخسرت المعركة هي وزوجها وانهزم جيشهما ، وهربت . ويشرح لنا ابن بطوطة (في رحلاته) نهاية **رضية** ، نهاية نجدها في عدد كبير من **قصص ألف ليلة وليلة** :

«فقد هربت ولكن فوجئت بالجوع وأرهقها التعب ، وأخيراً اتجهت إلى فلاح كان مشغولاً في حراثة أرضه وطلبت منه شيئاً تأكله ، فأعطاها قطعة من الخبز التهمتها ثم غلبها النوم . وكانت رضية تلبس ثياب الرجال فعندما نامت راقبها الفلاح ووجد تحت ثيابها قميصاً مطرزاً بالذهب واللآلئ ووجد أنها امرأة ، فقتلها وسلبها ثيابها وطرد حصانها ودفنها في الحقول التي يملكها ، ثم أخذ جزءاً من ثياب الأميرة وذهب إلى السوق لبيعها . ولكن التجار شكوا في أمره وقادوه إلى قيادة الشرطة التي عاقبته بالضرب بالسياط . واعترف المسكين بأنه قتل **رضية** وأرشد حراسه إلى المكان الذي دفنها فيه . فرفعوا الجثة من الأرض وغسلوها وكفنوها ووضعوها في المكان نفسه . وبنوا مُصلّى جنائزي عليها ؟»[٢٩] ويختتم ابن بطوطة قوله أنه عندما مرّ في القرن الرابع عشر كان الشعب قد جعل منها قديسة : «يزار

(٢٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٤٢٣ .
(٢٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٤٢٣ .

قبرها حالياً من قبل الحجاج وينظر إليه كمكان مقدس ، ويقع على ضفاف نهر كبير يسمى (جون) على مسيرة قصيرة من مدينة **دلهي**»[٣٠] . والنهاية المأساوية **لرضية** كانت تشير إلى نهاية ملكة المماليك التي تتبع خطاها بعد عقد من الزمن .

كان لشجرة الدر نهاية مأساوية ، ولكنها أقل براءة بكثير . فشهوة الحب جعلتها غيورة إلى درجة جعلت منها قاتلة . فالحب والزواج الأحادي بالنسبة لها متكافئان يسيران جنباً إلى جنب . ولم يكن هذا واضحاً بالنسبة لزوجها الثاني **عز الدين ايبك** رجل الجيش القوي . وبتزوجه لها أعطته عملياً مملكة . طلَّق **عز الدين** زوجته الأولى **أم علي**[٣١] . أما زواجه **بشجرة الدُّر** فلم يكن مجرد عقد سياسي بل كان هناك شيء آخر . والشيء الآخر هذا كان يسمى الحب . والحب بالنسبة **لشجرة الدر** كان يفترض فيه الاخلاص . الاخلاص الذي فرضته على زوجها الأول **الملك الصالح نجم الدين أيوب** عندما أصبحت المحظية لديه . كانت شجرة الدر ذات جمال منقطع النظير ، وذكاء عظيم وكان لها دماغ تستعمله بعمق لمعرفة أمور المملكة[٣٢] . كانت تقرأ كثيراً وبالقدر نفسه كانت تحب الكتابة[٣٣] . وكم كانت دهشتها كبيرة عندما علمت أن زوجها الجديد ، المملوكي الأصل ، العبد التركي مثلها ، ينوي الزواج ثانية بابنة ملك هو اتابك الموصل **بدر الدين لولو** . فجن جنونها من الغيرة والشعور بالاهانة ، وفكرت بالقتل ، وأعدت مسرحية نادرة الوجود . اختارت فترة السرور

---

(٣٠) المرجع ذاته .

(٣١) الزركلي «أعلام» ج ٤ ص ١٤٢ .

(٣٢) جميع السير المذكورة تقع حول مواهبها الجسدية والعقلية . والاستشهاد للزركلي في المرجع نفسه .

(٣٣) المرجع ذاته .

والانشراح وهي فترة الحمَّام . ففي ١٢ نيسان ١٢٥٧م (٢٣ ربيع الأول ٦٥٥هـ) ، «عندما دخل **عز الدين ايبك** الحمام كانت شجرة الدر قد أعدت كل شيء وأصدرت تعليماتها إلى جواريها وخدمها فأحاطوا به وقتلوه داخل الحمام»(٣٤) . وضع مقتل **إيبك** الجيش في حالة هياج . وبالرغم من أن قسماً من الجيش بقي إلى جانب **شجرة الدر** ، فقد انتقلت هذه إلى البرج الأحمر واغتيلت هناك في العام نفسه . وألقيت جثتها ، ونصفها عارٍ ، من أعلى شاطئ صخري . وبقيت معروضة «عدة أيام قبل أن تدفن»(٣٥) . وبالامكان زيارة قبر **شجرة الدر** في **القاهرة** ، إذ أنها دفنت في باحة مدرسة كانت قد بنتها وتعرف الآن باسم جامع **شجرة الدر** . والزائر الذي لديه قليل من الوقت يستطيع حل رموز قبة الجامع ، وقراءة الكتابة المنقوشة عليها ، التي تذكر بعهدها وعظمتها ، حيث توجد الصيغة التي طالما حُفظت عن ظهر قلب وهي : «عصمة الدنيا والدين»(٣٦) .

هكذا انتهت المهنة السياسية لشجرة الدر ، هذه المرأة التي نجحت في تقاسم السلطة مع أول زوج ارستقراطي ، وأن تحكم رسمياً ثمانين يوماً بدون تفويض من الخليفة وبدون زوج ، ثم في النهاية توصلت إلى أن توفق بين الحب والسلطة مع رجل من طبقتها ومن عرقها ، الذي تقاسم معها صلاة الجمعة وإدارة المملكة قبل أن تستسلم لشيطان الغيرة . فالسعادة والحكم اللذان تقاسمتهما **شجرة الدر وعز الدين إيبك** داما سبعة أعوام ، ولولا قرار الأخير بالزواج ثانية لأمكن أن يدوم مدة أطول(٣٧) . ويذكرنا هذا بين أشياء أخرى ، بالعلاقة بين الاستبداد وتعدد الزوجات ، وأنه عندما

(٣٤) ياسين الخطيب العمري «الروضة الفيحاء في تواريخ النساء» ص ٣٨٧ .
(٣٥) المقريزي (تراجم اسلامية) ص ٩٢ .
(٣٦) المرجع ذاته .
(٣٧) المقريزي ، مرجع سابق ص ٢٣٨ .

تتبوأ العرش امرأة ، فضلاً عن كونها جارية ، يُمزق الحجاب ويتكشف الخفي ؛ ويبدو أن التوزيع العادل للسلطة بين رجل وامرأة يتطلب من الرجل بالضرورة أن يكون أحادي الزوجة كقاعدة للعبة الحب . وقد حاولوا عبثاً الفصل بينهما ولكن يبدو أن السلوك السياسي وسلوك الحب يقتبسان مبادئهما من المصادر نفسها .

ـ ب ـ

الملكات المنغوليات (الخواتين)

كما تبين جيداً المؤرخة التركية المنغولية الدكتورة بدرية اوجك اون Dr. Badriye Ucok Un فإننا نشاهد تزايداً مدهشاً في عدد النساء اللواتي اعتلين عروش الدول الإسلامية بعد الغزو المنغولي ، مع امتيازات الخطبة وسك النقود . وفي معظم الحالات تقريباً كان ذلك بمباركة الأسياد الجدد وهم الأمراء المنغول . والحقيقة أن لدى هؤلاء الأمراء مشاكل أقل بكثير مما لدى الخلفاء العباسيين في أن يعهد إلى النساء بادارة شؤون الدول . في البداية كانت ملكتان من سلالة كوتلوغ خانيد Kutlugh Khanides ، الملكة **كوتلوغ خاتون** ، وتسمى أيضاً في بعض الوثائق **تركان خاتون** وابنتها **باديشاه خاتون** ، ونجدها أحياناً تحت اسم **صفوة الدين خاتون**(٣٨) . **حكمت سلالة كوتلوغ خانيد** بين القرن الثالث عشر والرابع عشر **كرمان** وهي مقاطعة فارسية تقع في الجنوب الغربي من الصحراء الوسطى الكبيرة (داز ايلوت)(٣٩) Das. I. Lut . وعندما احتل

(٣٨) بما أننا نجد في ذلك العصر كثيراً من النساء على المسرح السياسي ممن تسمين بـ توركان خاتون ، وتجنباً للإشكال ، سنلجأ إلى تسمية كتلوغ خاتون .

(٣٩) انظر «كرمان» في الموسوعة الاسلامية .

المنغول كرمان وأنهوا حكم السلاجقة ، أعيدت السلطة إلى باراك حاجيب من قبل هولاكو ، العاهل المنغولي خليفة **جنكيز خان** ووريث امبراطوريته الذي حصل بالقسمة ، على بلاد **فارس** وبلاد **مابين النهرين** وكذلك **سوريا ومصر** نظرياً . وإن سَهُل احتلال بغداد ، فإن البلدين الآخرين (سوريا ومصر) صمدتا بفضل دفاع المماليك الشجاع عنهما . والهزيمة التي مُنيت بها جيوش **هولاكو** في معركة **عين جالوت** في عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، انهت تقدم المنغول في الأراض السورية وثبتت نهائياً الحدود بين القوتين .

أضحت الخلافة القديمة في بغداد بعد ذلك ترتبط بالسلالة التي أنشأها هولاكو والتي تحمل اسم **الخان** . وبدأ عدد كبير من الرؤساء العسكريين المحليين الاستفادة من الغزو المنغولي لترسيخ سلطانهم . **وباراك حاجيب** كان واحداً من هؤلاء . وأصبح هكذا الرئيس المؤكد لمقاطعة **كرمان** . وبمقابل مساعدته العسكرية لأهدافهم في المنطقة طالب بلقب ، فأعطاه المنغول لقب **كوتلوغ خان** Kutlugh khan . وبدأ يدفع جزية سنوية لهم . وبعد أن ثبت سلطته العسكرية في عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م ، تزود بألقاب أخرى كان بحاجة إليها . فأعطاه **خليفة بغداد** لقب سلطان رغم أن اعتناقه للاسلام كان متأخراً ورغم أنه أمضى قسطاً كبيراً من حياته وثنياً(٤٠) . وقد أوصى **بارك حاجيب** لورثته عشية وفاته بعددٍ مذهلٍ من الألقاب وهي مزيج ذو مغزى ، من العربية والمنغولية : **ناصر الدنيا والدين - كوتلوغ سلطان** . . الخ وستتوطد العلاقات بين **كوتلوغ خان** و **المنغول** بالزيارات المتكررة لأمراء كرمان وبالزيجات . فقد كان **لباراك حاجيب** ابن اسمه **ركن الدين** وأربع بنات . واحدة منهن واسمها **كوتلوغ تركان**

---

(٤٠) انظر «كتلوغ خانيد» في الموسوعة الاسلامية .

تزوجت ابن عمها قطب الدين . وبعد وفاة باراك في عام ١٢٣٤/٦٣٢ تقلد السلطة ابنه أولاً ثم ابن عمه **قطب الدين** زوج **تركان** ـ الذي تبوأ العرش في عام ١٢٥٢/٦٥٠ . وعند وفاة قطب الدين عام ١٢٥٧/٦٥٥ كان ابنه **خدجاج** مايزال حدثاً ، فطلب أعيان كرمان من البلاط المغولي بأن يعهد بالحكومة إلى أرملته **كوتلوغ خاتون** التي حكمت البلاد لمدة ست وعشرين سنة حتى عام ١٢٨٢/٦٨١[٤١] . وقد عرفت كيف تحظى برعاية البلاط المغولي بارسالها ابنها **خدجاج** ليحارب في جيش **هولاكو** ، وبتزويج ابنتها **باديشاه خاتون** إلى **أبكاخان** ابن **هولاكو** . وكان هذا الزواج مستغرباً استغراباً مزدوجاً لأن الزوجة مسلمة والزوج بوذي . وكذلك لأن باديشاه خاتون تربت كصبي بين الصبيان تماماً ليخدعوا **المغول** الذين كانوا يخضعون أميرات مستعمراتهم) للزواج الاجباري[٤٢] . ويبدو أن سلالة **كوتلوغ خان** لم يكن لديها أية رغبة بالارتباط بالزواج مع بلاط **هولاكو** ولكن الوصولية السياسية تقرر عكس ذلك . وبعد أن ثبت **هولاكو** لقب **كوتلوغ توركان** بعد سبع سنوات في عام ١٢٦٤/٦٦٢ حملت اللقب التالي : **عصمة الدنيا والدين** وأصبح لها الحق بالخطبة في المساجد[٤٣] .

كانت سلطة **تركان** في أوجها عندما ظهر في الأفق ، كالعادة ، مطالب بالعرش ومنعها من أن تستمتع بنصرها . والمقصود أحد أولاد زوجها السابق المسمى **سيورغ تاميش** Suyurghtamish ، ولم يألف هذا

---

(٤١) المصدر ذاته .
(٤٢) الموسوعة الاسلامية انظر «الخان» .
(٤٣) د . بدرية أوجوك آن «النساء الحاكمات في التاريخ» ص ٨٣ ؛ والموسوعة الاسلامية ، انظر الكلمة « كتلوغ خانيد» .

الفكرة التي تجعل زوجة أبيه وريثة للعرش . فأثار هذا اضطرابات في المملكة مما اضطر **تركان** ، لكي تعيد النظام ، أن تدمج اسمه في الخطبة إلى جانب اسمها . ولكن **تركان** استعملت الوسائل الكبرى ، علاقتها مع البلاط المنغولي . «فشكت إلى ابنتها **باديشاه خاتون** وحصلت على انذار Yarligh يمنع ابن زوجها من التدخل في شؤون **كرمان**»(٤٤) . إلا أن نهاية حكم **تركان خاتون** التي «جلبت الازدهار لمقاطعة **كرمان**» ، أظلمت نتيجة برودة العلاقات مع البلاط المنغولي (Ilkhan) عند وفاة صهرها **ابكا** Abaka ، التي حدثت فجأة قبل موتها هي ببضعة شهور من عام ٦٨١/ ١٢٨٢ . إذ اعتنق أخو **أبكا وخليفته** الإسلام ، وأخذ لنفسه اسم أحمد تيغدور Teguder مما خلق بعض الارتباك عند المنغول ، الذين كانوا حتى ذلك التاريخ إما **بوذيين** أو **مسيحيين نسطوريين أو شابانيين** يعبدون الطبيعة ، ولكنهم لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام بعد ، ومع أن المنغول الفاتحين الذين سحرتهم الحضارة المحتلة وتبنوا بسرعة نسبية التقاليد الفارسية ، فإن قرار الحاكم **الخان** باعتناق الإسلام كان صدمة للبلاط والأمراء . وعلى كل حال فإن حكم **أحمد** Teguder لم يدم طويلاً . فقد خُليع عن العرش بعد سنتين في عام ١٢٨٤/٦٨٣ من قبل **أرغون** Arghun **ابن ابكا** الذي كان ورعه للبوذية فوق كل الشبهات . خلال حكمه القصير نجح **أحمد تيغودور** في أن يجلب **لتركان خاتون** كثيراً من القلق عندما ولّى على عرش كرمان ابن زوجها وخصمها **سيورغ تاميش** suyurghtamish . وحاولت **تركان** أن ترفع ظلامتها إلى البلاط المنغولي فذهبت إلى عاصمتهم ، وكانت آنئذ **تبريز** ولكن لم يكن **أحمد** ليّن الجانب . وماتت تركان خاتون بعد عام دون أن تستعيد عرشها(٤٥) . ولكنها ستنتقم لها بعد بضعة سنين

(٤٤) «كرمان» الموسوعة ا لإسلامية .

(٤٥) انظر «كرمان» الموسوعة الاسلامية؛ وحول الاسر المنغولية ، انظر كذلك

ابنتها باديشاه خاتون بزواج ثانٍ واعادة دمج مكانها في البلاط المنغولي مع عرش كرمان الذي فقدته أمها .

لم تكن باديشاه خاتون لتكتفي بكونها جميلة ، فقد كانت تذهل أمراء الخان Ilkhan بعطآتها الشعرية ، ولم يندهش أحدٌ عندما نجحت بعد ترملها في الزواج بـ جايخاتو Gaykhatu العاهل الخامس في سلالة الخان Ilkhan الذي استولى على السلطة في عام ٦٩٠/١٢٩١ . ولم يكن هذا إلا أحد أبناء زوجها السابق . وإذا كان هذا الزواج مزعجاً حسب الشريعة الإسلامية فإنه لم يكن كذلك بالنسبة للعادات المنغولية .

لم تُضِعْ **باديشاه خاتون** الوقت ، فطلبت من زوجها الجديد **جايخاتو**، كبرهان على عواطفه تجاهها ، أن يمنحها عرش **كرمان** فوافق هذا على طلبها ، ووصلت باديشاه خاتون كرئيسة دولة في كرمان ، وكان أول قراراتها ايقاف أخيها من أبيها **سيورغ تاميش** ، وإلقاءه في السجن ، وعندما حاول هذا الهرب خنقته . وبعد هذه البادرة الأخوية جداً اتخذت باديشاه خاتون لقب «صفوة الدنيا والدين» . وهكذا أصبحت العاهل السادس ليس الرسمي فقط وإنما المؤكد لسلالة Kutlgh Khanide . وأوعزت بسك النقود الذهبية والفضية باسمها . ماتزال بعض هذه النقود موجودة حتى الآن في متحف برلين وتحمل العبارة التالية : Badshah Jihan» Kikhanu Khadawand Alam Badshah Khatun[٤٦] وهو لقب مكون من كلمة تركية ومعناها ملك والثانية عربية ومعناها عالم أي أنها ملكة العالم . ومما يثير الاهتمام مُلاحظة أنها لم تدَّعِ السلطة في الصيغة المنقوشة على النقود إلا على الدنيا ودون أن تذكر الدين والآخرة وهو نادر عند الملوك المسلمين

---

٠ › «ستانلي لان بول Stanley Lane Poole» طبقات سلاطين الاسلام ص: ١٨٦ ومايليها .

(٤٦) Erman Seitschrift Furnumismatik ذكرته د . بدرية أوجوك آن في كتابها النساء الحاكمات في التاريخ ، ص ٩٨ .

رجالاً كانوا أم نساءً . حكمت **كرمان** حتى موت زوجها في عام ٦٩٤/ ١٢٩٥ ، ووصول خلفه **بايدو** إلى السلطة ، والذي كان أكثر استعداداً للاستماع إلى أعدائها وإلى دعم الجماعة التي كانت تطالب دائماً بالانتقام لـ **سيورغ تاميش** ، وكانت تحرك هذه الجماعة امرأة تدعى **كوردِذْجين** Kurdudjin أرملة **سيورغ تاميش** التي لم تكن امرأة عادية لأنها كانت تنحدر من هولاكو ، أميرة منغولية بدم ملكي ، وكوردجن الأرملة الحزينة والمنتقمة طلبت من بايدو السيد الجديد موت **باديشاه خاتون**(٤٧) .

وهكذا تعاقبت عدة ملكات على عرش **كرمان** بدعم من المنغول . و **ابن بطوطة** الرحالة المغربي الصالح ، أو بالأحرى المحافظ ، اندهش كثيراً من الاحترام العظيم الذي كان يمنح للنساء وذلك خلال اجتيازه امبراطورية المغول ، في القسم الأول من القرن الرابع عشر ، أيام حكم **أبو سعيد بهادور خان** العاهل التاسع في سلالة الخان ، التي حكمت **بغداد** بين ٧١٦هـ/١٣١٦م و٧٣٦هـ/١٣٣٥م . ووفق المذكرات التي خصصها لهذا الموضوع ، يمكن أن نستنتج أن النساء كنَّ يُعاملن معاملة مختلفة عمَّا في مدينته **طنجة** مسقط رأسه . **وابن بطوطة** الذي كان قاضياً أي ذا سلطة دينية تؤهله للحكم على دور النساء ، دوَّن بدقة مالاحظه فقال : «تتمتع النساء عند الأتراك والمنغول (التتر) بسعادة كبيرة . فعندما كانوا يدونون أمراً يدرجون هذه الكمات "بأمر السلطان وخواتينه" . وكان لكل خاتون عدداً

---

(٤٧) جميع المصادر ، تقريباًو المتعلقة بهاتين الملكتين ، بشكل خاص ، والكتلوغات خانيد عموماً ، وسواء ماجاء عند د . بدرية أوجوك آن أو الموسوعة الاسلامية ترجع الى مصدر واحد هو كتاب «سمت العلا» الذي كتبه عام ٧١٦/ ١٣١٦ ناصر الدين ابن الخودجا منتجب الدين يزدي ، الرجل الموثوق من قطب الدين الأول (مخطوطة في باريس) - ١٣٧٧ فارس . N .B سجل ١٢٥) .

من المدن والمقاطعات وموارد مالية هائلة»[٤٨] . هذا هو الخلاف ، فالاهتمام الخاص الذي يمنحه العاهل المنغولي للنساء أمام الشعب ، وخلال الاحتفالات الرسمية سحر **ابن بطوطة** ، الذي لم ير شيئاً مثيلاً له في **طنجة** . وقد سنحت له الفرصة بأن يشاهد بأم عينه عندما اصطحبه **أبو سعيد بهادورخان مضيفه** المنغولي خلال إحدى الرحلات : «كان هدفي من هذه الرحلة أن ألاحظ النظام الذي يتبعه ملك العراق في سيره ومخيماته وطريقة سفره»[٤٩] . فما الذي لاحظه ؟ لم يكنَّ ليأتين في المؤخرة ، بل كن يشاهدن في مقدمة الموكب : «كان لكل من الخاتونات ، أو زوجات السلطان سكنها الخاص ، ولها إمامها ومؤذنوها ومقرئو القرآن وسوق خاص لتموين حيِّها»[٥٠] . حتى بين الموسيقيين الذين كانوا يرافقون الجيوش كان للنساء كلمتهن . «فقد يُقرر الرحيل بضرب طبل الخاتون الكبرى التي تحتل مكانة الملكة ، ثم طبول الخواتين الأخرى ، ثم طبل الوزير ، وأخيراً طبول الأمراء كلهم سويةً»[٥١] . **وابن بطوطة** المتضلع في الشريعة والسنة تأثر بطقوس البروتكول لبلاطٍ آخر هو بلاط **محمد اوزبك خان** العاهل المنغولي من العشيرة الذهبية Horde d or ١٣١٢ - ١٣٤١م . ولكي يتيح لقارئه المحتمل أن يتعرف على عظمة هذا السلطان يقول : «ان له مملكة كبيرة إنه قوي ، شهير ، مهذب ذو كرامة منتصر على أعداء الله ، دولته واسعة ومدنه هائلة ، إنه أحد أكبر وأقوى سبعة ملوك في العالم»[٥٢] . ثم ينتقل

---

(٤٨) ابن بطوطة ، رحلة ، ص ٢٣٠ .

(٤٩) ابن بطوطة ، رحلة ص ٢٣٢ .

(٥٠) المرجع ذاته .

(٥١) المرجع ذاته .

(٥٢) أي المسيحيون ، البيزنطيون الاعداء الدائمون للإمبراطورية الاسلامية . وفيما يخص العشيرة الذهبية ، احدى القبائل المنغولية الكبرى فانه بدءاً من هذا الحاكم فقط سيصبح الرؤساء مسلمون .

إلى الاحتفال فيقول : «إنه يلحظ في مجالسه وفي أسفاره وفي أعماله نظاماً مدهشاً رائعاً . وكان من عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في سرادق يسمى السرداق الذهبي ، وهو مزخرف زخرفة غنية ورائعة ومكون من أعمدة من الخشب المغطى بصفائح من الفضة المذهبة وأرجله مرصعة بالأحجار الكريمة . ويجلس السلطان على العرش وإلى يمينه الأميرة **تهيتوغلي** Thaithoghly ومن بعدها تأتي الخاتون **كيبس** Kebcc وإلى يسارها الخاتون **بيالون** Beialoun التي تليها **اوردودجي** Ordodji. أما ابن السلطان **تينابس** Tina bec فيقف في أسفل العرش إلى اليمين ويقف الابن الثاني **دجاني بس** Djani bec على الجهة المقابلة . أما الابنة **كودجيدجك** Cudjudjuc فتجلس أمامه»[٥٣] . إن إجلاس الأميرات في موقع سامٍ خلال احتفال يوم الجمعة هو أمر مدهش بحد ذاته بالنسبة لمسلم سني كابن بطوطة . ولكن هذا الملك الأكثر قوة في العالم كان يقف عند وصول كل واحدة منهن . **وابن بطوطة** الذي بُهت ، سجل بعناية كل التفاصيل : «فعندما تصل احدى هؤلاء الأميرات يقف الملك أمامها ويمسكها من يدها حتى تجلس على العرش أما **تهيتوغلي** Thaithoghly وهي الملكة الأكثر اعتباراً بين الخواتين من وجهة نظر **الأوزبك** Uzbcc فإنه يسير أمامها حتى باب الخيمة ، يحييها ويمسك بيدها وعندما تصعد إلى العرش وتجلس عندها يجلس هو . كل ذلك أمام أعين الترك ودون أي حجاب»[٥٤] . وقد دهش

---

(٥٣) ابن بطوطة (الرحلة) ص ٣٣٢ .

(٥٤) المرجع ذاته . ينبغي القول بالنسبة لامرأة عربية مثلي ، أنَّ تقبيل يدها من رجل غربي هي لحظة تثير الاضطراب وتغرقني في الانفعالات وارتعاشات الرغبة . لماذا؟ لأني دُفعت إلى تقبيل يد الرجال ، بدءاً من يد أبي وأعمامي وأخوالي . وحتى الوقت الراهن فان ابناء أعمامي البكر لايفوتهم أبداً ، وبشكل من الدعابة ، ان يقدموا لي ظهور أيديهم ليعيدوني إلى التقاليد .

ابن بطوطة كثيراً من هذا الاحترام وهذا الاعتبار للنساء اللواتي كان المنغول يعرضوهن بدون حجاب إلى جانبهم في الاحتفالات الدينية ، لدرجة أنه خصص لهذا الأمر فصولاً عديدة في كتبه مثل : «تربية الخواتين» ، «مركز خاتون الكبرى» ، «موقع الخاتون التي تأتي بعد الملكة» ، وأخيراً «الخاتون الثالثة» ، «والخاتون الرابعة»(٥٥) . كان **ابن بطوطة** على حق عندما أصر على الفرق في العلاقات بين النساء والرجال عند المغول والمذهب السني التقليدي الذي كان يعرفه جيداً بصفته عربياً . فالمنغول رغم اعتناقهم للاسلام لم يذهبوا إلى تقديم تنازلات بما يخص النساء . وبالتدريج وشيئاً فشيئاً ، فإن الفكرة غير المقبولة في البداية من اعتناق الحاكم المنغولي **أحمد** السيء الحظ والذي كلفه عرشه ، أصبحت غير ذات أهمية ابتداء من خلفه الرابع **غازان** ، السابع من السلالة (١٢٩٥/٦٩٤ - ١٣٠٤/٧٠٣)(٥٦) . وعندما انضم هذا للاسلام السني قاوم الضغوط ولم يؤد «اعتناقه للاسلام إلى الغاء التقاليد المنغولية القديمة كاحترام الوضع الاجتماعي للمرأة»(٥٧) . ويبدو أن عدداً غير قليل من الملكات والأميرات عرفن كيف يستفدن من هذه المواقف الجيدة التي كانت مجهولة حتى ذلك الوقت في التطبيقات السياسية للاسلام ذي السيطرة العربية .

الملكة الثالثة التي صعدت إلى العرش على غرار **باديشاه خاتون** أي بطريقة غير مباشرة ، بالزواج من أمير Ilkhan هي **إبش خاتون** Absh Khatoun التي أدارت المملكة الفارسية على امتداد ربع قرن بين ٦٦٢/

---

(٥٥) ابن بطوطة ، الصفحات المتعلقة بالسلطان **أوزبك** .

(٥٦) بعد **أحمد** جاء أرغون (٦٨٣ / ١٢٨٤) الى (٦٩٠/ ١٢٩١) ، (٦٩٠/١٢٩١) إلى (٦٩٤ - ١٢٨٥) **وبايدو** (بين عامي ٦٩٤و ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) ؛ وأخيراً غازان الخان السابع الذي استلم السلطة في ١١٩٥م ، وتبنى الاسلام .

(٥٧) الموسوعة الإسلامية (الخانات) .

١٢٦٣ و١٢٨٧/٦٨٦ . وكانت الحاكم التاسع من سلالة Atabck اتابيك الفارسية ، والتي عرفت أيضاً بسلالة السلغوريد (Sulghuridc) نسبة إلى مؤسسها **سولغور** Sulghur وهو رئيس عشيرة تركمانية هاجرت إلى **ايران** . وبقيت أسرة **السولغوريد** في الحكم مايزيد على القرن من ٥٤٣/ ١١٤٨ إلى ١٢٨٧/٦٨٦ وكانت عاصمتهم **شيراز** ، **وخاتون ابش** Absh كانت الملكة الأخيرة من السلالة . وكما في حالة **باديشاه خاتون** التي هي عمتها من جهة أخرى ، فقد تزوجت وهي صغيرة جداً من **مانكو تيمور** Manku Timur أحد أبناء **هولاكو**(٥٨) . ولما كان هذا غير راضٍ عن الطريقة التي كانت تدار بها الأمور في مملكة **فارس** ، والتي كانت تحت سيطرته فقد أرسل جيشاً ضد **سلجوق شاه** الذي غُلب وقُتل . واستدعيت كنته **ابش خاتون** على وجه السرعة من مدينة **اوردو** عاصمة الخان حيث كانت تعيش مع زوجها ، إلى شيراز عاصمة مسقط رأسها ، واستقبلت استقبالاً فخماً بأمر وتعليمات من **هولاكو**(٥٩) . **وكما كانت الحال مع باديشاه خاتون** فإن خطبة الجمعة صارت تُلقى باسمها وكذلك سكت النقود (٦٠) . وكان **المنغول** يستخدمون تحالفات ولاسيما مع كنائن قادمات من دول ذات سيادة كوسيلة لدعم سيطرتهم . **فوجود** نساء رئيسات لدول كنائن الخانات كان إذن تقليد يظهر في جميع أشجار نسب سلالات هذه الدول . وهو شيء لايمكن إدراكه تحت حكم العباسيين حيث لايوجد أسماء نساء .

---

(٥٨) أبش خاتون حسب د . بدرية أوجوك آن . هي ابنة بيبي خاتون ، احدى بنات توركان خاتون حاكمة كرمان ، فهي اذن جدتها . وباذشاه خاتون هي عمتها .

(٥٩) د . بدرية أوجوك آن في كتابها (النساء الحاكمات في التاريخ) ص ١٠١ ومايليها .

(٦٠) تعطي د . بدرية أوجوك آن كمرجع ، الشيراز نعمة الزرقوب في ص ١٠٧ .

والمرأة الرابعة التي وصلت إلى السلطة وفي الظروف نفسها كانت دولت خاتون الحاكمة الرابعة عشر من سلالة بني خورشيد ، التي حكمت لورستان قرابة أربعة قرون ابتداءً من ٥٩١هـ/١١٩٥م . وتقع لورستان في جنوب غربي فارس وكانت تحت السيطرة المنغولية مثل بقية المنطقة . فبعد موت زوجها عز الدين محمد اعتلت دولت خاتون العرش في عام ٧١٦/ ١٣١٦[٦١] . وبسبب ضعفها «لم تستطع ادارة شؤون الدولة» فاستقالت بمحض إرادتها وأعطت العرش لأخيها عز الدين حسن[٦٢] . بينما لم يكن هذا شأن ساطي بك ، الملكة المنغولية التي كانت شهيتها للسلطة عالية لدرجة أنها استغلت ثلاثة أزواج متعاقبين لتحتفظ بالسلطة وتستمر .

وعندما جاءت ساطي بك Sati Bek إلى السلطة في عام ٧٣٩/ ١٣٣٩م كان المسرح السياسي مختلفاً عما كان عليه عندما أنشأ هولاكو السلالة : أمراء وأميرات الخان كانوا يتذابحون والعظمة الماضية استبدلت بسلسلة غريبة من مؤامرات القصر والاغتيالات بين العائلات ، وكانت زيجات ساطي بك الثلاث ذات منفعة قصوى ، فزوجها الأول الأمير تشوبان Tchoban حفيد أحد قادة هولاكو ، كان قائد القوات المسلحة . ثم اختارت بعد وفاته زوجاً ثانياً اسمه اربا Arpa وهو عاهل من سلالة الخان اعتلى العرش لفترة قصيرة في عام ١٣٣٥/٧٣٦ ثم اعتلت العرش هي نفسها كرئيسة دولة رسمية على امتداد عام ١٣٣٩ . وخلال هذه الحقبة كان لها الحق في الخطبة وأسرعت في سك النقود التي نُقش عليها :

---

(٦١) د . بدرية أوجوك آن في كتابها «النساء الحاكمات في ا لتاريخ» صفحات من ١١٥ ومايليها . وحول اللورستان انظر الموسوعة الاسلامية .

(٦٢) د . بدرية أوجوك آن (النساء الحاكمات في التاريخ) ص ١١٧ .

«السلطانة العادلة ساطى بك خان خلد الله ملكها»(٦٣) . ولكن الله لم يستجب لتمنياتها فلم يدم حكمها سوى تسعة أشهر . وكان عليها أن تتنازل عن السلطة إلى **سليمان امين يوسف شاه** . ولكن شهية السلطة كانت تستعر دائماً وبقوة في داخلها . وكيف الاستجابة لهذه الرغبة إن لم يكن بمحاولة إغراء **سليمان أمين** بطل الحاضر . ولم يقاوم هذا وأصبح زوجها الثالث .

ثمة ملكة منغولية أخرى حصلت على الشرف السامي وحكمت في **بغداد** . كانت تسمى **تندو** Tindu وتنتسب إلى سلالة **جلايريد** ، وهي فرع من الخان الذي حكمت العراق خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بين ١٣٣٦/٧١٤ و١٤١١/٨١٤ . كانت جميلة جداً وكانت ابنة الملك عويس Awis أحد أكبر ملوك المنغول . ولكن الزمن غيّر القوى وعلاقاتها في المنطقة . ولم يعد المنغول أولئك الفاتحين الذين لايُقهرون . فانظمتهم استقرت وأضاعت حماسها في ساحات القتال . والملك **عويس** الذي كان يحكم العراق لم يكن قادراً على الدفاع عنها ، وكان يفتش عن تحالفات في المنطقة إذ كان آنئذٍ مُهدداً من قبل قوة عسكرية جديدة هي قوة **تيمورلنك** ، الذي جاء من المراعي مثل جنكيز خان سابقاً . كان **مماليك مصر** حلفاء عويس وأعداء المنغول بالأمس . وهكذا فقد ذهب إليهم يفتش عن العون والدعم . والزواج الأول للأميرة **تندو** لم يكن إلاّ تحالفاً سياسياً . كان زوجها الأول **الملك الظاهر برقوق** عاهل **مماليك مصر** قبل الأخير ١٣٨٢/٧٨٤ إلى ١٣٨٩/٧٩١ . وكان هذا قد تأثر بجمالها لما رآها في رحلة قام بها مع عمه . وقد استقبل طلب الزواج منها بسرعة ، ذلك لأن

(٦٣) المرجع ذاته ص ١٢٨ ولمزيد من التفصيل حول الأسر ، انظر لان بول Lane Poole، طبقات السلاطين ص ٢٠٣ .

العراق كان يصد بصعوبة الهجمات المتكررة لجيوش **تيمور** . تلقت **بغداد** مقابل الأميرة **تندو** التي بقيت في القاهرة ، دعم الجيوش المصرية . ولكن السلطانة تندو عانت بسبب حبها الشديد لوطنها سوء الحياة في القاهرة . وانتهى الأمر بالملك **برقوق** الذي كان يحبها كثيراً إلى السماح لها بالعودة إلى **العراق** . فتزوجت بعرس ثانٍ ابن عمها **شاه ولد** . وبعد وفاة هذا الملك تبوأت العرش في عام ١٤١١/٨١٤ وبقيت في السلطة ثماني سنوات حتى وفاتها(٦٤) . ووفق ماذكره **عبدالحي بن عماد الحنبلي** : فإن «الخطبة ألقيت باسمها من أعلى المنابر وسكت النقود باسمها أيضاً ، وذلك حتى وفاتها عام ٨٢٢هـ وقد احتل السلطة ابنها من بعدها»(٦٥) .

وحسب المؤرخة الدكتورة **بدرية أوجك أون** Badriye Ucok Un كان هناك ملكة منغولية أخيرة هي السلطانة **فاطمة بيغوم** Fatema Begum التي كان يعرفها **الروس** تحت اسم السلطانة **سيدوفنا** Seyyidovna وكانت قد أدارت مملكة الخان قاسم في آسيا الوسطى بين ١٦٧٩ و١٦٨١(٦٦) . ومن المعروف أن أحد أحفاد **جنكيز خان** واسمه **باتو** Batu «نجح في اخضاع أجزاء كبيرة من **روسيا** في الأعوام ١٢٣٦-١٢٤١ . وفقط الشمال الغربي منها (وعاصمته نوفوغوردو Novogorod) لم يشمله الغزو . وسمى **الروس** الدولة الجديدة **القبيلة الذهبية** Horde d or وانتشر

---

(٦٤) ابي الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب» ج٧ ، أحداث عام ٨٢٢ ، ص ١٥٥ . انظر كذلك «تندو Tandu ملكة العراق» في كتاب «نساء شهيرات من تاريخنا» لمؤلفه أحمد سويد ، مؤسسة المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ١٨٨ .

(٦٥) الشذرات ، ج٧ ، ص ١٥٥ .

(٦٦) د . بدرية أوجوك آن «النساء الحاكمات في التاريخ» ، صفحات ١٤٦ ومايليها .

هذا الاسم في جميع أنحاء **أوروبا**»(٦٧) . واستمرت سيطرة التتر قرنين ونصف القرن وكان من نتائجها أسلمة مناطق بكاملها في روسيا(٦٨) . قد تكون السلطانة **فاطمة بيغوم** الملكة الأخيرة لسلالة قاسم . ولكن باستثناء السيرة التي تخصصهاالمؤرخة الدكتورة **أوجوك اون** ، فإنني لم أستطع أن أجد أي مرجع لهذه الملكة في أيٍ من المؤلفات التي راجعتها في اللغة العربية إن كان هناك ذكر لحقها في الخطبة وسك النقود . وسأكتفي بذكرها دون تعدادها بين النساء رئيسات الدول مما يخفض عدد الملكات المنغوليات إلى ست وهو رقم الملكات التي سيحتفظ به .

إننا ، إذ نلاحظ ارتقاء النساء هذا في الامبراطورية المنغولية لاسيما وأن غياب الملكات عن المسرح السياسي قبل الاستيلاء على **بغداد** في عام ١٢٥٨ يكاد يكون غياباً كاملاً ، إننا إذ نلاحظ ذلك فإنه ينبغي أن نتذكر أن الامتيازات عند المنغول كانت تخص نساء الطبقات الارستقراطية ، وأن الشعوب المحلية كانت تعامل بقليل من الاعتبار . كيف نفسر أن شعباً يستطيع أن يكون بهذا العنف وفي الوقت نفسه يمنح مكاناً رفيع الشأن للنساء على المسرح السياسي ؟ قد يتطلب الجواب على هذا السؤال كتاباً آخر يقودنا إلى مناطق مظلمة من العلاقات المدهشة بين القوانين الكثيرة التعقيد حسب المجتمعات التي تشرف على مثلث الحياة : **العنف ــ السلطة ــ الجنس** . وإلى أن يتحقق ذلك ، نستطيع أن نعكف بسرعة على مجموعة ثالثة من النساء رئيسات دول ، هنَّ ملكات الجزر ، حيث **ثقافة** اسلامية أخرى ـ وامكانات أخرى ، وأشكال أخرى للسلوك .

---

(٦٧) الموسوعة الاسلامية «الباتويديين (Le Batuides)»

(٦٨) المرجع ذاته .

- ج -

ملكات الجزر :

ثمة سبع سلطانات حكمن في الجزر ، ثلاث منهن في جزر المالديف Maldive وأربع في **أندونيسيا** . ومن حسن حظنا أن **ابن بطوطة** مرَّ في جزر **المالديف** في فترة حكم السلطانة الأولى **خديجة بنت السلطان صلاح الدين صالح النجلي** التي حكمت من ١٣٤٧ إلى ١٣٧٩ . فالمسافر ولاشك يقع تحت تأثير السحر : «ومن عجائب جزر **المالديف** أن سلطانها امرأة . وكانت المملكة تخص اولاً جدها ثم أباها وعندما توفي الأخير أصبح أخوها **شهاب الدين ملكاً** ، وكان صغير السن ، فتزوج الوزير **عبدالله بن محمد الحضرمي** أمه واستولى على السلطة منه ، وهو الشخص نفسه الذي تزوج خديجة بعد وفاة زوجها **الأول جمال الدين**»(٦٩) . وبعد نضال من أجل السلطة حيث تلعب التحالفات الدور الأهم كما هي العادة دائماً ، يتوصل **ابن بطوطة** إلى ظروف اعتلاء **خديجة** للعرش . إذ «لم يبق من العائلة المالكة إلا أخوات المرحوم : **خديجة** البكر **ومريم وفاطمة** . فرفع السكان المحليون **خديجة** إلى السلطة و كانت قد تزوجت واعظهم **جمال الدين** وأصبح الأخير وزيراً وسيد السلطة وسمى ابنه واعظاً مكانه . لكن الأوامر لم تكن تصدر إلا باسم **خديجة** . وكانت هذه الأوامر تخط على أوراق النخيل بواسطة آلة حديدية تشبه المدية . ولايكتب على الورق إلا **القرآن** والبحوث العلمية(٧٠)» . هل كانت تلقى الخطبة باسم السلطانة

---

(٦٩) ابن بطوطة (الرحلة) ص ٥٨٠ .

(٧٠) المرجع ذاته .

خديجة ؟ يمكننا الاعتماد على ابن بطوطة الذي دون الصيغة بدقة : «يذكر الخطيب السلطانة يوم الجمعة والأيام الأخرى وإليكم النصوص التي يستخدمها : اللهم انصر أمتك التي فضلتها بعلمك ، على العالمين وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان **جلال الدين** بن السلطان **صلاح الدين**»[٧١] . وبعد وفاة السلطانة **خديجة** التي حكمت مدة ثلاثة وثلاثين عاماً ، احتلت أختها **مريم** العرش وبقيت حتى عام ٧٨٥هـ/١٣٨٣م ، وكان زوجها يشغل وظيفة وزير أيضاً . وبعد وفاة السلطانة مريم تبوأت العرش ابنتها السلطانة **فاطمة** حيث بقيت حتى وفاتها عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م وقد حكمت جزر مسلمي المالديف من قبل نساء لمدة أربعين عاماً . **وابن بطوطة** الذي عهد إليه بوظيفة قاض لم يستطع طويلاً مقاومة سحر نساء الجزيرة : «ففي اليوم الثاني من شوال (١٦ شباط ١٣٤٤) ، اتفقت مع الوزير **جمال الدين** أن يعقد الزواج بوجوده في القصر . . . فقرئ المولد ودفع الوزير مهر الزواج . وبعد بضعة أيام اقتيدت إلي زوجتي . وكانت من أحسن النساء الموجودات ، إذ كانت أساليبها جيدة لدرجة أنها كانت ، بعدما أصبحت زوجها تمسح جسمي بالزيت وتعطر ثيابي . وكانت خلال عملها هذا تضحك ولم يكن يبدو منها أي انزعاج»[٧٢] .

كان ابن بطوطة مأخوذاً بالمعاملة الملكية التي كانت تحيطه بها زوجته لدرجة أنه لم يتردد في أن يحصل على أربع زوجات . وكان يتزوج غالباً في رحلاته في العالم الإسلامي والتي دامت عملياً كل حياته . ولكن ذكرى سعادته العائلية مع زوجاته المالدافيات كانت ذات عذوبة خاصة .

---

(٧١) المرجع ذاته ص ٥٨٠ .

(٧٢) المرجع ذاته ص ٥٨٨ .

وهناك انطباع بأنه ندم قليلاً لأنه لم يستطع جلب احداهن إلى **طنجة** : «لكن النساء المالدافيات لايخرجن قط من بلادهن . ولم أجد في عالم النساءعلاقة أكثر متعة منهن . والزوجة عند سكان الجزر لاتعهد إلى أي كان بالعناية بخدمة زوجها ، فهي التي تحضر له الطعام وتقدم له الحلوى بعد الطعام وتغسل له يديه وتقدم له الماء من أجل الوضوء وتغطي له قدميه إذا أراد النوم»(٧٣) . ثمة شيء واحد كان يحيره هو : أن المرأة لم تكن لتتقاسم الغذاء مع زوجها : «ومن عاداتهم أن المرأة لاتأكل مع زوجها وأن الرجل لايعرف ماذا تأكل زوجته»(٧٤) .

والشيء الوحيد الذي كان يأخذه على النساء المالدافيات وخاصة بصفته قاضياً هو أنهن كنَّ يتنزهن وهنَّ نصف عاريات : «فلا تغطي نساء الجزر رؤوسهن . وملكتهم نفسها لاتقوم بذلك . وهن يمشطن شعورهن ويجمعنها على جانب واحد . ومعظمهن لايلبسن إلا تنورة (وزرة) تغطيهن من السرة إلى الأرض . وباقي الجسم يظل مكشوفاً . وبهذا الزي يتنزهن في الأسواق وفي غيرها . وعندما توليت شرف القضاء في الجزر قمت بجهود جبارة لانهاء هذه العادة وأن آمر النساء ارتداء الثياب ولكن دون جدوى»(٧٥) . وكان **ابن بطوطة** أذكى من أن يقع في مطب الربط بين عواطف المؤمنات المالدافيات والتنزه نصف عاريات ، وقد أصرَّ مع ذلك بصفته قاضياً على حلٍ وسط : فالمؤمنات يستمرين في التنزه نصف عاريات ولكن في حالة جلسات المحكمة حيث تطبيق الشريعة كن يحترمن الحد الأدنى من الشكل «فلا تقبل أية امرأة إلى جلسات القاضي من أجل ظلامة

---

(٧٣) المرجع ذاته .
(٧٤) المرجع ذاته ص ٥٧٧ .
(٧٥) المرجع ذاته ٥٧٧ .

إلا إذا كان جسمها مغطى وباستثناء ذلك لم يحصل على أية سلطة على هذه العادة» . وابن بطوطة الماكر كأي طنجاوي ، ذكر فيما بعد أن النساء المالدافيات في الواقع أكثر جمالاً وهنَّ نصف عاريات : «كان عندي جاريات ثيابهن كثياب سكان دهلي Dihly وكن يغطين الرأس ولكن ذلك كان يشوههن أكثر من أن يجملهن لأنهن لم يكن متعودات عليه»[٧٦] . ومن المؤكد أن القاضي كان جاهزاً لتقديم تنازلات بما يخص موافقة الشريعة على الحجاب بالنسبة للنساء عندما يتدخل هذا في أشياء أكثر جدية كالجمال ولاسيما في بيئة الجزر العاطفية . وكما أن الجزر لاتتشابه كذلك النساء فخلال اقامته في **أندونيسيا** لم تلهمه النساء بالمقدار نفسه . ومع ذلك فإن النساء تسلمن السلطة إنما تم ذلك بعد مروره بالشرق الأقصى بعدة قرون .

أربع أميرات تتابعن في **أندونيسيا** في دولة **أتجه** Atjch في النصف الثاني من القرن السابع عشر (١٦٤١ - ١٦٩٩م) . **فمقاطعة أتجه** التي تقع في أقصى الجزء الشمالي من جزيرة **سومطرة** ، كانت أول منطقة من **أندونيسيا** تأسست فيها مملكة مسلمة . وقد سبق أن ذكر الرحالة **ماركوبولو** الذي مر بها عام ١٢٩٢ م وجود حاكم مسلم فيها[٧٧] . والسلالة التي تنتمي إليها هؤلاء الملكات الأربع كانت سلالة دجاجادينيكرا Djajadinigrat والتي تعُدّ شجرة نسبها ٣٤ عاهلاً حكموا مقاطعة **أتجه** Atjeh من القرن السادس عشر إلى بداية القرن العشرين ومنهن : السلطانة تاج العالم **صفية الدين شاه** (١٦٤١ - ١٦٧٥م) وكان ترتيبها الرابعة عشر من حكام السلالة ، والسلطانة **نور العالم نقية الدين شاه** الخامسة عشر

---

(٧٦) المرجع ذاته ص ٥٧٧ .

(٧٧) الموسوعة الاسلامية ، انظر كلمة أتجه « Atjeh» .

(١٦٧٥ - ١٦٧٨م) ، **وعناية شاه زكية الدين شاه** السادسة عشر (١٦٧٨ - ١٦٨٨م) ، **وكمالات شاه** التي حكمت من ١٦٨٨ إلى ١٦٩٩ م وكانت الملكة السابعة عشر من السلالة . وقد حكمن بالرغم من أن خصومهن السياسيين جلبوا من مكة فتوى تعلن بأن : «الشريعة تمنع المسلمة من أن تحكم»[٧٨] .

وبالرغم من الفتاوى وبالرغم من مقاومة الخلفاء وانتهازية رجال السياسة ، فإن خمس عشرة امرأة مسلمة ارتقين عروش دول مسلمة بين القرن الثالث عشر والسابع عشر مع كل الشعارات الرسمية للسلطة . وكانت الاثنتان الأوليتان **رضية وشجرة الدر تركيتين** تنتميان إلى سلالة **المماليك** ، وست سلطانات وصلن إلى العرش عندما حل **الأمراء المنغول** محل **الخلفاء العرب العباسيين** على رأس **الامبراطورية الإسلامية** . وسبع أخريات تخص الإسلام **في جزر المالديف وفي اندونيسيا** . وبالنسبة للمؤرخة التركية أوجوك اون لم يكن هناك ، حقاً ، أية سلطانة عربية : «ولم تستطع النساء الوصول إلى العرش إلا بعد أن انهارت الدولة العباسية التي كانت عائقاً رئيسياً لوصول النساء إلى السلطة»[٧٩] . فغياب الدولة العباسية : «فتح الطريق أمامهن وسمح لهن أخيراً بالوصول إلى السلطة»[٨٠] . وتفسير د . **أوجوك آن** الذي يبني كل رؤية للعالم على **أنها متماسكة** ومقنعة ، و ببساطة تبدو للوهلة الأولى حاسمة ، تفسيرها

---

(٧٨) الموسوعة الاسلامية ، انظر كلمة (اتجه Atjeh) ، انظر كذلك البند الذي خصصته لهم د .بدرية أوجوك آن في كتابها «النساء الحاكمات في التاريخ» ص ١٥٢ ومايليها .

(٧٩) د . بدرية أوجوك آن (النساء الحاكمات في التاريخ) ص ١٦٦ .

(٨٠) المرجع ذاته ، ص ١٦٧ .

هذا يستند على العامل التأويلي (تفسيري) الأقل تشويشاً طالما أنه يتعلق بالعرق . فالعرب يقدمون بوضوح سلوكاً مبغضاً للمرأة بينما الأتراك والمنغول والأندونيسيون والآسيويون يملكون مظهراً ذا نزعة شبه نسوية بصورة عامة . . . وواقعة أن كل النساء اللواتي نجحن في الجلوس على عروش ، كنَّ ، باستثناء **جزر الهند** ، **تركيات أو منغوليات** ، هي برهان واضح على الأهمية التي كانت هذه الثقافات تمنحها للمرأة في القضايا العامة»[٨١] . والمشكلة في النظريات المبنية على العرق هي أنه يكفي إيجاد استثناء واحد لكي تتلاشى كفقاعات نفاخات الصابون لطفل مدلل . فكيف يكون الأمر اذا وُجِدت امرأة عربية رئيسة دولة ؟ وإذا كشفنا عن ملكة أو ملكتين عربيتين سيواجهنا سؤال آخر : **لماذا النسيان ؟ لماذا لايريد أحد أن تكون نساء عربيات رئيسات للدولة ؟**

ويمكننا أن نفهم أنَّ مؤرخةً غير عربية مثل **بدرية أوجوك أون** ، التي كانت تكتب في الأربعينات في فترة كان العالم العربي يبتدئ في النهوض من سيطرة العثمانيين الطويلة ، تستطيع أن تقدم نظرية مستعمر تعطي للعثمانيين الدور الحسن . إلا أنه ، مع ذلك هناك ملكات عربيات . ولكن ، مايبدو غريباً هو هذا النسيان الذي غُمِرن فيه . **فما الذي يمثلنه من خطر أو اضطراب كي يُقَرَّرَ دفنَهنَّ في أعماق اللاشعور ؟**

---

(٨١) المرجع ذاته ص ١٦٧ .

القسم الثالث

الملكات العربيات

- ٧ -

السلالة الشيعية في اليمن

لليمن وضع استثنائي في العالم العربي ، ليس لأن العديد من النساء مارسن فيه السلطة السياسية . ولكن لأن اثنتان منهن ، الملكة **أسما** والملكة **أروى** تمتعتا بالامتياز والمعيار الثابت لرئيس الدولة ألا وهو الخطبة التي كانت تلقى في المساجد باسميهما . ولم تحصل أية امرأة عربية على هذا الشرف في أي بلد عربي بعد ظهور الإسلام . **أسما بنت شهاب الصليحية** التي توفت عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ، ادارت **اليمن** مع زوجها **علي بن محمد الصليحي** مؤسس السلالة التي تحمل اسمه . وقد لفتت **أسما** انتباه المؤرخين ليس فقط لأنها تمتعت بالسلطة وهذا لم يكن نادراً كما كان يظن وكما سنرى ، بل لأنها كانت تحضر المجالس و "وجهها مكشوف" ، أي بدون حجاب ، وأن الخطبة فيما بعد كانت تلقى من أعلى منابر مساجد **اليمن** باسم زوجها وباسمها[1] . والملكة الثانية هي **أروى بنت أحمد الصليحية** التي كان لها الحق كذلك بامتياز الخطبة . كانت أروى كَنَّة **أسما** أي زوجة ابنها **المكرّم** الذي استرد تقليد أبيه وتقاسم السلطة مع

(١) الأعلام ، ج١ ، ص ٢٩٩ لخير الدين الزركلي .

زوجته أروى التي مارستها فيما بعد منفردة على امتداد نصف قرن تقريباً (من ١٠٩١/٤٨٥ وحتى وفاتها عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م)[٢] . وكلتا الملكتين كانتا تحملان اللقب الملكي ذاته : (السيدة الحرة) ، وتعني لغوياً : السيدة النبيلة الحرة ، المستقلة ، المرأة الحاكمة التي لاتخضع لأية سلطة عليا . ولدينا النص الحرفي للخطبة التي كانت تلقى على المؤمنين في كل أراضي **اليمن** : «اللهم أدِمْ أيام الحرة الكاملة السيدة كفيلة المؤمنين»[٣] .

إن تتملك النساء السلطة السياسية للرجال الذين يشاطرونهم حياتهن فهذا قد حصل غالباً كما رأينا ، أما أن تلقى خطبة الجمعة في المسجد بأسمائهن فهذا استثنائي في الجزء العربي من الامبراطورية الإسلامية . فما هو إذن اللغز الذي يختفي وراء امتياز ملكات اليمن ؟[٤] .

---

(٢) محمد كامل المحامي «اليمن» دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٧١ ؛ خيرالدين الزركلي ، (الاعلام) ج١ ص ٢٧٩ ؛ ياسين الخطيب العمري «الروضة الفيحاء في تواريخ النساء» تحقيق عماد علي عمرة ، الدار العالمية ، طبعة أولى ، ١٩٨٧ . مات المؤلف في ١٢٣٢هـ (١٨١٧م) ص ٣٥٨ .

(٣) خير الدين الزركلي «شهيرات العالم الاسلامي» ج١ ، ص ٢٧٩ . ويستطيع القارىء ان يجد في نهاية هذه السيرة لائحة بالمراجع الرئيسية المخصصة للملكة **أروى** ، وبخاصة سيرتها في (سير أعلام النبلاء) للذهبي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨ والذي يجمع الجزء الثاني منه سير النساء .

(٤) حقيقة ثمة ملكة كانت تحكم في المغرب ، في الفترة نفسها تقريباً التي كانت تحكم بها **أسما** ، في القرن (١١) والتي كانت تتقاسم السلطة السياسية مع زوجها ، إلا أنه لم يكن لها الحق في الخطبة . . . إنها الملكة البربرية زينب النفزاوي ، زوجة يوسف بن تاشفين (٤٥٣/ ١٠٦١ ـ ٥٠٠/١١٠٨) وهو الحاكم المراودي الشهير الذي اسس امبراطورية كانت تضم شمال افريقيا وضم اسبانيا وأنشأ مدينة مراكش . ولم تكن زينب التي كانت تشارك في السلطة مجهولة عند أحد : «وهكذا أخضع يوسف المغرب كله ثم وزع الاجمات حيث دخل . وحين استقر فيها ، تزوج ←

والحدث التاريخي الأكثر اثارة فيما يخص **أسما وأروى** اللتين تسلمتا السلطة ، الواحدة من الأخرى خلال عهد **السلالة الصليحية** التي دامت قرناً كاملاً ، هو النسيان الكامل الذي يصدم المعاصرين . لأحد يتذكرهما ! لأحد سمع حديثاً عنهما ! زميل مؤرخ متخصص في شؤون القرون الوسطى سألته في أول تحرياتي أن ينورني عن هذا الموضوع ، فبدا كثير الشك . نساء عربيات رئيسات دولة ؟ ! ألست مخطئة في المنطقة . وعندما تلوتُ عليه نص الخطبة باسم أروى ، أجابني بثقة مذهلة : «ألم تقرئي هذه القصة في **ألف** ليلة وليلة ؟» ومايبعث على الدهشة بصورة أكبر ، هو هذا النسيان الذي يلامس حتى المؤرخين الغربيين الذين كان عليهم ألا يهددهم قط الربط بين المرأة العربية والسلطة . **فبرنارد لويس** Bernard Lewis يؤكد بثقة تامة تذكرنا بثقة آيات الله ، بأنه «لم يكن ملكات في التاريخ الإسلامي وأن كلمة «ملكة» عندما تحضر فإنما تخص ملكات أجنبيات كبيزنطة وأوروبا . هناك بعض الأمثلة على تسلم نساء لعروش مسلمة ، ولفترة قصيرة ، ولكن كان ينظر إلى امكانية تحقيق مثل هذا الحدث على أنه ضلال ويحكم عليه بأنه فضيحة»(٥) . هذا النوع من الاثباتات المؤكدة من قبل باحثين لامعين في الإسلام من مستوى **برنارد لويس** Bernard Lewis تؤيد شيئاً واحداً هو : أن النساء المسلمات بصورة عامة والعربيات على وجه الخصوص لايستطعن الاعتماد على أي شخص ، علاّمة كان أم غير ذلك ، «متحيزاً» أو «حيادياً» لقراءة تاريخهن .

← **زينب بنت استاف النفزاوي** كانت اتمام حظه السعيد ؛ وقد اهتمت بسلطانها وأعطته النصائح التي سمحت له تثبيت قوته ؛ وبأهليتها السياسية فتحت له الاجزاء الكبرى من المغرب . . .»

(٥) برنارد لويس : لغة الإسلام السياسية Le langage politque de l Islame دار كاليمار ١٩٨٨ ، ص ١٠٣ .

هذه القراءة هي مسؤوليتهن الكاملة وواجبهن . ومطالبتنا بأن نتمتع تمتعاً عميقاً وكاملاً بحقوقنا الانسانية العالمية ، هنا والآن ، تمر بالضرورة بإعادة تخصيص الذاكرة وإعادة قراءة الماضي المسلم ، وإعادة بنائه بصورة واسعة ومفتوحة . وقد تكشف بعض الواجبات من جهة أخرى مهاماً غير تقشفية وغير مكروهة بل أسفاراً لذيذة نحو شواطئ السرور . والقيام باقتحامات في ماضينا يستطيع ، ليس فقط تسليتنا وتعليمنا ، وإنما يعطينا أفكاراً ثمينة حول سبل العيش بسعادة حينما تتواجد امرأة ، مسلمة وعربية . ثلاث مميزات يحاولون تقديمها لنا كمثلث شرير ، وكهوة للخضوع والتضحية ، حيث يجب إذابة إرادتنا بدون تردد . السفر في الماضي لتتبع هؤلاء الملكات المنسيات يدعونا إلى تبني وجهة نظر أخرى عمّا اتُّهمنا به خلال مراهقتنا ، وهكذا هي الفكرة ، لكي يُعجب بنا الرجال علينا أن نضمحل في دوامة الخضوع ، وأن نظهر دائماً بأننا ضعيفات ودون دفاع . وكل إبراز لقوتنا ولسلطتنا يُقاصص حالاً بانكماش غير مشروط للحب الذي يحملونه لنا ، وتاريخ ملكاتنا اليمنيات يقول لنا أن هذا كله هذيان . فمتعة الحب تمر أيضاً باحتلال السلطة . **فأسما وأروى** بصفتهما امرأتين كانتا منغمستين في تغيير حياتهما الخاصة وحياة مجتمعهما ، وكذلك حياة العالم من حولهما .

والمؤرخون اليمنيون الحديثون كالقدماء لايذكرون حكم هؤلاء «الملكات» كـ «فضائح» ، وإنما بالعكس كفترات رائعة ومزدهرة بشكل خاص . واليمني المعاصر **عبدالله التاور** يثبت بوضوح أن عهد الملكة **أروى** كان عهداً مباركاً وهادئاً في تاريخ اليمن : «و يكفي لمؤرخ شريف أن يقارن عهد الأئمة بالعهد القصير جداً ـ بالمقارنة ـ التي كانت تحكم فيه امرأة يمنية كانت تلتزم بمبادئها وتحب شعبها ، وتخلص له ، ونعني السيدة **أروى بنت أحمد الصليحي**» ، ليُقرَّ بذلك وهو يتأمل في التاريخ الحديث **لصنعاء**

المدينة التي أدارها الأئمة من عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١ م إلى عام ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م ؛ الأئمة الذين لم يفقدوا الحكم تماماً إلا بالثورة وقيام الجمهورية سنة ١٩٦٢ ، ليتأكد أن أروى «تركت صروحاً وأبنية ، وطرقات ومساجد . ولم يستطع الأئمة جمع مثل هذه الأشياء في الحقبة الطويلة من سلطانهم . . .»[٦]. ويبدو أن النسيان يتحدد بالنسبة للانتماء الثقافي الجغرافي (الاقليمي) : إذ ليس جميع العرب ينسون الأشياء نفسها . وما ينسونه يرتبط بالظروف والأحداث القومية وبالذاكرة الاقليمية . ويظهر أن للمؤرخين اليمنيين ثقوباً أقل في الذاكرة من غيرهم عندما يتعلق الأمر بالنساء والسلطة . وهم على عكس غيرهم يتذكرون أن لهم نساءً ملكات في ماضيهم . والآن ، يرشدنا هذا التفصيل الصغير إلى أثر قد يكون اكتشافه باعثاً على الشغف : الذاكرات السفلى الإقليمية في العالم الإسلامي بصورة عامة ، والذاكرات السفلى العربية في مختلف الأقاليم . فالذاكرة المسلمة الأندونيسية مختلفة ولاشك عن الذاكرة المسلمة المغربية أو السنغالية ، وقد يكون مفيداً بين العرب ، استكشاف أيّة أحداث وأيّة شخصيات تاريخية تُكوّن علامات الهوية الثقافية الاقليمية . وإذا لم يكن لدى المؤرخين اليمنيين الحديثين أية عقدة في تذكرهم باعتزاز ، لسيدة كرئيسة كبيرة للدولة وفي تأكيدهم ، بعد تحليل الوقائع ، على أنها كانت ، كما هو معلوم سياسياً ، أكثر كفاءة من العديد من الأئمة ، فلماذا يصعب على المؤرخين العرب أن يعملوا مثلهم ؟ ما الخصوصية في علاقة اليمنيين

---

(٦) (هذه هي اليمن) **لعبد الله أحمد محمد التاور** دار العودة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٣٣١ . وحول حكم أئمة صنعاء التي حدد مصادرها ، اقرأ (أئمة صنعاء» في كتاب «تاريخ الدول الاسماعيلية ومجمع الاسر الحاكمة» للدكتور **أحمد السيد سليمان** . دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ ، ص ٢١٦ ؛ ستانلي لان بول Stanley Lane Poole (طبقات سلاطين الاسلام) ص ١٠٣ ومايليها .

بالنساء كعنصر مكوّن لتاريخ الجماعة ؟ هل هي ذكرى ملكة سبأ الثابتة كثبات العطور الجذابة للمنطقة ؟ هل هو تعدد الأزواج (أي أن المرأة تتزوج عدة رجال معاً) الذي كان يطبقه السبئيون في الزمن السحيق ؟ فمحاولة الإجابة على هذه الأسئلة تقودنا ولاشك إلى طرق مليئةٍ بالمفاجآت ولكنها بعيدة جداً عن موضوعنا الراهن ، توضيح أسباب النسيان . لماذا يحجب الحجاب ، في أعماق الذاكرة ، ذكرى الملكتان أسما وأروى ؟ أية أطياف ، أية أشباح ، أية أفكار ، أي غم ، توقظ ذكراهما ؟

قد أكون ميالة للاعتقاد بأن الشبح المغِم الذي يُجسّد ذكرى أسما وأروى هو شبح الشيعة ، المعارضة السياسية المرتبطة بعنف خاص ، هو العنف باسم الله . إنه الخصام الذي يهز السلطة السياسية في ما لها من أساسية أكبر ، شرعيتها ذات الطبيعة المقدسة وكل هذا باسم الدين . لقد هزت الشيعة خلال قرون أسس الإسلام السني بصفته الأصولية الشمولية ، وهو الحلم بامبراطورية قوية حيث الوحدة والازدهار يسيران جنباً إلى جنب، ولايمكن ادراكهما بشكل آخر . ومنذ الانفجار الصاعق للاسلام الشيعي على المسرح الدولي عندما وصل إلى السلطة الإمام الخميني خلال السبعينات والحرب العراقية الإيرانية اللاحقة التي كانت تقتل المسلمين ، ربما بصواريخ حديثة ، ولكن بعواطف أقدم من الاسلام نفسه ، ولم يعد الزمن مناسباً لتحريك بعض الذكريات . فالنسيان أكثر من مستحب لكل هؤلاء الذين لايريدون الذهاب إلى عمق المشكلة ، تلك التي ليست سوى مستقبل الديمقراطية في الاسلام ؛ فالنزاع السني الشيعي ماهو إلا حوار أليم وطويل مجهض بالصفة التمثيلية للسلطة . كل حوار مجهض يجر الشركاء المكبوتين إلى حمام من العنف الدموي ، ومحاولتهم الاحتماء في نسيان ارادي مُسكّن يُجنب التفكير في تاريخ الحوار الذي أخفق بين الشيعة والسنة ، لأنه لا يجلب الشرف لأي كان . ولكن إن يتذكر أحدنا ، مسلم

أو مسلمة ، ثمن دماء الحوار المجهض من قبل اجدادنا لايمكن إلا الآن يكون مناسباً لنا اليوم . فاليوم حيث التعصب يُخيم أكثر من أي وقت مضى وحيث شبح العنف الداخلي يسد الأفق ، و حيث مسألة التسامح واختلاف الآراء مطروحة وبشكل حيوي لكل الأمم ، فإن نسيان **أسما وأروى** إنما هو الرغبة في نسيان الجنون القاتل الذي استمر خمسة عشر قرناً للنزاع السني الشيعي ، ذلك النزاع الذي سحق الآلاف وربما الملايين من المسلمين دون تمييز بين العروق والطبقات ، لأن أمراءً وجنوداً كانوا ضحاياه ولأن رجالاً ونساء بالغين ويافعين هلكوا فيه .

أسما وأروى كانتا شيعيتين . وهذا التفصيل قد يشرح لنا ثقوب الذاكرة وأحياناً هاويتها الحقيقية . وعندما بدأتُ وببراءة البحث عنهما في مكتبات **الرباط** التي تعبق برائحة العفن في الخريف ، دخلت في مملكة كل أولئك الذين لاتهمهم الذاكرة الفوضوية (الحرية المطلقة) للإسلام ، والذين لهم مصلحة في النسيان . مملكة تخلى أناسها ، ببحثهم عن العدالة ، عن شرعية عباسيي **بغداد** وبالتالي عن المذهب السني للارتماء كجسم ضائع في مغامرةٍ ، كانت آنئذ تبدو وكأنها البديل الثوري ألا وهو : الشيعة الاسماعيلية باعطائهم السلطة للأسرة الصليحية .

كانت اليمن احدى مقاطعات الامبراطورية الأموية ثم العباسية وكانت تدار بحكم استبدادي . فظهر الصليحيون فيها كورثة للوعد الثوري والمثل الأعلى للاستقلال الوطني . وقد استطاع **علي الصليحي** ودون صعوبة أن يفرض نفسه لأنه كان إماماً شيعياً ويتحدر عن الملوك الفاتنين لمملكة سبأ قبل الإسلام . ويرجع نسبه إلى فصيل **يام** من قبيلة **حمدان** التي يظهر اسمها في نقوش السبئيين(٧) . كانت عملية نشر

(٧) «هذه هي اليمن» لعبد الله احمد محمد التاور ص ٢٧٥ .

الإسلام قد عاشت ، في الكثير من البلاد العربية ذات الثقافة المختلفة عن ثقافات قبائل **مكة والمدينة** ، (المدينة الأولى التي ولد فيها النبي والثانية التي هاجر إليها وتبنته) كتدخل لسلطة أجنبية . والواقع أن الحكام كانوا يُعينون ويُرسلون من قبل السلطة المركزية دون أن يكون للشعوب المحتلة أيّة كلمة فيهم ، مما خلق هوة عدم اتصال وكبت بين رسل العاصمة المسلمة والنخبة المحلية .

تاريخ الإسلام هو ، بين أشياء أخرى ، مجموعة أخبار مفرطة عن الحكام وتمرد الشعوب المحلية التي كانت تأخذ دائماً ، وبشكل منتظم مسار معارضة دينية . ومنذ زمن النبي كان سكان اليمن يعارضونه بمدّعي النبوة وأشهرهم **مسيلمة الكذاب** . وأصبح **اليمن** بعد موت النبي أحد مراكز **الردة** ، وهذا ماجعل الخليفة الأول **أبو بكر الصديق** يجند جيوشاً كاملة لإعادة هذه البلاد إلى العقيدة الإسلامية ، وبعد ذلك وبسرعة فإن النزاع مع الاستبداد المركزي اكتسى في العديد من الأقاليم اللباس المتفجر للمذهبْ الشيعي . وكان **اليمن** في هذا المعنى رائداً في الموضوع . فكان له امتياز تقديم هدية للمسرح السياسي المسلم ، «دماغ» التخريب الشيعي محترف التمرد والاضطراب ، والذي يظهر الشيطان أمامه بمظهر هاوٍ يرثى له ، إنه : **عبدالله بن سبأ** .

وابن سبأ هذا ، كان لديه أهلية الإقناع في مادة التخريب تقوّم بأنها اسطورية . وينسب إليه جريمة طرح أفكار عديدة هرطقية في الإسلام ، سيّما وأنه أول من تصور فكرة مقاومة السلطة الرسمية بالدعاية ، ثم بالسلاح . ويقول لنا الطبري بأنه «كان يهودياً ، من مدينة **صنعاء** وأن أمه سوداء ، واعتنق الإسلام في عهد **عثمان**» . نحن الآن إذن في القرن السابع وفي عهد الخليفة الراشدي الثالث **عثمان** ، الذي أثار غضب أقوام **اليمن ومصر والعراق** بكثرة الحكام الذين أرسلهم ورعونتهم . وبالنسبة **للطبري**

فإن هذا لم يكن كافياً لنشر فكرة التمرد ، فلم يستمد **عبدالله بن سبأ** آراءه من الكبت والظلم اليومي وإنما من كتب أعداء الإسلام : «فقد قرأ الكتب القديمة وكان عالماًبها»[٨] .

إحدى الأفكار الغريبة على الإسلام والتي أوحى بها إلى أنصاره هي الفكرة الهرطقية عن عودة النبي . «فالمسيحيون يقولون أن المسيح سيعود إلى هذا العالم . إلا أن المسلمين لهم حق أكثر في الإدعاء بأن النبي سيعود[٩]». **وعبدالله بن سبأ أول** من نظم فكرة التمرد على السلطة الرسمية باسم **علي**، وأول من وضع العالم على طريق النار والدم ، بابتكاره نموذجاً دعائياً أصبح فيما بعد تقليدياً ومازال يستعمل حتى أيامنا هذه : التدريب النظري لمجموعات صغيرة معدة لمعارضة النظام القائم ، تدريب بسرية تامة ثم الانتقال إلى العمل ، بالعنف إذا اقتضى الأمر . وابن سبأ هو أول من جاءته فكرة خلع الخليفة **عثمان** وتعيين **علي** ابن عم **النبي** مكانه . فقال لهم : «إن **عثمان** تبوأ السلطة ولم يكن له الحق بذلك ، لأن **النبي** عين علياً خلفاً له (وصياً) . إذن ابدؤوا بنشر هذه الفكرة ، تحركوا وهاجموا في الحال الأمراء القائمين»[١٠] . وهكذا ، حسب **الطبري** وعدد كبيرٍ من المؤرخين السنيين ، بدأت فكرة الشيعة (الانشقاق) من عقل يهودي سابق من اليمن «أصبح مسلماً وسافر في بلاد الإسلام بهدف إفسادها . فذهب أولاً إلى **الحجاز** ثم إلى **البصرة** ثم إلى **الكوفة** ثم إلى **الشام** (سوريا) . ولكنه لم يستطع الحصول على ماكان يبتغي في **الشام** . فقد طرده السوريون . ثم قدم إلى **مصر** . .»[١١] وفي **مصر** شكل مجموعة من الناس المتحزبين الذين تشبعوا

---

(٨) الطبري ، «تاريخ الأمم والملوك» ، دار الفكر ١٩٧٩ ، ج٥ ، ص ٩٨ .
(٩) المرجع نفسه .
(١٠) المرجع نفسه .
(١١) المرجع نفسه .

بأفكاره . وفكرة ابن سبا قادت مباشرة إلى مقتل عثمان وإلى أول حرب أهلية (٣٦هـ/٦٥٦م) حطمت الوحدة الإسلامية بتقسيم المؤمنين إلى سنة وشيعة : «وباقتناعهم بعودة النبي وبحق علي في السلطة . . . فقد أعلنوا أن عثمان غير مؤمن . ولكنهم احتفظوا بهذا الاعتقاد سراً بينما علانية كانوا يعظوا بواجب عمل الخير»(١٢) . وهكذا بدأت دائرة العنف .

إن فهم ظاهرة التشيع كانت وماتزال ، كما يمكن تصورها ، مسألة حيوية بالنسبة للسنيين . فالنصوص التي تخصصها كثيرة ، وقد حاولت ، على مرّ القرون ، الأدمغة الأكثر لمعاناً فهم هذا الشكل الأكثر قوة والأكثر ثباتاً للمعارضة السياسية حيث ارتبط العنف والدين ارتباطاً وثيقاً . وعلى عكس هذا الذي يحدث به بعض المستشرقين الذين يقتصر وصفهم للعرب على أنهم متعصبون ويدينون وحشية الشيعة ، فإن مؤرخينا حاولوا تحليل هذه الحركة بصفتهم من أهل السنة . ولم تقتصر محاولاتهم على رفضها . صحيح إن عبدالله بن سبأ يحتفظ دائماً بعمامته الشيطانية في كتابات المؤرخين الحديثين ولكن طريقة تناولهم للمذهب الشيعي مفصلة جداً ، ولاعلاقة لها بالأحكام الفظة لساردي الأخبار القدامى(١٣) . فأحمد أمين وأبو زهرة ، المؤرخان المعاصران ، اللذان يمتلكان كماً من المراجع والمعلومات أكثر من الطبري ، يقدمان شرحاً أحسن إعداداً عن التشيع بابرازهما أسباباً عديدة لأماكن انتشارها ، ولاسيما العناصر العرقية والاقليمية ومصالح الطبقات ، وأخيراً الحوافز الشخصية ، موضحان هكذا الأبعاد الاجتماعية والنفسية للشيعة ، فإذا استهوى المذهب الشيعي الأفراد

---

(١٢) المرجع نفسه كذلك أحمد أمين في «فجر الاسلام» ، دار الكتاب العربي ، ص ٢٦٨

(١٣) أحمد أمين «ضحى الاسلام» ، ج٣ ، ص ٢٣٧ ، و٢٧٨ ؛ محمد أبو زهرة « فروق مذاهب الشيعة » في المذاهب الاسلامية ص ٦٣ .

وبعض الجماعات في بلاد مختلفة فالحوافز قلّما كانت هي نفسها . فجماعة الشيعة كانت تضم في كل حالة ، كأي حزب سياسي ، المناضلين الحقيقيين والانتهازيين . وكان بين الشيعة وبين رؤسائهم ، أولئك الذين يكرهون السلطة المركزية أموية أولاً ثم عباسية ، لأنهم كانوا هدفاً للظلم . وكان بين العرب أولئك الذين يعارضون الأمويين لأسباب قبلية خالصة : ولأن الأمويين كانوا في السلطة ، فالقانون القبلي يفرض عليهم أن يكونوا ضدهم . وكان هناك العديد من الموالي (أعجام اعتنقوا الإسلام) الذين كانوا يعلنون عن تشيعهم ، لأن سيادة الأرستقراطية كانت تلغي حظهم في التقدم . ويذكر أحمد أمين سبباً آخر ، هو ببساطة رغبة غير المسلمين في تخريب الإسلام الذي كان يتهددهم وكانوا يتنافسون معه . رغبة نفهمها جيداً في أيامنا عندما نرى كيف تعطى أخبار العالم الإسلامي في التلفزة الغربية . أخيراً هناك عنصر التشيع الفارسي الذي يقحم من جديد مبدأ أساسياً للاسلام العربي : ألا وهو مبدأ المساواة للجميع .

يقول لنا أحمد أمين أن العديد من الفرس أصبحوا شيعة لأنهم تعودوا في ثقافتهم على تقديس المَلَكِيَّة . فالملكية مقدسة ، إذ أنَّ دم الملوك مختلفٌ عن الدم الذي يسيل في عروق الشعب ، وهي فكرة غريبة قطعاً على الحضارة العربية التي إذ لم تنف الطبقات الاجتماعية لكنها تردها إلى سلطة الأقوى وليس إلى سموٍ في الدم[١٤] . وعندما أسلم الفرس أخذوا عن النبي مفهوماً كسروياً . فذرية النبي (أهل البيت) بالنسبة لهم مثل ذرية الملوك القدامى للفرس هي كائنات مقدسة ، فإذا مات النبي فأهل بيته (ذريته) يستطيعون أن يحلو محله . فأولاد فاطمة بنت «النبي» وعلي فقط يستطيعون ادارة المجتمع الإسلامي وكل الآخرين محتالون . من هنا يأتي

---

(١٤) أحمد أمين ، (ضحى الاسلام) ص: ٢٠٩-٢١٠ .

التعلق الغريب بالنسب من قبل مدعيّ السلطة الشيعيين ، هذا التعلق الذي يتعارض ورسالة المساواة في الإسلام . الرسالة التي تصر على أن نوعية الإيمان لدى الفرد هي وحدها مايمكن المطالبة بها شرعياً لتثبيت سموّه على غيره . من هو أبوك أو أمك تصبح مسألة لاأهمية لها لدى الإسلام السنة على الأقل على مستوى المبادئ . فإنهاء غطرسة الارستقراطية القبلية العربية الجاهلية والقضاء على ادعاءات السيطرة كانت ، في أعين النبي مبدأً أساسياً للدين الذي كان يبشر به . وحين كان النبي يوكل لعبيد ـ رغم المقاومة والضغوط ـ مهام إدارية ذات مستوى عالٍ في جيشه ، كانت مخصصة في البدء للعناصر الارستقراطية من قريش ، فإنه كان بذلك يظهر الأهمية التي كان يُضفيها على مسألة الكفاءة كبديل للارستقراطية(١٥) . ونحن هنا أمام خلاف جوهري بين مفهوم الكفاءة السني للرئيس السياسي ومفهوم الشيعة

(١٥) هنا يردنا سؤال براغماتي: ماذا نقرأ في بضع ساعات لفهم ظاهرة الشيعة ؟ سيتعلق هذا باللغة التي نخضع لها . فبالنسبة لهؤلاء الناطقين بالفرنسية انظر أولاً الى كلمة «شيعة» و «اسماعيلية» في الموسوعة الاسلامية . ستشعرون فوراً بروعة الذكاء وإنْ يستيقظ دافع الفضول عندكم ، وهذا سيحصل دون ريب ، عندها اقرؤوا فصل «الشيعة والفلسفة النبوية» لهنري كوربان HENRY CORBAN في تاريخ الفلسفة الاسلامية في كتاب الجيب الصادر عن دار غاليمار (مجموعة فوليو FOLIO رقم ٣٩) ، في الصفحات من ٤٩ الى ١٥٤ . وإنه لمن الصعب جداً تصوركم بعد هذه القراءة المستغرقة في النقاش حول الموضوع . ستتألقون في المنتديات الفكرية وستدعون الى التلفزيون . وأما بالنسبة لأولئك الذين يمتلكون مزية نطقهم بالعربية ، فان النصوص الثلاثة التعليمية المهمة والتي أفضلها هي :
ـ محمد أبو زهرة «فروق المذاهب الشيعية» في المذاهب الاسلامية . مكتبة الذهب ، مصر ، ١٩٢٤ . تركيز مكثف بدقة خارقة في زهاء الخمسين صفحة من (٥١ الى ١٠٤) .
ـ أحمد أمين ، الفصل ٢ من الجزء ٧ «الشيعة» في فجر الإسلام ، الصفحات من ٢٦٦ إلى ٢٧٨ .

الأرستقراطي .

والوقت مناسب هنا للوقوف برهة مع **ابن منظور** مؤلف كتاب (لسان العرب) لاستكشاف اشتقاق كلمة شيعة[١٦] . وتصفحنا لمعجم القرن الثالث عشر يجعلنا نغوص في الطبقات العميقة للغة ، التي تملي علينا بصورة غير شعورية تقريباً مفهومنا الحالي لحق الخلاف والحوار في الحلبة السياسية مع معارض ليس له الآراء نفسها . ومايثير الخلاف السني الشيعي هو قبل كل شيء مسألة الديمقراطية ، أي المقدرة في مجتمع اسلامي على إدارة حق التعبير أو عدمه وكذلك ادارة مصالح الجماعات التي لها آراء مختلفة ورؤيا متنافرة عن الآخرين والسلطة .

كلمة شيَعْ تعني أولاً فِرَق أي «مجموعات من الناس يتجمعون على فكرة مشتركة» . «وكل جماعة من الناس تجتمع حول فكرة ، تسمى شيعة» ويوجد فيها أيضاً فكرة الملازمة والتشجيع . وكل مجموعة تجتمع حول رئيس وفكرة تدعى شيعة لأن كلمة شيعة في الأصل حسبما يقول ابن منظور ، تعني تبع وطاوع . فإن أحد أسماء الزوجة هو شيعة الرجل لأنها تتبعه وتدعمه . وقد بسط الرابطة بين كلمة شيعة وفكرة القطيع (شيَعْ الغنم) فكلمة شيعة هي الصوت الذي يصدره ناي الراعي لأنه بهذه الآلة يجمع القطيع .

وفكرة القوة الثانية وهي أساسية أيضاً ، هي فكرة الخلاف . فكلمة

---

٤٠ ـ أحمد أمين «ضحى الإسلام» جزء ٣ . فصل ٢ «الشيعة» صفحات ٢٠٨ ـ ٣١٥) يحكي في زهاء مئة صفحة ليس فقط عن أصولهم وانما نقاط تناقضهم مع السنة فيما يتعلق بالعقيدة والاجتهاد ، لمحة موجزة تاريخية سياسية ، سارداً بالتفصيل الاعمال البارزة المتعلقة بصراعهم مع العباسين أي الحقبة التي نعنيها هنا .

(١٦) لسان العرب ، «انظر كلمة «شيعة» .

شيعة تعود إلى جماعة ليسوا متفقين (ليسوا كلهم متفقين) فالشيعة هم أولئك الذين يرون الأشياء بشكل مختلف ومفهوم الخلاف هذا كان ينطبق اذن على فئة محددة جداً . لأنها كانت تتعلق بالطوائف اليهودية والمسيحية . فقد قال الله في القرآن "الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً" والله يشير هنا إلى اليهود والمسيحيين لأن اليهود كالمسيحيين يشكلون مجموعات يكفرون بعضهم بعضاً فاليهود يقولون أن المسيحيين كفرة والعكس بالعكس في حين أنهم في البدء تلقوا الرسالة نفسها .

ثمة كلمة أخرى في اللغة العربية الحديثة تشير إلى مجموعة سياسية لها رؤية عن الأشياء مختلفة ، هي كلمة حزب . ولاعلاقة لهذا التعبير بالديمقراطية البرلمانية . إنه يحمل عواطف غامضة نحو حق الخلاف . وكلمة حزب ككلمة شيعة تعني «مجموعة من الناس متحدين حول فكرة» بمعناها الواسع هذا عن الخلاف السلبي والمخرب بالضرورة هو ما يجعلنا نفكر ملياً في التعابير السياسية التي نستعلمها يومياً . فكلمة حزب التي تستعمل في جميع العالم العربي لتعني الحزب السياسي في معناه الحديث ، أي الغربي ، تُشير إلى كل مجموعة ذات قلوب متحدة ويباشرون عملاً مشتركاً . ولكن كلمة **أحزاب** جاءت كعنوان لإحدى سور **القرآن** ، وقد قُصد بهذه الكلمة «أعداء النبي ، جنود الكفار ، وهم أولئك الذين تحالفوا وتآمروا عليه»(١٧) . وثالث فكرة عن قوة كلمة شيعة هي أنها تعني «أضرم النار» وهذا مايربط في ذهننا مفاهيم الخلاف والتخريب ؛ وهو تعريف التعصب نفسه الذي ينكر الحق في الإختلاف . ألا نستعمل كلمة شايع كما يذكرنا **ابن منظور** لتعني «أجّج النار (شايع النار) أي أعطاها **قوة بالقائه** فيها قطعاً صغيرة من الخشب» ويشرح فيقول إننا «نقول **شيوع** وشيع **لقطع**

---

(١٧) انظر كلمة «حزب» في لسان العرب لابن منظور .

الخشب الصغيرة التي بها نؤجج النار» . وبإجماع الآراء نستخلص أخيراً أن عبارة : شايع الرجل تعني : حرقه .

تبقى الفكرة الرابعة والأخيرة عن القوة لكلمة الشيعة ، هي أنها تعني إذاعة السر . وسيكشف لنا هذا البعد للتو مكانة العقيدة السرية والتلقين النظري للأنصار كتقنية ضرورية لبقاء المعارضة . وتتفرد المعارضة الشيعية بديانتها السرية والتزام السرية للنصير الجديد وحدها قادرة على ضمان النجاح . فعلي العاهل اليمني زوج أسما ومؤسس السلالة الصليحية هو المثال الكامل لها . أتم خلال خمسة عشر عاماً مهمة نشر أفكار دعوته في الظل قبل أن يعلن نفسه معارضاً مسلحاً ، كقوة عسكرية مقابل الخليفة السني في بغداد .

ولكي ندرك جيداً مفاهيم السرية والخفاء هذه ، أي تنظيم مراقبة المعلومات خاصة ونشرها ، وكذلك طابع المعارضة في الإسلام ، ماعلينا لادراك ذلك كله إلاّ أن نعود إلى ابن منظور[١٨] . فكلمة شاع «أي انتشر تستعمل للخبر الذي ينتشر بين الناس» . ويشرح فيقول ومنه كلمة الاشاعة «النبأ الذي يعرفه كل الناس» . ونجد الجذر نفسه في لغتنا العربية الحديثة يعطي معنى انتشار الضوء ؛ ومنه الأشعة وانتشار الاشاعات الكاذبة . ويذكرنا ابن منظور أنه من أجل القول «أفشى السر» ثمة فعل يتشكل من جزر كلمة شيعة : فإن أقل أشعت السر ، فهذا يعني أني أفشيته للآخرين» . ولم يعد مذهب الشيعة في القرن الحادي عشر في زمن علي

---

(١٨) صحيح أنه تقريباً ، جميع المنشورات القديمة لكتب التراث الاسلامية ، مطبوعة على ورق أصفر سيء النوعية ، لكنها رخيصة الثمن ، وقلما يهمل هذا كتفصيل . وفضلاً عن ذلك فهذا مايفسر هذه الحركة الغريبة لهذا الأدب ولما يطغى هذا النوع من الأدب في جميع معارض الكتب العربية ، في العدد والثمن المنخفض ، على كل هذا الذي ينتج بشكل حديث (مودرن) على ورق ذي نوعية جيدة .

الصليحي معارضة سياسية هامشية ملزمة على السرية التي كانت تمارسها تقليدياً حتى ذلك الحين . بل أصبحت تتقلد منصب خليفة حقيقي شيعي رسمي مركزه **القاهرة** ، والأبهة والطقوس والبذخ التي كانت تُرى عند السنة وُجدَت كذلك عند غريمهم الخليفة الفاطمي ، العدو اللدود للخليفة السني في **بغداد** . **فعلي** ، العاهل اليمني كان تابعاً للفاطميين في القاهرة وبصفته هذه صمم على بلبلة المذهب السني . ولكن بُعْدَ السرية في المذهب الشيعي لايقتصر على وضع تاريخها المعارض الحدي بل له أهميته وبخاصة في رؤيتها للعالم ، وفي فلسفتها العميقة . وهذا مايعطيها في هذه الأيام هذا السر المنقطع النظير في استعمال وسائل الاعلام وتنسيق الستراتيجيات بكفاءة إلى درجة أن جهابذة الاعلام الأوروبية والأمريكية يبدون وكأنهم مبتدئون في هذا المجال .

هل نستطيع أن نقول مع ذلك أن ظاهرة التشيع ظاهرة ايرانية ؟ إن هذه الفكرة بدون شك ، غالية جداً على العديد من الناس . أولاً على تلك الفئة من العرب التي تزعم أن الأفكار الهدامة هي آراء خارجية وغير عربية ، أولئك الذين يسطون الأمور وهم يخطبون بإطناب أن الشيعة ظاهرة ايرانية ، وثمة كذلك بعض الصحفيين الغربيين من جهلة التاريخ ، الذين اكتشفوا فجأةالمذهب الشيعي مع الثورة **الإيرانية** ، مستدرجين هكذا الملايين من الغربيين إلى هذا اللبس بين المذهب الشيعي **وإيران** . والحقيقة هي أن الشيعة قبل كل شيء ظاهرة عربية أصيلة حتى ولو أن مساهمة غير العرب من ايرانيين وغيرهم ولاسيما من وجهة النظر الفكرية ، كانت مهمة جداً . ففي القرن الرابع للهجرة (العاشر ميلادي) لفت **الخوارزمي** الإنتباه إلى واقع أن وطن الشيعة وأرض ولادتها كانت بدايةُ **العراق**(١٩) . ولم

(١٩) ذكره **آدم متيز** Adam Metz (**الحضارة الاسلامية** ج ١ ، ص ١٢٠

يكن في بلاد **فارس** من يتبنى التشيع سوى تلك الأجزاء المجاورة **للعراق** والتي كانت على اتصال مع العرب المؤمنين بهذه العقيدة[20] . والدولة الشيعية الأولى التي عارضت رسمياً الخليفة السني **في بغداد**، كانت قد رأت النور في **شمالي افريقيا** أولاً ، ثم في مصر مع انشاء الخلافة الفاطمية في القرن العاشر . والمذهب الشيعي للدولة الأولى هذه ، هو ماعُرف تحديداً **بالاسماعيلية** . نسبة إلى **اسماعيل** أحد أحفاد **علي** الذي يدعون الانتساب إليه (انظر لائحة الأنساب)[21] .

والاسماعيلية ، الفرع الرئيسي للشيعة الذي بقي حتى يومنا هذا هي المذهب الرسمي لمجموعات عديدة من المسلمين المبعثرين في أنحاء العالم ، ولاسيما **الدروز** في لبنان ومجموعات مختلفة في آسيا ومنهم الجماعات الموزعة **في بومباي** BOMBAY **وبوروودا** BORODA **وحيدر أباد** HYDERABAD **في الهند** . وقد اشتهرت إحدى هذه الجماعات لأن زعماءها **الأغاخانيين** (عائلة آغاخان) كانوا يستأثرون بنشرات الأخبار في الأربعينات بربطهم حياتهم إلى نجوم الأزياء والسينما الغربية ، وهكذا كان زواج الأمير **علي خان** ابن أحد الأئمة الاسماعيليين في عام ١٩٤٩ من الممثلة **ريتا هايورث** . إنه الحدث الذي يُشكل حتى في أيامنا إحدى الأساطير الأكثر تأكيداً للحصول على دخول من وسائل الاعلام . «فباسم ٧٠ مليون من **أتباع آغاخان** أبي **علي** أهدت**افريقيا والهند إلى ريتا**

---

(٢٠) المرجع نفسه .

(٢١) اصل الفاطميين هو موضع نزاع يمكن الشك فيه .**فابن الأثير** ، بصفته مؤرخاً من القرن ٣هـ ، يعطينا ، وهو يناقش هذا الموضوع ، درساً حول تجربة كتابه موضوع التاريخ . فهو يعرض واحدة فواحدة الحجج التي تقول بأن **الفاطمين** كانوا مخادعين ، وأنه لم يكن لهم أي شيء يربطهم **بعلي وفاطمة** ، ويلغيها منطقياً ، باستخدامه المعلومات التي رتبها لهذه المناسبة . ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٤٦ .

هايورث ١٦ كيلو غرام من الماس والأحجار الكريمة»[٢٢] .

لقد وجه الاسماعيليون ضربة قاتلة للخلافة العباسية السنية بانشائهم الخلافة الشيعية المنافسة في القاهرة في أواخر القرن العاشر ، وهي خلافة الفاطميين[٢٣] . وقد اختار هؤلاء لأنفسهم هذا الاسم استناداً **إلى فاطمة بنت النبي** (انظر لائحة الأنساب) . **وفاطمة** المرأة الرئيسية التي إليها يرقى النسب ، في نظام قرابة هو ، بشكل نظري محصور* بالذكر ، **فاطمة** هذه هي بنت **النبي محمد** الذي لم يترك خلفاً ذكراً ، إذ أن كل أبنائه كانوا قد ماتوا صغار السن . وإضافة إلى ذلك كانت فاطمة متزوجة من ابن عم أبيها **علي ابن أبي طالب** والتي ولدت له ولدين ، **الحسن والحسين** اللذين هما وحدهما المعتبران ـ وبسبب أمهما ـ كمخلّدين لذرية النبي والمالكين الشرعية في إدارة شؤون المسلمين . ويقول بعضهم أن فاطمة ولدت **لعلي** ولداً ثالثاً مات في سن مبكرة وهو المحسن[٢٤] . وادعاء النسب إلى النبي

---

(٢٢) ايرين فرين Irene Frain «ريتا هايورث ، الهوى والقدر» في سلسلة «كبار المغرمين» الذين يخطون بالخط الاحمر «امورأراهنة» دوباري ماتش ٣١ آب ١٩٨٩ . وقد خلف كريم خان الحالي جده السلطان محمد شاه في عام ١٩٥٧ . المقر الدائم للإمام هو بومبي . ويدعى فرع الاسماعيلية هذا بالنزارية وهو مرتبط جداً بـ «أسياد الموت» مركز الشيعة المتطرفة القوي والذي أرعب المنطقة بإطلاقه أمواجاً من المجموعات المسلحة ضد خليفة بغداد العباسي . ولم تدمر قلعة **الموت إلا مع مجئ** المغول ، حيث أخذها هولاكو بن جنكيز خان في سنة ٦٥٤/ ١٢٥٦ . وقد عاش أئمة الفرع الإسماعيلي هذا في الخفاء على مدى قرون . وبعد محاولة تأسيس دولة مستقلة في كرمان ، انتهى فرع الأغاخانات بالإقامة الدائمة في الهند عام ١٢٥٩/ ١٨٤٣ . وأصبحت **بومبي** مقرهم الدائم منذئذ . انظر هذا الموضوع «الاسماعيليين» في الموسوعة الاسلامية .

(٢٣) انظر شجرة النسب المحددة في آن واحد ذرية **علي والأئمة الشيعيين** ، متضمنة فيها الاسرة الفاطمية «تاريخ الدول الاسلامية» أحمد سيد سليمان ، ص ١٣٣ .

(٢٤) الطبري ، (تاريخ الأمم والملوك) دار الفكر ، ١٩٧٩ .

يرجع بالضرورة إلى ولديْ الزوجين **فاطمة وعلي** وهما **الحسن والحسين** (انظر لائحة النسب في آخر الكتاب) . وبعد وفاة **فاطمة** تزوج **علي** ثماني نساء ، و **ابن الحنفية** هوالوحيد من بين أولادهن الذي سيلعب دوراً سياسياً[٢٥] . ولكي نفهم أهمية **علي** لدى الشيعة يجب أن نستدرك أكثر من نسبه ، يجب أن نستدرك أيضاً مماته : فقد مات شهيداً . واغتياله أُعِدَّ سياسياً وبدقة ، وكان هذا بعد أن نُوزع في السلطة من قبل الخليفة **معاوية** . وسيكون أولاده وأحفاده من بعده هم المضطهدون . وفيما بعد أصبح اسم **علي** مرتبطاً بالظلم (القتل ظلماً) وبالاغتيال السياسي للبراءة وخرقِ رسالة الاخوة والمساواة بين المسلمين . وهكذا سيصبح **علي** الرمز الذي يجتمع حوله كل أولئك الذين يشعرون أن حقوقهم نُكرت أو الذين يُعاملون معاملة ظالمة[٢٦] .

---

(٢٥) حقاً ان الولد الثالث **لعلي** من أم أخرى غير فاطمة ، هو **محمد بن الحنيفة** ، وسيلعب أبناؤه دوراً سياسياً ـ دينياً كونهم من ذرية علي .

(٢٦) اجلالُ واحترامُ **علي** كفرد فذ بمعيار فعل الحاكم العادل ، بدأ بعد الخليفة الثالث عثمان الذي هو من فرع اموي والذي كان قد أظهر حكماً غير عادل بشكل واضح في تعيينه لكثير من أفراد عائلته في مراكز المسؤولية . وقد حُكم ان هذه المحاباة لانطلاق وأن الخصومات ارتدت على علي ، المنقذ ، علي المؤهل لإعادة آلية السياسية الى سيرها على الطريق المستقيم ، أي أنه هو العدل . انظر: محمد أبو زهرة «فروق مذاهب الشيعة» في المذاهب الاسلامية ، مكتبة الذهب ، مصر ، ١٩٢٤ ؛ انظر كذلك أحمد امين في (ضحى الاسلام) صفحة ٢٠٩ و ٢١٠ .

متى أصبح **علي بن أبي طالب** رمز المضطهدين والزعيم المؤهل لتحقيق الحكم العادل؟ يحدد المؤرخون حكم الخليفة الثالث عثمان المضطرب جداً والذي بدأت تفسد فيه العدالة بين المسلمين ويُقارنونه مع من جاء في عقبه ، علي قريب النبي ، ويلح هؤلاء بخاصة على أمرين ، المحاباة ، والثروات التي تجمعت في تلك الفترة (أيام عثمان) ، وثروته بخاصة . انظر المسعودي (مروج الذهب) ج٢ ، ص ٣٤١ وما يليها . ←

والمعارضة السياسية للأنظمة القائمة في الإسلام عُبّر عنها وعلى مدى العصور بعبارة ادعاء النسب ، والادعاء بالنسب كان دائماً مجال نزاع من قبل المعارضين السياسيين . والفكرة الأساسية عند الشيعة هي أن علي قريب النبي وذريته هم وحدهم الذين كانوا قادرين أن يكونوا عادلين كما كان النبي . لأنه ولو أن جميع الخلفاء منذ وفاة النبي انتسبوا جميعاً إلى جدٍ واحدٍ وهو قريش إلا أن درجة نسبهم مع فرع النبي اختلفت كثيراً - فالأمويون لايشتركون معه إلاّ في جدين قرشيين ، والعباسيون أقرب إليه لأنهم ينحدرون من عمه العباس ويتقاسمون معه أربعة أجداد (قريش - عبد مناف - هاشم - عبد المطلب) . وعلي وحده كانت قرابته مزدوجة من النبي ، فهو من جهة ابن عم شقيق (إذ أن عبدالله أبا النبي كان شقيق أبي طالب ، أبي علي ، انظر لائحة النسب) ، وهو من جهة أخرى صهر النبي زوج ابنته فاطمة وأبو أولادها . وقرابة النسب الحميمية هذه هي أساس شرعية الفاطميين التي ، فوضتهم في إنشاء الخلافة المضادة التي تستطيع تحقيق حلم نظام سياسي عادل على الأرض ، ألا وهو النظام الشيعي . وخطتهم كانت واحدة ومنهجية : بداية تشكيل جيش من الأنصار وتزويدهم بالمعارف والعلوم الأساسية ، وتحويلهم إلى جنود يأتي ، بالطبع فيما بعد . وتَسلُّم السلطة من قبل الفاطميين تُبين درجة الكمال لهذه الخطة . فالقادة الأوائل للفاطميين الذين كانوا يعملون على الأرض ، لم يكونوا أولئك العسكريين محدودي النظر ، الذين كانوا يتعلمون حديثاً استعمال السلاح ، لقد كانوا قبل كل شيء علماء كبار في الفكر الشيعي وكانوا يبهرون القادمين الجدد بعرضهم الرؤية العجيبة عن عالم حيث الحياة البشرية فيه ترتبط سراً بضوء الكواكب ومسارات النجوم» .

← انظر أيضاً الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ج٥ ، ص ٤٣ .

وقدوم الخليفة الفاطمي إلى افريقيا الشمالية (٢٩٧هـ/٩٠٩م) وإلى مصر بعد نصف قرن (٣٥٨هـ/٩٦٩م) ، هو توقيت هام في تاريخ الإسلام - ويمثل الحادث السياسي الأكثر بروزاً في القرن الرابع الهجري ، فمؤسس السلالة **المهدي الفاطمي** واسمه الكامل هو **عبيدالله بن محمد بن جعفر المصدق بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ٢٥٩/٨٧٣) ـــ (٣٢٢ / ٩٣٤) ، استولى على السلطة في افريقيا بعد أن نصحه داعيته أبو عبدالله الحسين** المكلف بالدعوة والتبشير به ، بالظهور . و **أبو عبدالله الحسين** هذا هو دماغ فاعل في حقل الارشاد فقد كان يعرف كيف يعمل : منطقة جاهزة للاحتلال عسكرياً بعد ان تشرب شعبها بالرسائل الشيعية المصطلفاة ببراعة والمعبرة بدقة . وكان **أبو عبدالله الحسين** قوياً كداعٍ ومبشراً خبيراً ، حتى أعطى له لقب «الشيعي» بكل بساطة . وبدأ عمله في **مكة** خلال موسم الحج عندما كان يفتش عن وفود قبائل **البربر** المتلهفين للاستقلال منذ القديم ، ولاسيما قبائل **كتامة** المحاربين الذين سيصبحون رأس حربة للجيوش الفاطمية . «أين هم حجاج قبائل كتامة ؟» ؛ ذلك كان سؤاله وسط المد البشري الذي جاء مبدئياً للصلاة والدعاء إلى الله[٢٧] . وعندما استدل عليهم ، قدّم نفسه لهم ، وتناقش مع زعمائهم ثم جاءت اللحظة التي تُحرى فيها عمَّ هو أساسي : «أفتحملون السلاح ؟» فأجاب رؤساء كتامة فجأة : «هو شغلنا !»[٢٨] . وسيكون هذا اللقاء قدرياً : فالشيعة الثورية الشرق أوسطية وجدت جيوشها في المغرب الأقصى . وبعد الاتصالات التي تمت في **مكة** انتقل اليمني إلى المغرب عام (٢٨٠/٨٩٣) وبدأ بتحضير قبائل البربر لفكرة المهدي المنتظر . وكان

---

(٢٧) ابن الأثير «ارسال أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب) في الكامل ج ٦ ، ص ٤٥٠

(٢٨) المرجع ذاته .

المقصود خلق فترة انتظار يحتاجها الإمام للقيام بحل كل المشاكل . وعندما بلغ الهدف أرسل رسلاً لإعلام المهدي الفاطمي ، الذي كان يعيش في الخفاء ، بضرورة المجيء إلى شمالي افريقيا حيث سيستقبل استقبالاً حاراً ، وقد اتضحت صحة ذلك روحياً وعسكرياً . وفي عام ٢٩٦ ، ظهر **الفاطمي** في **سجلماسة** وأعلن أنه المهدي المنتظر الذي سينقذ العالم[٢٩] ، وينشر العدل الإسلامي الذي فشل الخلفاء الآخرون في تحقيقه . وقد تجمعت جميع عناصر النُّبوءة الثورية . ولم يبق لتحويل العالم إلا بضعة أشهر لاأكثر . في عام ٢٩٧ هـ قدمت له البيعة في **القيروان** ، وهو احتفال للاعتراف الرسمي المخصص للعاهل . وفي عام ٣٠٣ هـ بنى مدينة **المهدية** في ضواحي **تونس** الحالية وثبتها عاصمة له[٣٠] . وفي عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م - احتلّت **مصر** وهناك ازدهرت السلالة الفاطمية . لقد كانت **افريقيا الشمالية** بعيدة جداً ومنعزلة كثيراً وغريبة كثيراً . وعلى العكس من ذلك فإن **القاهرة** ستمنح السلالة الجديدة امكانية الوجود ، وإشعاعاً لامثيل له . ومنذ ذلك الوقت صار للعالم الإسلامي خليفتان ، خليفة سني في **بغداد** وآخر شيعي في **القاهرة** . والعديد من صفوة الناس المحليين الذي كانوا يرغبون بانشاء دول مستقلة والإمتناع عن دفع الضريبة **لبغداد** ، راحوا يتبنون الاسماعيلية . وستبقى السلالة الفاطمية قرنين من الزمن في السلطة من القرن العاشر حتى نهاية القرن الثاني عشر تقريباً ١١٧١/٥٦٧ متحدية المذهب السني ، محتلة أراضيه وسامحة لمعارضيه ، من أمثال السلالة الصليحية في اليمن ، بأن تنشئ دولاً معارضة مستقلة ، كل ذلك باستنادهم إلى عائلة النبي وذريته من **علي وفاطمة** .

---

(٢٩) المرجع ذاته ج ٦ ، ص ٤٥٢ .
(٣٠) المرجع ذاته ج ٦ ، ص ٤٥٥ .

هذا النسب ، يمكننا أن نتصور بسهولة ، كيف رفضته السلطات الدينية في بغداد . وذهب بعضهم إلى أن قالوا أن المهدي الفاطمي كان دجالاً ومن أصل يهودي (جعلوا نسبه يهودياً) . ويروي **ابن الأثير** ، بعد الدلائل المستندة إلى وقائع تاريخية ، أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن الفاطمي الأول كان ولاشك من ذرية **علي**(٣١) . ولم تكن الصراعات بين الخلفاء العباسيين السنة في **بغداد** والخلفاء الشيعيين في **القاهرة** لتنتشر فقط في ساحات القتال ، وتعبئة الجيوش . فالصراعات الدنيوية ، كما هو الأمر في جميع مايتعلق بالسلطة في **الاسلام** ، ينبغي بالضرورة أن تتزاوج بالصراعات الروحية التي تنتشر على الساحة الدينية ، وتعبئ جيوش المفكرين والهيئات الدينية ، عالِمٌ هنا وداعٍ هناك(٣٢) . ولكن إذا كان القرن الرابع الهجري سمح للشيعة ، (المطاردين دائماً) أن يؤسسوا أخيراً خلافتهم الخاصة وأن يحققوا حلمهم في دولة يديرها إمام مثالي ، الإمام المنتظر كما في العديد من النبوءات الثورية ، فإن الحلم قد انقلب بسرعة إلى كابوس . فسكان **افريقيا الشمالية** الذين كان لهم شرف وامتياز الأوائل في تحقيق الحكم الثوري لدولة الشيعة ، انقلبوا بسرعة ، وجرت مذابح الشيعة (الذين كانوا يسمون مشارقة) في **المهدية والقيروان** في عام ٤٠٨ هـ أي بعد أقل من نصف قرن من مجيء **عبيدالله المهدي** أول امام منتظر . وقد ذُبح

---

(٣١) المرجع ذاته ج ٦ ، ص ٤٤٧ .

(٣٢) من المفيد ان نَذكّر هؤلاء الذين «يستعملون» أجهزة الترانز ستور لتنقل لهم الأخبار حول ماكان يجري على الجبهة من إذاعاتهم الوطنية ، أثناء الحرب العراقية الايرانية وكيف كانت تأخذ نبرات (الجهاد) الديني الفعلي حيث كان كل طرف يلغي شرعية الطرف الآخر . انها نسخة واقعية عن المعركة بين بغداد والقاهرة في القرن (١١) مع فارق أن هذه حدثت منذ ٩ قرون وأن طرفيها كانوا ، عربيان ، وأن المعركة الأخرى جرت في القرن ٢٠ وأن أحد الطرفين عربي و الآخر ايراني .

الشيعة من قبل **العامة** وقتلوا عن آخرهم كما يقول **ابن الأثير** . فقُتل العديد من الشيعة وأحرق عددٌ كبير منهم بوحشية ونهبت منازلهم . لقد كان صيداً حتى الموت للشيعة في كافة افريقيا(٣٣) . وأعادت **السنة** سلطتها إلى الأبد على شواطئ افريقيا الشمالية ، ولكن حلم الإمام **المعصوم** سيتفتح في **مصر** على فظائع الحاكم بأمر الله ، مجبراً هكذا أخته **ست الملك** على تخليص المسلمين منه ، وأخذ مكانه في السلطة .

نحن بعيدون عن النموذج الذي بموجبه تعتبر **الظاهرة** الشيعية ظاهرة ايرانية . فلم يُقرر المذهب الشيعي ديناً لدولة **فارس إلا في** القرن السادس عشر ومع السلالة الصفوية . صحيح أنه كان في **القرن** العاشر والحادي عشر سلالة فارسية شيعية في السلطة ـ هم **بنوبويه** (٣٢٠هـ /٩٣٢ م ـ ٤٤٧هـ /١٠٥٥م) ، ولكن هؤلاء لم يكونوا قط أعداء خلفاء السنة في **بغداد** ، بل بالعكس فانهم كانوا يكنُّون لهم كثيراً من الاحترام(٣٤) . **العراق** ، دونما نقاش ، كان مركز التشيع ولم يكن كذلك إلاّ بسبب **الكوفة** . فهي المدينة التي فيها قبر **علي بن أبي طالب** ، زوج **فاطمة** ، وأبي **الحسن والحسين** ، الخليفة الراشدي الرابع الذي اغتيل من قبل أول ارهابي في التاريخ السياسي للاسلام ، الارهابي المنتمي إلى الخوارج ، والذين قد يسمونهم هذه الأيام بالعدميين . وسيسقط **علي بن أبي طالب** كأول

---

(٣٣) ابن الأثير ، الكامل ج ٨ ، ص ١١٤ .

(٣٤) أي موجز مكثف وسريع يُقرأ في هذا الموضوع؟انها حجة **أحمد أمين** في «فجر الاسلام» المتعلقة بأصل أفكار الشيعة ، صفحات ٢٦٧ ، ٢٧٨ . ويكرس المؤلف نفسه فصلاً مهماً يُحاول فيه تحليل مساهمة الفرس في الحضارة الاسلامية ، وبخاصة في حقل الافكار الدينية: «الفرس وأثرهم» وذلك في كتابه فجرالاسلام ، ص ٩٨ ومايليها . كذلك يمكن قراءة حجة برنارد لويس «معنى البدعة في التاريخ الاسلامي» ، في كتاب العودة الى الاسلام ، غاليمار ، ص ١٤ ومايليها .

ضحية للعنف السياسي المنظم والسري ، وسيسقط في **الكوفة** التي كانت على الدوام المركز الكبير جداً للمذهب الشيعي حتى القرن الرابع الهجري(٣٥) . ولن تلبث مدينة **البصرة** أن تصبح بسرعة ، مركز الشيعية(٣٦) . أما شبه الجزيرة العربية فقد كانت في القرن الرابع كلها متشيعة باستثناء المدن الكبيرة **كمكة** وتهامة وصنعاء(٣٧). ودور اليمن واليمنيين من أمثال **أبي عبدالله الحسن** دماغ الشيعة في احتلال المغرب ، وآخرون أيضاً مثل معاصره **ابن حوشب** ، دور اليمنيين هذا هو بشكل مطلق رئيسي في الديناميكية الشيعية(٣٨) . وهذا مايستدعيه عن **ابن حوشب** بعد بضعة أجيال ، الداعية الرواحي معلم وملقن **علي الصليحي** ،

---

(٣٥) وحول مجموعة الارهابين الأولى هذه الذين كانوا من الخوارج والذين قرروا الزيادة بالصيغة التي كانت تلهب الحرب الأهلية بين الخليفة **علي** ـ الذين كانوا من مؤيديه في البدء ـ وبين **معاوية** مُعارضه الذي سيصبح أول خليفة من الأسرة الأموية ، حول مجموعة الإرهابين هذه ينبغي مراجعة **المسعودي** : «في سنة ٤٠/ ٦٦٠ اجتمع فريق من الخوارج في مكة وتحدثوا فيما بينهم عن الحروب ، وحينها اتفق ثلاثة منهم على قتل **علي ومعاوية وعمر بن العاص** : قرروا باتفاق مشترك ألاّ يترك أي منهم الضحية المعيّنة له قبل أن يجهز عليها أو يهلك في تعهده . أول هؤلاء المتآمرين كان **عبد الرحمن بن ملجم . . . والثاني يدعى الحجاج** ويلقب بالبراق . . والثالث **زادويه** . عبد الرحمن بن ملجم كان يعلن عن رغبته في ضرب **علي** وتكفل البراق بأمر معاوية والثالث بأمر ابن العاص . وقد اختيرت ليلة ١٧ رمضان أو ٢١ رمضان حسب مصادر أخرى كموعد لتنفيذ الجريمة» .

(٣٦) آدم ميتز مرجع سابق . ابن الأثير (الكامل في) ج٦ ، ص ٤٤٩ . وابن النديم (الفهرست) ص ٢٦٤ .

(٣٧) آدم ميتز ، مرجع سابق .

(٣٨) بالنسبة لابن عبد الله الشيعي ، انظر سيرته رقم ١٩٩ في «وفيات الاعيان» لابن **خلكان** ج٢ ، ص ١٩٢ . بالنسبة لعلاقة ابن الفضل بابن حوشب انظر: ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ج٦ ، ص ٤٤٩ ؛ والفهرست لابن النديم ص ٢٦٤ ومايليها .

الذي لقنه المذهب الشيعي بينما كان لايزال يافعاً وبدون علم والديه كما سنرى[٣٩] . ومع **علي الصليحي** ، الذي سيصبح فيما بعد زوجاً للملكة **أسما** ، فإن المدن (مكة ـ صنعاء ـ تهامة) التي كانت ماتزال خارج قبضة الشيعة سقطت بين أيديهم .

فالمذهب الشيعي في زمن الملكتين اليمنيتين **أسما وأروى** لم يكن إذن، مجرد اضطراب منظم بين مذاهب متباعدة تجمع جماعات صغيرة من الساخطين والمحرومين . بل كان يشكل ، بلا شك ، دولة قوية مُعَبّئةً انطلاقاً من **القاهرة** قوى كاملة ، ومُتسقة باسم عائلة النبي وعلى المستوى الدولي ، لتهديم المذهب السني وخليفته . وعلى خطى الفاطميين استولى **علي الصليحي زوج أسما** وعم **أروى** على السلطة ، وأنشأ سلالة حكمت **اليمن** على امتداد قرن ونيف (٤٢٩هـ/١٠٣٧م ـ إلى ٥٣٢هـ/١١٣٨م) . وقد تلقى من أسياده في **القاهرة** ، وحسب الرمز شبه العسكري للاسماعيليين ، تعليمات محددة حول طريقة إدارة مهمته السياسية ، ولاسيما درجة السرية والسياسة الدعائية الواجب تبنيها ، وعدد الأشخاص الذين يجب إطلاعهم في كل مرحلة ، واللحظة الدقيقة لتأكيد قوته العسكرية[٤٠] .

---

(٣٩) أهمية اليمني (**ابن الفضل**) والذي كان غنياً جداً وقوياً جداً والطريقة التي «جند» بها أيام الحج من قبل «العقول المدبرة» التي كانت تعمل انطلاقاً من العراق ، أهمية اليمني هذا تظهر بوضوح كبير في العرض الرائع الذي يقدمه **ابن الأثير** في تاريخه (الكامل في التاريخ) ج ٦ ، ص ٤٤٩ .

(٤٠) سيرة **علي** موجودة عند ابن **خلكان** في كتابه (وفايات الأعيان) المعتبر كموسوعة للمشاهير ، لم ينتظر (أيّ كتاب وفايات الأعيان) الانكلو ـ سكسون ليصفوا الناس الذين ينفقون على الحوليات ويشغلوا مقدمة المسرح . يبيّز الاعلام هي نوع من الأدب في التاريخ العربي الكلاسيكي ، وتفهرس الرجال والنساء . وابن خلكان هو ←

بعد خمسة عشرة سنة أصبح **علي الصليحي** رجلاً مثقفاً ثقافة عالية . كانت مهمته مرافقة وتوجيه وتحمل مسؤولية مجموعات الحجاج ، الذين كانوا يسافرون سنوياً من اليمن باتجاه مكة(٤١) . قليلون أولئك الذين كانوا يعلمون بأنه وريث **الدعوة** الشيعية في اليمن ، حسب رغبات شيخه ومعلمه وأستاذه **الداعية ابن عبدالله الرواحي** ، أحد «ناشري الدعوة الفاطمية»(٤٢) ، وهو على فراش الموت . وعبدالله الرواحي كان قد تلقى الدعوة من شيخه **يوسف بن أحمد العش** ، وتلقاها هذا بدوره من **هارون بن رحيم** الذي كان تلقاها من **جعفر** ، إبن وَوَريث **ابن حوشب**(٤٣) . وكلمة دعا ، لغوياً ، تعني نادى ، طلب العون ؛ نداء موجه غالباً إلى الله .

---

٤٠ أحد اللامعين جداً في هذا المجال . سيَره قصيرة مملؤة بالمعلومات المتعلقة بالموضوع ومختصرة ، وقد جلبت له الشهرة . وابن خلكان هو المصدر الذي يرجع اليه الآخرون دوماً .

وقد حقق الكتاب (وفايات الأعيان) د . احسان عباس ونشرته دار الثقافة في بيروت (مات المؤلف أي ابن خلكان في عام ٦٨١ هـ من القرن ١٣ ميلادي) . وسيرة علي موجودة في جـ ٣ ، ص ٤١١ ومايليها .

٤١ ـ المرجع ذاته .

٤٢ ـ الداعي علي كان يدعى عند ابن خالكان **الزواحي** في حين أن اسمه عند جميع الكتاب الآخرين والمؤرخين معاً وبدون استثناء هو **الرواحي** . وأنا أقتنع بالتصحيف (في الكتابة) في نسخة ابن خلكان .

٤٣ ـ انظر أيضاً سيرة علي الصليحي في كتب السير الأخرى ، عند **خير الدين الزركلي** (الأعلام ، قاموس لأشهر الرجال والنساء) جـ٤ ص ٣٢٨ ، انظر كذلك **ابن عماد الحنبلي** (شذرات الذهب ، جـ ٣ ، ص ٣٤٦ ؛ وعند عبدالله أحمد التاور (هذه هي اليمن) ص ٢٧٤ ؛ وعند **محمود الكامل** (اليمن) ص ١٦٧ ؛ وعند حميد العلوي (تاريخ حضرموت) بدءاً من الصفحة ٣٤٠ .

ـ مسار ابن **حوشب** الذي يرجع في أصله إلى **الكوفة** ، يقودنا مباشرة إلى منبع الدعاية الشيعية ، **عبدالله القداح** . **فابن حوشب** كان الرفيق والصديق والنصير ←

والنداء الموجه إلى الله هو قوي لدرجة أن كلمة دعاء تعني بكل بساطة العبادة»[٤٤] . ولكن هناك أيضاً فكرة المناداة والدفع والاقناع ولاسيما في النداء إلى الضلالة . ويستنتج **ابن منظور** أن الداعي هو رجل يدعو الآخرين إلى اتّباعه في بدعة أودين . وينجم عنه مفهوم آخر ، الادعاء بشيء غير صحيح «ادّعى الشيئ»[٤٥] .

على أية حال بالنسبة للفرع الاسماعيلي من المذهب الشيعي ، الداعي هو أحد درجات المراتب الكبيرة المتمحورة حول فكرة الكتمان ، التي تشمل سبع مراتب حسب **ابن النديم** (وتسع حسب آخرين) . ودائماً حسب هذا الأخير الذي يبدو أنه أحد المراجع الهامة في مادة الآداب الاسماعيلية ، والتي خصص لها فصلاً في كتابه القيم الفهرست ـ وهو فهرس شامل لكل الكتب المعتبرة هامة والتي كتبها المسلمون حتى عصره (القرن الرابع الهجري) . تجري عملية الدعاية بواسطة سبعة بلاغات وهي رسائل كل منهامُدوّن في كتاب ، موجز تثقيفي يُعطى للمنتسب بالتدريج وحسب تقدمه . ويقول لنا ابن النديم أن الكتاب الأول للعامة ، والكتاب الثاني للمستوى التالي والكتاب الثالث لايُعطى إلاّ لأولئك الذين انضموا إلى العقيدة منذ عام واحد . ويُعطى البلاغ الرابع للذين مضى عليهم عامان في العقيدة . والبلاغ الخامس للذين أمضوا ثلاث سنوات والبلاغ السادس للذين انضموا منذ أربع سنوات . وأخيراً ، يُقبل في كتاب البلاغ السابع

← لابن **القداح** معلم الفكر الشيعي في نهاية القرن الثالث الهجري . **وابن الأثير** يذكر اسم **ابن حوشب** بين رموز الدعاية الشيعية المركزية في ذلك الوقت ؛ انظر ذلك في كتابه (الكامل في التاريخ) جـ ٦ ص ٤٤٩ .

٤٤ ـ لسان العرب كلمة (داعي) .

٤٥ ـ المرجع ذاته .

ذاك الذي يستوعب التحليل والتركيب والكشف الأكبر(٤٦) . والكشف هو كشف السر ، القدرة على رؤية الباطن ، الحاسة الداخلية ، الحاسة المخبأة وراء المظاهر(٤٧) . لاشيء يُلخص بشكل جيد فكرة السر هذه ، إلا البيان الذي أصبح قولاً مأثوراً للإمام السادس الأعظم جعفر الصادق : «إن دعوتنا هي سر في سر ، سر شيء ما ، يبقى محتجباً ، سر يلقنه سر آخر فقط . إنه سر على سر يحتجب بسر»(٤٨) . والتلقين السري نسبياً **لعلي الصليحي** الذي بدأ منذ أن كان صبياً ، حين عهدت به أسرته السنية إلى مربٍ شيعي لتعليمه أسس عقيدة الإسلام ، هو توضيح بارز لهذه الظاهرة .

كان **أبو علي** ، **محمد بن علي الصليحي** قاضياً ضليعاً في العلوم الدينية . وكان يطبق مهنته في جبل **مسور** في مقاطعة **حارز** وكان أحد الأعيان المرموقين . وبصفته هذه فإن شخصيات دينية عديدة كانت تزوره لتقديم الاحترام له . وكان الداعي الشيعي **أمير بن عبدالله الرواحي** أحد زواره الذي كان يتردد عليه ، "لورعه وتقواه" ، وكان يبدي اهتماماً خاصاً **بعلي** الصبي الذي كان مايزال في سن صغيرة جداً ، وكان يُخمن فيه قدرات كامنة . وتختلف المصادر حول الانتماء الديني **لأبي علي** -

---

٤٦ - ابن النديم (الفهرست) ط ١٩٧٨ ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٢٦٨ (مات ابن النديم في سنة ٣٨٥ هـ . وكان قد أنجز كتابه في سنة ٣٨٨ هـ .

٤٧ - يستمر الالتباس والغموض والتناقضات حول مايخص تفصيلات سياقات (التلقين وأنماطه ، لكن الجميع متفقون على شيء واحد ، هو أنه لايُعرف شيئاً كثيراً حول التلقين وأن ذلك يعود إلى السرية التي تحيط به والتي هي جزءٌ كامل من المذهب . انظر آدم ميتز «الحضارة الإسلامية» جـ ٢ ، ص ٧٦ وحول المراتب (الموسوعة الإسلامية) «الاسماعيلية» . وحول مفهوم السرية اقرأ «الباطنية . L esoterisme » ، في تاريخ الفلسفة الإسلامية لهنري كوربان Henry Corbon ص ٦٦ ومايليها .

٤٨ - هنري كوربان ، ص ٦٧ و ٦٨ .

فالقاضي كان سنياً حسب **ابن خلكان**(٤٩) . وحسب **ابن عماد** المؤرخ الحنبلي المعادي للشيعة (الحنابلة معروفون بتصلبهم) ، كان لديه اعتقادات مشوشة (كان سيء العقائد)وهذا ما يجعله شيعياً بكل بساطة(٥٠) . وعلى كل حال أظهر الرواحي في إحدى زياراته رغبة في تعهد ابن القاضي ، فعهد إليه هذا بتعليمه . وهكذا أصبح معلم علي . ومن بين الرسائل الرئيسية التي رسمها في ذهن الصبي تلك التي تشعره أن اليمن لاتنتظر إلا إياه ، وأنه البطل المقدر له أن يعيش ملحمة مدهشة . وكان الرواحي مقتنعاً بأن علياً كان كائناً استثنائياً . فصورته هي تلك الموصوفة في كتاب قديم قيّم جداً ، اسمه **كتاب الصور** وهو الكتاب الذي يسمح بمعرفة المستقبل وتوقع الأحداث(٥١) . هذا الكتاب الكنز ليس إلا واحداً من بين كتب أخرى تشكل جزءاً من مكتبة الرواحي ، الذي ينبغي عليه بصفته مؤتمناً على المهمة الشيعية أن ينقلها لاحقاً إلى من سيتابع مهمته السرية(٥٢) . وكان

---

٤٩ ـ ابن خلكان ، جـ ٣ ، ص ٤١١ من (وفايات الأعيان) . ويؤكد آخرون أنه كان سنياً : الزركلي (الأعلام) جـ ٤ ، ص ٣٢٨ ؛ وحميد العلوي ، (تاريخ حضرموت) ص ٣٤٠ .

٥٠ **ابن خلكان** . مرجع سابق ، جـ ٣، ص ٤١١ ؛ ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب) جـ ٣، ص ٣٤٦ .

٥١ ـ المرجعان ذاتهما .

٥٢ ـ ماتزال الكتب التي تبحث حول الشيعة ، الكنوز القديمة هذه ، ماتزال مبعثرة وكثير منها مايزال في ايامنا حريزاً يصعب الوصول إليه . وحينما نفكر في جميع المكتبات المتخصصة بالإسلام الباقية قيد الانشاء وفي علم آثار معرفة المسلمين الموجود بصعوبة ، وفي كل هذه المنشآت العلمية التي لايهتم أحد بتأسيسها واستثمارها ، نتحقق إلى اي درجة هي الذاكرة الإسلامية رهينة الانتهازية السياسية . جميع السياسيين يتحدثون باسم هذه المعرفة ، ويحاولون احتكار الكلام عن الأفكار باسمها لكن أياً منهم لم يفكر في توظيف جزء من الثروات البترولية في تدوين قوانينها وحمايتها ←

مقتنعاً أن لا أحد يعرف نشر العقيدة الشيعية بجدارة والدفاع عنها في اليمن **إلا علي** ذو الذكاء الخارق . ولم يترك **الرواحي** شيئاً يرشح من آرائه ومشاريعه إلى الأب ، أبي علي الذي لم يكن يشك في شيء . وفي أحد الأيام وقد شعر **الرواحي** بقرب وفاته وبسبب قلقه على مصير خلافته قرر أن يبوح بسره لعلي . فكشف له عن هويته الحقيقية وأعلمه أنه داعية مبشر مؤتمن على الدعوة الشيعية وحدثه عن مذهبه وبدأ بتلقينه وهو ما يزال دون سن البلوغ(٥٣) .

كان الصبي أهلاً لثقة المعلم ، فحفظ السر ولم يكشفه لأحد حتى لأبيه نفسه ، أما **الرواحي** فقد عينه قبل وفاته وصياً على مهمته ووريثاً للمكتبة(٥٤) . وبدأ **علي** في دراسة الكتب ونظراً لذكائه العظيم فقد أصبح ضليعاً في علوم الاسماعيلية(٥٥) . صار يتلقى الأمر من رئيسه المباشر الخليفة الشيعي في القاهرة وعليه أن يُقدّم له كشفاً بمشاريعه السياسية . وبدأت حالاً سمعة **علي** تجوب البلاد كعالم لامع ضليع في علوم الشيعة . **اليمن**

← علمياً للأجيال القادمة ، ولا في المكتبات المريحة المزودة بوسائل التكنولوجية الحديثة والمتاحف المركزية حيث مُخرجو الأفلام ، الممثلون والممثلات ومعلمو ومؤلفوا كتب الأطفال والراشدون يستطيعون المجيء ليستوحوا وليُوثقوا بدون عناء كبير وبدون اضاعة الساعات في أرتال حول المكتبات النادرة ، المهملة والمقفرة من الخبراء الذين ينظمونها إلى الآن .

٥٣ ـ **ابن خلكان** ، جـ ٣ ، ص ٤١١ ؛ **ابن العماد الحنبلي** مرجع مذكور سابقاً ، جـ ٣ ص ٣٤٦ .

٥٤ ـ المرجعان ذاتهما .

٥٥ ـ **ابن العماد الحنبلي** ، جـ ٣ ، ص ٣٤٧ ؛ وفي حين يتحدث **ابن العماد** عن الاسماعيلية ، يتحدث **ابن خلكان** عن «الامامية» ، التي هي تسمية أخرى للمذهب الشيعي المتركزة حول فكرة الإمام .

المقسمة بسبب النزاعات الدينية كانت تنتظر إمامها ، المنقذ التي كانت تصفه الكتب القديمة . ولكن علياً لم يستسلم لغرور الشهرة . فالتعاليم التي تلقاها أبلغته أن يبدأ مهمته في الخفاء . وسيعرف نفسه ـ ووفق تسلسل بعض الأحداث ـ بمتى عليه أن يخرج من الظل ويملي على العالم أحلامه وإرادته .

ما العمل بانتظار المجد ؟ أي مهنة يمارسها طالما إنه ابن قاضٍ ، وهو نفسه مثقف غاية التثقيف ، وضليع في العلوم الدينية ، ومكلف بمهمة تتطلب الاتصال بأكبر عدد من الناس . كان هناك مهنة محددة وهي دليل قوافل الحجاج الذاهبة إلى مكة . وعَمَلٌ كهذا يتطلب منحىً مزدوجاً في آن واحد ، فكري وحربي مُلِمّ بفنون الحرب ، إذ يتطلب الأمر قيادة قوافل **اليمن** وايصالها سليمة ومصانة إلى **مكة** ، ولم تكن الطرق آمنة آنئذ . وهكذا أصبح **علي** مسؤولاً عن بعثات الحجاج المتوجهة سنوياً إلى **مكة** . وكانت هذه وظيفة ، كأنها فُصِّلتْ من أجله : إنه عمل مهيب ، مورد رزق أكثر من محترم ، وهو بخاصة ، مناسبة فريدة للقاء الناس والتحدث إليهمْ في الليالي الطويلة المرصعة بالنجوم التي تقود القوافل نحو الديار المقدسة[٥٦] . والواقع أن علياً عمل على امتداد ١٥ سنة ، في الخفاء بـ «الدعاية للخليفة المستنصر الفاطمي الاسماعيلي الذي كان يحكم مصر»[٥٧] . فالحج مكان مثالي لكل داعية ، إنه تجمع هائل للمسؤولين القادمين من جميع البلدان ، وهي فرصة فريدة لتبادل المعلومات ، وتمرير العقود وتشكيل التحالفات ، على مستوىً العالم الإسلامي .

---

٥٦ ـ **ابن العماد الحنبلي** ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ ؛ الزركلي (الاعلام) ج ٤ ، ص ٣٢٨ ، حميد العلوي (تاريخ حضرموت) ص ٣٤٠ .

٥٧ ـ **ابن العماد الحنبلي** ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

ويجب ألاَّ ننسى أن الإسلام كان قد بدأ على هذا النحو قبل أربعة قرون . **فالنبي محمد** ، أحد أرستقراطية **قريش** المكية وفي عنفوان قوته وفي سن الأربعين ـ كان يعيش بين جموع الحجاج الذين كانوا يمجدون حول الكعبة عباداتهم الوثنية ، كان يفتش عمن يصغي لرسالته الجديدة ، عمن يُعطي انتباهه لدينه الجديد . **أين يمكن ايجاد مؤمنين من أجل رسالة معدة لتثوير العالم إن لم تكن جماهير الحجاج الهائلة القادمة من كل مكان لتتواجد في حرم الكعبة ، قلب مكة ، والمكان المقدس ، حيث تجلى الإلهي منذ الأزمان السحيقة ؟** . هكذا كان الأمر في زمن **النبي** ، هكذا كان في زمن **علي الصليحي** بعد عدة قرون ، وهو هكذا دائماً كما تشهد بذلك الأحداث المتلفزة مباشرة عن الصدام (بين الحجاج الايرانيين وقوى النظام السعودي) والتي تذكرنا من وقت لآخر أنه في مكة ، على كل حال ،لاشيء أكثر سياسة من المقدس . ويعود هذا التعاطف بين السياسة والمقدس في العالم العربي إلى ماقبل الإسلام . **فالبغدادي** (الذي توفي عام ٢٤٥ للهجرة) وأحد المؤرخين العرب النادرين الذين كتبوا عن الديانات فيما قبل الإسلام والذي نستمتع بكتابه الثمين **المحبَّر** ، يذكرنا أن الحج إلى مكة كان معتبراً جزءاً من التقاليد القائمة في الجاهلية والتي احتفظ بها الإسلام : «فكان العرب قبل الإسلام يقومون بالحج ويطوفون حول البيت (حرم الكعبة) خلال أسبوع ثم يستمرون في طوافهم بين **الصفا والمَرْوة**»[٥٨] . والخلاف الوحيد هو أنه في العهد الوثني قبل الإسلام كانت كل مجموعة من العرب تدور حول الكعبة منادية إلهاً أو آلهة محددة حسب انتمائها القبلي . وكان المثل الأعلى **للنبي المسلم** أن يقوم جميع

٥٨ ـ **محمد بن حبيب البغدادي** كتاب المحبَّر ، المكتبة التجارية ، بيروت ، تاريخ الطبع غير مذكور . ص ٣٠٧ .

الحجاج بالطواف ولكن وهم يناجون إلهاً واحداً : **الله** . وحلمه في وحدة العرب وقوتهم كان يمر بالضرورة عبر توحيد الدين : تمجيد إله واحد وبالتالي وجود إله واحد ، رئيس واحد . إنها فكرة ثورية كلفته الاضطهاد واعتبر شؤماً على **مكة** المشركة . ولكن أين يمكن ايجاد الحلفاء إن لم يكن هناك ، حيث يحتفل بالعبادة وحيّث يجتمع الناس بالآلاف ؟ هكذا راح **النبي محمد** ينتظر موسم الحج السنوي ليعرض دينه الجديد على الحجاج ، الذين كانوا غالباً وجهاء القبائل القادمة من جميع أنحاء الجزيرة العربية . وليس سوى بعد عدة محاولات فاشلة حتى قَبِلَ وفد المدينة تبنّي قضية **النبي** ودعاه إلى المجيء إليهم ليبشر بدينه الجديد . وقرار السفر يستدعي الهجرة ، وأصبح هذا رمزياً بداية التأريخ الإسلامي التي بدأت في عام (٦٢٢ ميلادي) وهي السنة التي استقبل فيها سكان المدينة **النبي محمد** المكي المطرود من مدينته التي ولد فيها[٥٩] . والنجاح المنقطع النظير الذي حققه **النبي** في نشر الإسلام هو بحد ذاته درس في الاستراتيجيا السياسية حيث كل شي يتم حول المكان الأكثر تقديساً ، ألا وهو حرم **الكعبة** . **فعلي الصليحي** لم يكن مبتكراً قط . فإذا قام الداعية اليمني خلال خمس عشرة سنة بأعمال الدعاية السرية الحذرة المقنعة تحت وظيفته كمسؤول عن الحجاج فلأنه كان يعد ضربة عظيمة : وهي احتلال **مكة** بعد احتلال **اليمن** لصالح الشيعة الاسماعيلية ، المتجسدة بالعاهل الفاطمي في **مصر** . ومن الواضح أن شخصيته كانت تؤثر على الناس بسبب «حزمه وذكائه وشجاعته وفصاحته» . **وعلي** الرجل الذي سيبهر **الملكة أسما** كان يشع

---

٥٩ ـ انظر الفصل «ذكر دعوة رسول الله قبائل العرب في المواسم» عند **ابن سعد** في كتابه «الطبقات الكبرى» دار الفكر ، ج ١ ص ٢١٦ ومايليها . وانظر كذلك في تاريخ **الطبري** ج ٢ ، ص ٢٣٠ ومايليها .

كزعيم روحي . «وكان يقال أن هذا الرجل سيحتل **اليمن** ولكنه كان "يكره هذه الشائعات»(٦٠) .

وفي عام ٤٢٩ هـ لا غيرها ارتأى أن الفرصة قد جاءت ، و «أظهر الدعوة بعد أن استأذن الخليفة **المستنصر** الذي سمح له بذلك»(٦١) . وقد رأينا أن تسلسل الدرجات لدى الشيعة الاسماعيلية دقيق جداً فكل درجة يجب أن ترجع إلى مرؤوسها . وبصفته داعية ، كان **علي الصليحي** يأخذ أوامره من السلطة السامية التي كانت الإمام نفسه ، ولم يكن هذا إلا العاهل الفاطمي في مصر حسب التسلسل الشيعي . زد على ذلك فإن الخطبة زمن السلالة الصليحية كانت تبدأ في مساجد اليمن باسم الخليفة المصري المستنصر من عام ٤٢٨هـ/١٠٣٦م حتى ٤٨٧هـ/١٠٨٧م ثم باسم الملوك اليمنيين وزوجاتهم . وعندما أذن له الخليفة باظهار مهمته وأهدافه العسكرية ، «بدأ **علي** باحتلال البلاد وسقطت القلاع الواحدة تلو الأخرى بسرعة مذهلة»(٦٢) . وجعل **صنعاء** عاصمة له ،إلاّ أن احتلاله مكة في عام ٤٥٥هـ/١٠٦٤م شَهَرَهُ على المستوى الدولي(٦٣) . ويذكر **ابن الأثير** «أن من بين الأعمال البارزة التي حدثت عام ٤٥٥هـ/١٠٦٤م كان احتلال مكة من قبل **علي الصليحي** ، العاهل اليمني الذي أحسن ادارتها وأعاد إليها النظام ، وأنهى المظالم وأعاد تنظيم التموين وأكثر من الأعمال الخيرة»(٦٤) . وفي هذا الصدد فإن صفاته كرجل دولة ورجل عسكري على

---

٦٠ ـ **ابن العماد الحنبلي** «شذرات الذهب» ج ٣ ، ص ٣٤٧ .
٦١ ـ المرجع ذاته .
٦٢ ـ المرجع ذاته .
٦٣ ـ ابن الأثير «الكامل في التاريخ» دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ ، ج ٨ ص٣٦٣
٦٤ ـ المرجع ذاته .

امتداد بضعة أشهر شُهرت بما حققه من سعادة كبيرة لمواطنيه . فاليمن الذي كان ممزقاً بالاختلافات والمنافسات القبلية كان بحاجة إلى بطل وطني به تتحقق هويته وبه يعرف نفسه بإباء . فكان **علي الصليحي** ذلك البطل العربي الكامل : جسم قوي ، بجَلَد ، ثقة بالنفس ، وجرأةٌ مقرونة بهذا النشاط الفكري المُمَيّز للناس الذين يعرفون كثيراً أنهم محبوبون ، وبالتالي لايشعرون بالحاجة إلى التألق وإذلال الآخرين . **فعلي** الذي دربه معلموه الشيعة على فكرة أن على نجاح مشروعه تتوقف سعادة الآخرين ، كان عليه أن يكون له هذا الغياب ـ الحاضر ، الحاد والهادئ في آن واحد ، لزعيم سياسي عربي حقيقي ، يسعدنا وبه نتعرف على هويتنا . والزعيم هنا للاستقبال لا للخطابة ، للاصغاء وليس لاصدار الأوامر ، لِيُرّكب ويؤلف القوى لاليحط من قدر أناس مجتمعه . زعيم تتعزّز هبته الروحية مع تألق الذين يحيطون به وليس بالغائهم هكذا أصبح قصر **صنعاء** في الحال مكاناً للتجمع ، مكاناً يتلاقى فيه جميع زعماء القبائل المتنافسة ، مدعوون للجلوس وطرح أفكارهم دون خوف . وبالفعل ، وحسب عرف يمني قديم استمر حتى اعلان **جمهورية اليمن** عام ١٩٦٢ ، فإن علياً قد أبقى إلى جانبه كل الأمراء المغلوبين[٦٥] . وقد بنى لهم قصوراً في **صنعاء** نفسها قرب قصره وجعلهم يساهمون في إدارة شؤون البلاد . طريقة سليمة لتحييد المعارضين السياسيين قلما نجدها على المسرح السياسي العربي المعاصر[٦٦] . وفي أقل من ثلاث سنوات تحولت اليمن من منطقة اضطرابات وتمزقات عميقة إلى بلد زاهر حيث كان أمان الطرق يؤكد ذلك

٦٥ ـ **محمود الكامل** «اليمن» ص ١٦٨ .

٦٦ ـ **ابن خلكان** «وفايات الأعيان» ج ٣، ص ٤١٢ و ٤١٣ . ابن العماد الحنبلي «شذرات الذهب» ج ٣ ، ص ٣٤٧ و ٣٤٨ .

الازدهار ويعكسه .

وفي عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م قرر **علي الصليحي** أن يقوم برحلة عزيزة على قلبه ، رحلة قد تكون تتويجاً لمهمته : الحج إلى **مكة** مع كل الأبهة والعظمة اللتين تذكران المسلمين بعظمة أجدادهم ، كما في زمن **النبي** ، حين رأى وصحبه تقدُّم وفود **صنعاء** في شوارع **المدينة** المغبرة ، والذين جاؤوا مثل كل الآخرين ليقسموا يمين الولاء . إلاَّ أن ملوك اليمن كانوا يختلفون عن كل المجموعات الأخرى ، برؤوسهم المتوّجة ومطاياهم المسرجة بالذهب ومعاطفهم ذات النسيج الحالم . أي مكان أفضل لرئيس دولة مسلم يريد أن يظهر قوته على المستوى العالمي من مكة وتجمعاتها ؟ حقيقة كان الحج يجتذب أفراد الشعب ولكن ، في تلك الأيام كان لقوافل الحج ميّزة المواكب الرسمية وكانت في بعض السنين تُدار من قبل رؤساء الدول أنفسهم أو أولياء العهد . وحشود الأتباع الضخمة كانت تُمَضّي في الطريق أسابيع كاملة وكانت الرحلة تتطلب، نتيجة لذلك ، تنظيماً شاقاً ليس فقط من أجل التموين وإنما أيضاً من أجل العلاقات الدبلوماسية ، وأحياناً العسكرية لتأمين السلامة والأمن ، خلال اجتياز المناطق المختلفة والتي ليست ودية على الدوام . والواقع أن وصول مواكب بلد ما ، صحيحة سليمة إلى **مكة** كان بحد ذاته برهاناً على قوتهم العسكرية وعلى ازدهارهم . لقد تغلب **الفاطميون** على خليفة بغداد بنشرهم الاضطرابات والحروب الأهلية في المقاطعات التي كان يمر بها موكب العراق ، مما يُؤخر وصوله إلى المدينة المقدسة يوم وقفة العيد . وعندئذ كان الحجاج يعرفون أن شيئاً ما خطيراً قد وقع . . في **مكة** كان يعلن المخربون تمردهم وفيها أيضاً كانت تتم ترسيمات المصالحات . **فمكة** هي قلب العالم الإسلامي ومرآته حيث يجب أن تسود الأخوة . مكة كانت تعكس أبسط اضطرابات العالم الإسلامي ، وآلامه ، وبلبلته وعنفه .

كان **علي** مقتنعاً أن عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م سيكون عام اكتمال سعادته . لكن مالم يكن يعرفه ، هو أن الكواكب كانت قد قررت أن السنة تلك ستكون سنة وفاته المأساوية . وكما هو الأمر لانتوقع طعم التعاسة في فترات الغبطة هذه التي يُسكرنا فيها النجاح . كان قد نسي الحقد والذين يتخذونه مهنة . كان قد نسي **بني نجاح** أسياد زبيد الولاية الوحيدة التي كانت تقاومه دائماً ، إحدى القبائل النادرة التي لجأ في مخاصمتها إلى الاغتيال السياسي . وكان بنو نجاح أسرة من العبيد الأحباش القدامى ، كانوا يعارضون الصليحيين من أجل ثأر(٦٧) . وتاريخ اليمن كان دائماً موسوماً بالغزوات الحبشية . فالذهاب والاياب بين البلدين سواء كان للجيوش أو للتجار يضيع في ليل الزمان . ومن جهة أخرى فإن الجزء الأكبر من جيش الصليحيين كان من المحاربين الأحباش ، ولم ينسَ **بنو نجاح** قط ، اغتيال أبيهم الذي أُمِرَ به من **صنعاء** ، اغتيال كان له عذوبة وابتسامة جارية فاتنة بعقلها وجمالها الساحر ، اختيرت بدقة من بين المئات المنافسات لها وأرسلها **علي** على وجه السرعة إلى زبيد مع أمر باغوائه ودس السم له . ووصلت الجارية إلى مدينة بني نجاح ومتاعها لم يتعدَّ العود (آلة الموسيقى) وقارورة السم المخبأة بين الكثير من القصائد الشعرية المعدة للغناء . وكان طريقها إلى سرير الرئيس قضاءً وقدراً(٦٨) . وصحت زبيد في الصباح حزينة على الوفاة التي ضربت القصر في قلبه . وقد تهيأ في الحال أولاد

٦٧ ـ انظر سيرة علم الحرة في «الاعلام» **للزركلي** طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ . وحول أسرة **بني نجاح** ، انظر **ستانلي بول** Stanly Pool طبقات سلاطين الإسلام ص ٨٩ وما يليها .

٦٨ ـ **ابن خلكان** «وفايات الأعيان» ج ٣ ، ص ٤١٣ ؛ ابن العماد الحنبلي «شذرات الذهب» ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

المليك المسمم ولاسيما **سعيد بن نجاح** لأخذ الثأر . وكلما ارتفع نجم الصليحيين كلما سهلت مهمة مراقبتهم .

وعندما غادر **علي صنعاء** وزوجته **أسما** إلى جانبه متوجهين إلى المدينة المقدسة ، كان سعيد بن نجاح يعلم مسبقاً أين سيكون مساره . إنما موكب **علي** سيكون هذه المرة أكثر تأثيراً من أي وقت مضى . فلم يعد على رأس وفد عادي مؤلف من حجاج بسطاء بل كان يقود موكباً باذخاً ، وعدد الأمراء وأهمية الفرسان يشهدان في الوقت نفسه على صعوده البراق والأهداف العسكرية لرحلته : اعادة تأكيد أن **مكة** هي وستبقى إلى الأبد في فلك الشيعة . والمكان المقدس مركز النضال بين **بغداد والقاهرة** بين **السنة والشيعة** يتأرجح حسب ظروف الكواكب وانجرافها غير المتوقع ، بين نصر زائل لبعضهم وهزيمة قصيرة لفترة للآخرين . وكان الرئيس اليمني يريد تجربة ما كان قد أنجزه في مكة قبل ثلاث سنوات باعادة القاء الخطبة باسم **فاطميي القاهرة** ، وجعل الناس يعجبون به على أنه الرئيس العسكري والروحي القادر على مثل هذه المعجزة[٦٩] .

كانت البعثة تشمل ألف فارس منهم مئة من عائلة **الصليحيين** وكذلك فيلق من خمسة آلاف من الأحباش وكل أمراء اليمن الذين كان قد هزمهم **علي** والذين يسكنون بجواره منذ مابعد انهزامهم في قصور **صنعاء**[٧٠] . وكتدابير أمنية ولجعلهم يساهمون في مشاريعه فقد طلب إليهم **علي** أن يصطحبوه إلى **مكة** . وكانت زوجته **أسما** مسافرة معه ، وكما تنص المراسم فقد صحبت معها بلاطها الخاص المكون من مئات

٦٩ ـ **محمود الكامل** «اليمن» ص ١٦٩ .

٧٠ ـ المرجع ذاته .

الجواري المغطاة بالزينة الثمينة[٧١] . وقد عيّن علي الصليحي ابنه **المكرَّم** ليحل محله في أثناء غيابه . وكان **المكرَّم** قد تزوج من **أروى**[٧٢] . وتحرك الموكب في عرض كبير من البذخ والبأس ، وانتشر الخبر في جميع أنحاء اليمن أن الصليحي هو في طريقه إلى **مكة** .

وكان على العديد من أهل السنة أن يفكروا **بالقرامطة** عندما يشاهدون مرور الموكب المتلألئ **لعلي وأسما** . فالقرامطة كانوا أولئك الذين نشروا الموت والخراب ، والذين أصبح اسمهم مرادفاً للشتيمة والتجديف . وهم تلك الطائفة الشيعية المتطرفة التي كانت تهاجم الحجاج قبل قرن من الزمن أي في عام ٣١٧هـ/٩٣٠م ، هجوم لن ينساه أي مسلم بالرغم من تعاقب الأيام وتكرار الليالي . وقد عانى الشيعة وعلى رأسهم **علي** في الانفصال عن ذكرى القرامطة الذين تنَصَّل منهم الفاطميون . ولكن كل موكب شيعي عليه مظاهر القوة والبأس كان يُؤجج ذكرى القرامطة وهم يخترقون **مكة** مدنسين حرم **الكعبة** معرينها من كسوتها حاملين معهم أجزاء الحجر الأسود المهيب[٧٣] . وإذا كان صحيحاً أن كل ذلك حصل قبل **علي وأسما** بأجيال ، فإن مميزات الصدمات الأكثر تأثيراً هي التي لاتصبح أبداً قديمة ، ومرور الزمن لايستطيع كمدها . «في ذلك العام لم يُتِم أحد مناسك الحج . وقدر عدد الوفيات بثلاثين ألف وبعدد مماثل من النساء

---

٧١ ـ **الزركلي** «الاعلام» (سيرة أسما) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ج ١ ، ص ٣٠٥

٧٢ ـ **ابن خلكان** «وفايات الأعيان» ج ٣ ، ص ٤١٣ ؛ ابن العماد الحنبلي «شذرات الذهب» ج ٣ ص ٣٤٧ .

٧٣ ـ حول مهاجمة **مكة** من قبل القرامطة انظر **ابن الأثير** في «الكامل في التاريخ» ج ٧ ، ص ٥٣ ومايليها ؛ و **ابن العماد الحنبلي** «شذرات الذهب» ج ٢ ، ص ٢٧٤ ؛ وحول القرامطة انظر هذا في الموسوعة الإسلامية .

والأطفال أخذوا سبايا[٧٤]» . وقد احتفظ القرامطة **بالحجر الأسود** كرهينة خلال عشرين عاماً ولم يعيدوه إلى مكانه إلا بضغط من الفاطميين ، الذين كان ينتمي إليهم القرامطة في البدء . وستكون الدبلوماسية الاسماعيلية قلقة جداً في جعل الناس ينسون حادث الحجيج هذا . وكل مظهر غير اعتيادي للمواكب الشيعية نحو مكة تؤجج هذه الذكرى . ومنذ ذلك اليوم كانت أبهة مواكب علي الصليحي المتنقلة في الواحات بين **صنعاء ومكة** ، كانت تنعكس في عيون الأولاد المبهورة .

كان الموكب الملكي ينزلق دونما عجلة على الرمال الصامتة ، عندما صدرت الأوامر فجأة بالتوقف قرب نقطة ماء تُسمى بئر **أم معبد** ، وكان **سعيد بن نجاح** يراقب عن بعد وبمودة غير ممكنة إلا في الصحاري الواسعة . ولم تكن نقطة الماء بعيدة ، وعلي ، قاتِلُ أبي سعيد ، كان يعتقد أنه سيجد فيها الراحة . شيء غريب ، فعلي نفسه هو الذي أصر على التوقف ، مقرراً هكذا دون أن يعلم ، كما يريد دائماً القضاء والقدر ، المكان الذي لن يرى فيه ضوء النهار . وهو نفسه الذي كان يعرف أكثر من أي شخص آخر ، لأنه درس مع أساتذته من الشيعة ، تاريخ أدنى تحركات **النبي محمد** وتنقلاته في المنطقة ، وكان مقتنعاً ، وظهر أن ذلك كان خطأً بالنهاية ، أن ذلك جرى في بئر **أم معبد** قبل خمسة قرون وقد توقف هناك . محال الحقيقة التي كانت تخبئ الموت في ثوب ساحر لذكرى لم يكن لها من الحقيقة سوى جاذبية الأحلام .

عندما وصلت أخبار المأساة إلى صنعاء ، فتشت الجماهير الحزينة وبدون جدوى عن تلك التي كان يحبها علي ، **الحرة أسما** ، فلم يجدوا لها لاجثة ولا أثرا . وفتشت **صنعاء** طويلاً عن ملكتها وجاست جيوشها

---

٧٤ ـ **ابن العماد الحنبلي** «شذرات الذهب» ج٢ ص ٢٧٤ .

الطرقات للعثور عليها والانتقام لها من أولئك الذي حولوها إلى أسيرة . وعندما أُفرج عن **أسما** وعادت إلى **صنعاء** راح ابنها **المكرم** يتلقى منها الأوامر . وعندما مرض هذا توجه الشعب نحو زوجته **أروى** ليفتش عن ادارة ويبني مستقبلاً .

- ٨ -

ملكات سبأ الصغيرات

ثمة شعب عربي كانت تدير شؤونه ملكات وهو سعيد بذلك ويُكِنُّ لهنَّ اعجاباً حقيقياً. أفلا يبدو هذا فكرة سريالية في عالم عربي حديث حيث رجالنا، المرهقون فيه بعض الشيء بالثورة الالكترونية، ينصحوننا بعصبية، نحن النساء، بأن نتحجب كما لو أن مثل هذه الاشارة ستعيد وبمعجزة التوازن لاقتصادياتنا المدمرة بالديون. نادراً ماكان تقنيع النساء (إلباسهن القناع) وقسرهن على ذلك هماً رئيسياً لدى يمنيّي القرن الحادي عشر. فوقائع الأخبار تصفهم لنا كرجال مبتهجين للغاية مع نساء مرئيات، حضورهن جليّ، نشيطات وديناميكيات. نساء يفكرن، ويتكلمن ويقررن ويبدو أن الجميع يجد في ذلك فائدته، الأفراد كما الأمة، ومن هنا السرور في أن نتذكر هذه القصص القديمة، لنطمئن على أن عملاً عذباً في بناء زوجين قويين ومتحدين على أساس التبادل الديمقراطي ليس خيانة للأجداد، ولاتقليداً أعمى للغرب الذي قررنا نهائياً أنه ضال.

تقلدت **أسما بنت شهاب** الصليحية السلطة واللآلئ وأجادت التصرف في كليهما. وأدارت إلى جانب زوجها ومعه كل الشؤون الهامة

للمملكة حتى موت زوجها في عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م . زوجة شابة بهرها اشعاع رفيقها المغنطيسي ، وعرفت كيف تَقْبل مُنذ البداية بالحياة المظلمة والمتواضعة التي فرضها تلقين المذهب الشيعي على زوجها الذي يريد أن يسلك الطريق الصعبة للمسؤولية والإمامة . كانت تتقاسم مع زوجها ضغوط التخفي الذي كان يتطلبه السر الشيعي . وكان لديها الصبر في دعم زوجها على امتداد خمسة عشر عاماً من الإختيار وأن تؤمن به وبعبقريته وبمهمته . صبورة ، نعم هكذا كانت أسما بل ومتواضعة على الإطلاق . مدونو الأخبار كانوا يلاحظون حضورها في مجالس الرأي ووجهها مكشوف فلا حجاب لامرأة تحب زوجها وتثق به ، ولاانحطاطية سيئة كذلك لامرأة عربية لديها ماتقوله . ولما فُوّض **علي** باعلان نفسه ملكاً ، منحها الهدية الأكثر ملكية التي يمكن منحها لامرأة وذلك باشراكها جهاراً وعلانية في حياته ، واعتباره لها كشريك وند ، فقد طلب : بأن تلقى الخطبة باسمها ، فكانت مساجد اليمن تذكر اسمها بعد العاهل الفاطمي وزوجها : «اللهم أدم أيام **الحرة** التي تدير بعنايتها شؤون المؤمنين»[١] . لم يحصل أن اختيرت فترات كهذه من تاريخنا كنصوص مختارة للمدارس الابتدائية والثانوية . فالتاريخ الذي يُدَرَّس ماهو إلا سلسلة من الفتوحات واحتلال المدن والأراضي ، وسلسلة ساحات المعارك المغطاة بآلاف القتلى ، وبالنتيجة فإنَّ تجرؤَ البطل فيه (في هذا النوع من التاريخ)

---

١ ـ «اللهم أدم أيام الحرة الكاملة السيدة كفيلة المؤمنين» . انظر في سِيَرْ مشاهير العالم الإسلامي عند **خير الدين الزركلي** في «الاعلام» ط ٦، ١٩٨٣ ، ج ١ ، ص ٢٧٩ . ويستطيع القاريء أن يجد في نهاية هذه السيرة قائمة بالمراجع الرئيسة المتعلقة بالملكة **أروى** ، وبخاصة سيرتها في السير الشهيرة «أعلام النبلاء» للذهبي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨ والذي يجمع الجزء الثاني منه سير النساء .

على التفكير بامرأته هو الحقارة نفسها . مع ذلك فقد أنشأت الملكة **أسما** تقليداً حقيقياً في اتحاد الزوجين في السلطة ، وربّت ابنها **المكرم** على فكرة أن الزوجة هي قوة ومن الغباء أن نتركها تركد في ظلال الحريم . وسيجعل **المكرم** فيما بعد من زوجته **أروى** بنت **أحمد الصليحي** شريكا ورفيقاً . والفرق الوحيد المميز بين الملكتين هي مدة حكمهما . فبينما كانت مدة حكم **أسما** قصيرة جداً فان حكم **أروى** دام أكثر من نصف قرن .

واللقب الرسمي الذي كانت تحمله **أسما** أولاً ثم **أروى** هو "الحرة" ، المرأة المليكة التي لاتخضع لأية سلطة عليا . . . وباستثناء ملكتينا لم تحمل هذا اللقب إلا الملكة الحرة **علم** التي حكمت امارة **زبيد** ، المدينة المجاورة **لصنعاء** وكنّا رأيناها سابقاً في نضال مستمر ضدها . والحرة **علم** هذه شغلت نشرات أخبار زمنها لأنها كانت في البدء جارية بسيطة ، عبدة مغنية لملك **زبيد** ، **منصور بن نجاح** قبل أن تفرض نفسها عليه كسياسية من المستوى الأول . وقد تأثر **منصور** بذكائها وحكمتها فكلفها بادارة شؤون المملكة ولم يكن ليقرر أي شيء دون استشارتها . وقد قامت بالمهمة على أحسن وجه وبعد موت زوجها استمرت في حكم **زبيد** . ولكنها حسب المصادر ، لم تحصل أبداً على امتياز الخطبة بعكس **أسما وأروى** . ومهما كان لقب الحرة رائعاً فقد حمله غالباً عدد كبير من النساء النشيطات في الميدان السياسي في اليمن كما في الغرب المسلم ، في **المغرب والأندلس** . ولكن **اليمنيين** زينوا ملكاتهم بلقب كان لهم امتيازه ألا وهو **بلقيس الصغرى** ، أي «ملكة سبأ الصغيرة» ، وبدقة أكثر «ملكة سبأ الشابة» .

تسمية ملكة مسلمة (بملكة سبأ هو محاولة غير معقولة ليس إلا لأن هذه الملكة تعود إلى الجاهلية عصر الجهل ، العصر الذي كان يحكم فيه الوثنيون ، عصر الظلمات وهو تاريخ الإنسانية قبل مجيء **النبي محمد**

ونزول **القرآن**[٢] . فالزمن الإسلامي - تنظيم وفق تقسيم ثنائي لايعاني من أية فروق دقيقة : فهناك قبل وهناك بعد . فلا يوجد أبداً تدرج يسمح بتلطيف هذا التقسيم الثنائي وجعله أكثر نسبية . فليس هناك ، لاعصور قديمة ولاعصور وسطى ولاعصر نهضة ولاأزمنة حديثة في الزمن الإسلامي . لايوجد إلا فترتان : الجاهلية وهي الفترة السابقة وهي سلبية من حيث الأساس والجوهر ، لأن البشر فيها كانوا يجهلون التمييز بين الخير والشر ، وهناك الفترة اللاحقة أي بعد مجيء **النبي محمد** الزمن الذي صار فيه للبشر أخيراً قرآنٌ ، نصٌ مقدسٌ يشرح المعايير التي تسمح للبشر بالتمييز بين الخير والشر . وفيما يخص الجاهلية فإن مصير ملكة **سبأ** مقرر مسبقاً ، وتقديمها كشيء يُعتز به هو تصرف غامض على الأقل . ومع ذلك فإن **اليمنيين** كانوا يحبون تسمية ملكاتهم هكذا . ويقول لنا **عبدالله أحمد محمد التاور** في كتابه (هذه هي اليمن) : «إن بعض الشعراء الذين أُخذوا باعجابهم **بأسما** ذهبوا إلى حد الاعلان أنه إذا كان عرش ملكة **سبأ** رائعاً فإن عرش **أسما** كان أكثر روعة»[٣] . لقد كان من السهل على الشعراء أن

---

٢ - بالنسبة لكلمة «جاهلية» انظر : حول الرؤية الإسلامية للزمن ، في مقدمة الطبري الجذابة في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» دار الفكر ، ج ١ ، الذي يبدأ بـ «القول في الزمان» ص ٥ ومايليها .
- وحول الكلمة «جاهلية» بشكل خاص انظر كيف يشرحها **الطبري** في «تفسير القرآن» ، دار الفكر ، ١٩٨٣ ، ج ٢٢ ص ٤ و ٥ بمناسبة الآية ٣٣ من السورة ٣٣ المتعلقة بنساء **الرسول** . «ولاتتبرجن تبرج الجاهلية الأولى» . وفي هذه الآية ، التبرج والتزين بالنسبة للمرأة قبل خروجها إلى الشارع هو بشكل قاطع سلوك جاهلي . وسلوك المرأة المسلمة المتميز هو التواضع وقلما كانت ملكة سبأ متواضعة . انظر تركيبات قصيرة في بضع صفحات لـ Ignaz goldiziher) : «ماذا تعني الجاهلية What is Meant by Aljahiliyya » شيكاغو ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠٨ - ٢١٩

٣ - **عبدالله أحمد محمد التاور** «هذه هي اليمن» دار العودة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢٨١

يطرزوا حول اسم **أسما** نظراً لأنه مشتق من المصدر نفسه الذي اشتُقّت منه كلمة السماء . **وأسما** اسم يذكر بين أسماء النساء المعروفة الأكثر قدماً في الجزيرة العربية . إن له مفهوم الترفع والاستعلاء[4] . ومقارنة عرش **أسما** بعرش ملكة **سبأ** كان فيه تلميح مباشر إلى القرآن الذي جاء على ذكرها في

---

٤ ـ اني مولعة بمعجم «لسان العرب» **لابن منظور** ، ذلك لأنه يبحث في جذر الكلمة ويعكف إذن على تنقيب أثري فعلي حول الموضوع الإسلامي (الذاكرة) وماقبل الإسلام ، ويعمل ، غالباً ، على استرجاع المعاني المنسية للكلمة ، والمكبوتة على امتداد قرون ، مظهراً بشكل خاص الأمِةْ (المصاب بالنسيان) حين يتعلق الأمر باسم امرأة «**أسما**» . ويصل إليه في الجزء الأول مع الحرف الأول ، حين يتكلم عن كلمة الاسم . ويُذَكِّرْ بهذه المناسبة بوجود اسمين للأشخاص ؛ اسم مذكر (أسامة) ويقول لنا بأنه أحد الأسماء التي تعني الأسد . وبعد ذلك يأتي على الثاني الذي هو اسم «**أسما**» ، بدون أن يضيف على سبيل المثال ما كان واضحاً للشعراء اليمنيين بأن الكلمة لها معنى أعم سامٍ ، وباختصار كبير يقول لنا بالوضوح نفسه : أنه اسم امرأة ، بدون أن يضيف أي شيء . وتأتي إذن من الجذر نفسه لكامة سماء . ويأتي ابن منظور على كلمة سماء في الجزء ٣ المكرس في جزء كبير منه للحرف س . فهو يقول لنا بأن هذه تشير إلى السماء . ولكنها تشير أيضاً «الى كل ماهو مرتفع ، إلى كل ماهو عالٍ» وكالسمو الذي يشير إلى **السّمو الملكي** . سماء تشير أيضاً إلى كل ماهو عالٍ كالسقف أو إلى كل ماله علاقة محددة بالسماء (كالسحاب والمطر) . وسماء هي كذلك جذر كلمة اسم التي تعني «اشارة ، سمة ، علامة» ، مثل عَلّمتُ الشيء أي العلامة التي تشير إلى شيء . يوجد «معنى السمو ، الرفعة في الاشارة» . ويقول لنا بأن الاسم هو «رسم ، وسمة تدعو إلى الشيء وتعرّف به» . ثم هل تخمنون ماهو أحد جموع كلمة الاسم ؟ إنه . . . **أسما** . فكيف حدث أن **ابن منظور** العالم بالآثار القديمة في ذاكرتنا العربية لم ير الرابط بين اسم المرأة «أسما» وكلمة (اسم ، اشارة ، علامة) التي ، تؤكد لنا انها جاءت من جذر سماء ؟ هل لأنها اشارة تلقين استطاعت أن تعمل على بعث الكبت وبمعرفة أن العرب الجاهليين كانوا يعبدون إلهات وأن معركة النبي ضد المشركين كانت في غالبها الأعم صراع ضد تأثير هذه الإلهات ؟ على كل حال ، لم يكن ←

صورة النمل ، وتحدث عن لقائها مع **النبي سليمان** ، وأظهر أنها إحدى النساء النادرات وأنه كان لها موقع سياسي في غاية الكمال .

وقد برزت في الوصف (حسب الآية ١٦ من صورة النحل) الذي قدمه طائر الهدهد للنبي **سليمان** الذي كان له الامتيازالعظيم بمعرفة (منطق الطير) . إذ لاحظ **سليمان** الذي كان يراجع بالتعاقب الطيور ، أن الهدهد غائب . فعزم على معاقبته مالم يبرر غيابه . وحين عاد الهدهد وسئل من قبل **سليمان** ، لم يكن مايعادل معرفته سوى قباحته :

«فمكث غير بعيد فقال أحطتُ بما لم تُحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأةً تملِكُهم وأوتِيَتْ من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيم»[5] .

وهكذا قُدِّمت ملكه **سبأ** في القرآن في ممارستها الكاملة للسلطة الملكية ، لكنها وقومها الذين كانت تديرهم كانوا في الطريق الخاطئ ، طريق الشيطان وكان الهدهد واثقاً من ذلك :

«وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لايهتدون[6]**»** .

وفي نهاية القصة تخسر الملكة عرشها إذ يسرقه عفريت من خدم النبي سليمان ، ولكن **بلقيس** التي أضاعت كل ممتلكاتها المادية ربحت روحياً فقد تخلت عن عبادة الشمس ، وانصاعت انصياعاً مزدوجاً لله أولاً ثم لنبيه **سليمان** بعد ذلك : **«قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمتُ مع سليمان**

← لدى شعراء اليمن في القرن الحادي عشر ، أية صعوبة في رؤية الرباط اللغوي بين اسم ملكتهم وبين السماء .

٥ ـ سورة ٢٧ (النمل) ، آية ٢٤ .

٦ ـ المرجع نفسه .

لله رب العالمين[٧]» .

والأكثر اثارة في تاريخ **بلقيس** ليس ما جاء في نص القرآن عن جمالها المبهر المأخوذ مجرداً ، وإنما هو نقل العرش من المؤنث إلى المذكر . وسيعكف المعلقون على تفسير معقد ومكرر وطويل لحل مسائل يبدو انها تعذبهم بشكل شخصي ، والتي يتجاهلها القرآن ببهاء . وإحدى هذه المسائل التي سيخفق المؤلفون في حلها بصورة رئيسية هي طبيعة عرش الملكة وأهميته . فمن الواجب تصغيره قَطْعَاً حتى ولو أن التعيسة ستفقده نهائياً . لقد استُخدمت عبارة عظيم لوصف عرش **بلقيس** **(ولها عرش عظيم) . وإنه حقيقة لمن الصعب جداً أن نظهر دقائقه . ولكن الطبري** يجد وسيلة للتقليل من أهميته فقال : ليس حجم العرش ولأهميته المادية ما كانت تعنيه كلمة "عظيم" في وصفها له و«إنما الخطر الذي كان يمثله» . وقد ذكر مع ذلك أن مظهره المادي لم يكن بالامكان اهماله لأن العرش كان من الذهب المرصع باللآلئ والأحجار الثمينة[٨] . والمسألة الأخرى التي أهملها القرآن بصورة كاملة إذ يبدو أنه اعتبرها غير مهمة ولو أنها تقلق الخبراء ، وهي مسألة وضعها الزوجي : هل كانت عذراء عندما التقت بالنبي **سليمان** أم أنها كانت متزوجة قبلاً ؟ مؤرخ قديم هو **ابن طيفور** زَوّجها كما يجب إلى ابن عمها **ابن زارا**[٩] . وثمة مترجم سِيَرْ حديث اسمه **عمر كحالة** وهو الذي سحرته النساء ، إلى حد دفعه إلى أن يخصص لهنّ كتاباً (الشهيرات) ، والذي يحوي عدة مجلدات ، وقد أحس بالحاجة

---

٧ ـ المرجع نفسه .

٨ ـ تاريخ **الطبري** ، دار الفكر ، ج ١٩ ص ٤٨ .

٩ ـ **طيفور** (امام ابن طاهر) ، كتاب «بلاغات النساء ، دار النهضة الحديثة ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٩ . توفي الكاتب في ٢٨٠ هـ القرن العاشر الميلادي .

إلى أن يعطي بطاقة حسن سلوك للملكة : «فبلقيس في نظره كانت امرأة ذات أخلاق لاعيب فيها وبقيت نقية . وبما أنها لم تكن تهتم بالرجال إلا نادراً فقد بقيت عذراء حتى لقيت النبي **سليمان** وتزوجته»[١٠] .

هل تزوجت **سليمان فعلاً** ؟ لاشيء في نص القرآن ما يسمح لنا أن نبت في هذا الموضوع . لايهم ! فالعلماء والمؤرخون سيتكفلون بالموضوع . محمد الغنوجي يعد بجهنم لكل من يتجرأ بالتفكير أن **سليمان تزوج بلقيس** . **ابن المنذر** أكد أن **سليمان** تزوج **بلقيس** في النهاية . إنه تأكيد منكر جداً[١١] . **فبلقيس وسليمان** كانا بالنسبة له بدون شك من أصول مختلفة . ثم إن امرأة في ذروة السلطة لاتناسب قط مظهر ابنة شابه قابلة للزواج في الأزمنة الحديثة . **بلقيس** طرحت وتطرح على الدوام لغزاً أمام المؤرخين . وبعضهم التجأ إلى اللامعقول لحل مصير تلك المرأة الغريبة . و **المسعودي** (الذي توفي في عام ٣٤٦/ القرن العاشر الميلادي) يُثير شكوكاً عن أصلها عندما كشف أنها من أب بشري وأم من عرق الجن ، ومع عرش كهذا ومع شعب يخضع لها ، يستحيل أن تكون بشراً تماماً . «فولادة هذه الملكة محاطة بظروف رائعة نقلها الرواة . ويرون بصورة خاصة أن أباها كان يصطاد ، فوجد ثعبانين يقتتلان أحدهما أسود والآخر أبيض فقُتل الأسود ، وعندئذ ظهر جنيان أحدهما عجوز وثانيهما شاب ؛ ثم زوَّج الجني العجوز ابنته للملك على بعض الشروط ، وكانت **بلقيس** ثمرة هذا الزواج» و **المسعودي** ذو الذكاء المنقطع النظير ، شأنه شأن أي مسلم متوسط الذكاء ، يعرف أنه لكي يقنع الآخرين عليه أن يكون منطقياً . ومع

---

١٠ ـ **عمر كحالة** ، (أعلام النساء) ج ١ ، ص ١٤٤ .

١١ ـ **السيد محمد صديق حسن خان الغنوجي البخاري** ، حسن الأسوة بما ثبت من الله والرسول في النسوة مؤسسة الرسالة ، ص ١٧٩ .

ذلك ففيما يخص **بلقيس** فإن **المسعودي** الذي من عادته أن يكون واثقاً من نفسه ، لم يكن ضميره مرتاحاً ، ووجد نفسه مجبراً على شرح قصة الجن هذه بالنسبة لنا فيقول في كتابه (مروج الذهب) : «نحن لانرحب بوقائع من هذا النوع ما لم نصادفها في المؤلفات التاريخية وتكون مطابقة للعقائد التي يفرض قبولها القانون الديني[١٢]» . وفي هذه الحالة لايفرض القانون الديني أي شيء ، فالقرآن لم ير أهمية ولا ضرورة ليحدثنا عن أبيها وأمها . إنها المسألة الشخصية عند المسعودي الذي لم يكن يستطيع رؤية امرأة تتربع على عرش ، حتى ولو ذُكِرت في القرآن دون أن يشعر بالحاجة إلى مهاجمتها وغرس الشك في بشريتها .

ورغم ذلك فإن **بلقيس** بقيت تجابه المؤرخين ومحاولاتهم لتقزيمها وإهانتها فهي مازالت تتحكم في الخيال وفي الإبداع الأدبي والشعري . أما الخطر فيأتي الآن من علماء الآثار الذين هم على وشك جمع البراهين ليظهروا أنها لم توجد تاريخياً أبداً : «والقيمة التاريخية للحقبة التي تبحث غالباً عن ملكة سبأ التي ربما زارت سليمان ، حدث واحد هو قطعي ، هو أن كل مانعرفه عن سبأ وسليمان يناقض الفرضية التي تقول انه كان هناك ملكات» . وهذا هو حكم الباحثين العلماء لدائرة المعارف الإسلامية وهم يقولون «إنه من غير الممكن ايجاد بيئة تاريخية تتكلم عن وجود ملكة مؤنثة في **سبأ**[١٣] . بعد ذلك : هل تستطيع الاكتشافات العلمية أن تنجح في تخريب السلطة الأسطورية **لبلقيس** ؟ هذا قليل الاحتمال ، لأنه ، لو فكرنا ملياً نجد أن اسم **بلقيس** لم يذكر أبداً في **القرآن** . وإنما يتكلم عن ملكة

---

١٢ ـ **المسعودي** (مروج الذهب) ترجمة . ذكر في ج ٢ ص ٣٨٤ .

١٣ ـ الموسوعة الإسلامية انظر كلمة (سبأ) .

(امرأة تحكمهم) تحكم شعب سبأ[١٤] . أما عن الاسم فلا أثر له في نصنا المقدس . إن المؤرخين ، من أمثال **المسعودي** ومؤلفي **التفسير كالطبري** ، هم الذين أعطوا للملكة غير المسماة في القرآن ، اسم بلقيس . والجوهري في الأمر أن **بلقيس** تصلنا مباشرة من الجاهلية وأن لها رغم العلم وأوامره ، حياة طويلة أيضاً كاسطورتها . وبموافقة العلم وبدونه ، فإن **بلقيس** تتربع على عرش الشعر العربي في أيامنا ، والعديدون من الشعراء المعاصرين يلجأون إليها ليوحوا بوجود أنثوي يفتن ويبهر[١٥] .

لحسن الحظ . فإن يمنيي القرن الحادي عشر لم ينزعجوا من قراءة دائرة المعارف الإسلامية ورؤاها المتعجرفة من موضوع ملكتنا بلقيس . فإنهم (أي اليمنيين) كانوا يقارنون بها ملكاتهم اللواتي كن يحكمنهم **كأسما وأروى** اللتين كانت توصف كلٌّ منهما فضلاً عن ذلك «بالملكة الحازمة» . والحزم يبقى حتى يومنا هذا المثل الأعلى الذي يصبو إليه كل سياسي . والمقصود «مقدرة الانسان على التحكم في سَيْر حياته وشؤونه وتقريرها بثقة . . . وعندما نتكلم عن انسان بأنه حازم في شعبه فهذا يعني أنه أكثر تجربة (ذو حنكة) ، يقرر بدراية ويعتمد على العقل للعمل به»[١٦] . ويزيد **ابن منظور** أن إحدى مميزات الحزم أنه نوع من الديمقراطية العملية على

---

١٤ - سورة ٢٧ ، آية ٢٣ .

١٥ - يكفي قراءة **نزار قباني** الغزير الانتاج على سبيل المثال . وإننا لنتساءل عمّ كان سيجري ، وكيف كان ممكناً التعبير عن الرغبة التي توحي بها النساء لو كانت تمنعه من استخدام بلقيس ! أعتقد أن ذلك كان سيؤدي إلى اضرابه عن الكتابة . ومن كان سيضيع في المسألة ؟ ومن الواضح أنهن النساء العربيات اللواتي هن من أكبر مستهلكي شعره ، وأنا في مقدمتهن . انه لمما يبعث على الدهشة هذا التوافق العجيب بعد قراءة قصيدة شعرية لنزار .

١٦ - **ابن منظور** (لسان العرب) انظر كلمة (حزم) .

مستوى عملية اصدار القرار . فالشخصية الحازمة لاتقرر لوحدها بل تستمع إلى الآخرين ، وتطلب آراء الخبراء وتأخذ بها قبل أن تفصل في الأمر أو تبت به . ومن هنا ثقة الحازم فهو عندما يقرر لا يرجع عن قراره أبداً . وابن **منظور** ذو المنهج التعليمي يذكر أنه من هذه الكلمة جاء تعبير حزام ، وأن اشارة التحزم تعبر عن الفكرة جيداً . فالحازم لايؤخذ على حين غرة ونتيجة لذلك لايتخذ قرارات عفوية وسريعة لأنه يفكر في كل شيء باستمرار ، يتوقع الأحداث ويزن مميزات كل احتمال السالبة والموجبة . والحزم ولاشك، إحدى الصفات الأكثر تقديراً عند العرب بصورة عامة وعند أولياء أمورهم بصورة خاصة . والأمس كاليوم والعديد من الشعراء جمعوا ثروة بتوزيعهم هذه الصفة باسراف على الأمراء الذين كانوا يمدحونهم .

ونجد الاعجاب نفسه عند المؤرخين اليمنيين الحديثين . **محمد التاور** لايصب مديحه على **أسما** : «كانت الأكثر شهرة من بين نساء زمانها وكذلك بين الحكام . كانت كريمة ، وكانت شاعرة تنظم الشعر بنفسها . ومن بين الأمجاد التي كان يتميز بها زوجها الصليحي والتي كان يتغنى بها الشعراء هي أنها كانت زوجته . . . وعندما تحقق زوجها من كمال خلقها عهد إليها بادارة الشؤون (تدبير الشؤون) فلم يخالفها في غالبية أموره[١٧] . ويزيد المؤلف أخيراً فيقول أن زوجها كان يُكِنّ لها الكثير من الاحترام ، ولم يكن ليعطي أبداً لأي رأي الأفضلية على رأيها»[١٨] .

لقد تأكدت مشاعر الشعب والنخبة نحو الملكة **أسما** عندما وقعت المأساة على الزوجين الأميرين وهما في طريقهما إلى مكة . لم تكن تستطيع **أسما** أن تشك أن حج عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م الذي بدأ كعيد سيغرق في

---

١٧ ـ عبدالله أحمد محمد التاور (هذه هي اليمن) ص ٢٨١ .
١٨ ـ المرجع ذاته .

الظلال الرطبة لنقطة ماء تافهة تسمى **بئر أم معبد** . فعندما توقفت المواكب ليلاً وأقيمت الخيام الملكية تفرغت **أسما** أيضاً لواجباتها بين بلاطها وجواريها وتفرغ زوجها لحاشيته كما تريده المراسم . وكان **علي الصليحي** يتناقش مع أخيه في خيمته عندما برز الموت على عتبته . الموت الذي تجلى بوجه العبد الحبشي **سعيد بن نجاح** أمير **زبيد** الذي جاء يثأر لأبيه . وقد نجح **سعيد** برجاله السبعين الذين وزعوا بمعرفته في نقاط استراتيجية بعد أن قتل علي أن يصبح سيد القافلة بكاملها .

لقد قتل بحد السيف كل من له أهمية ولاسيما الأمراء الصليحيين وأمر بأن يأتوه بالملكة **أسما** حية . ولكي يبهر الوفود التي جاءت من كل أنحاء العالم الإسلامي ، كان علي قد اصطحب معه خمسة آلاف جندي . وعندما تم اغتياله ، لم يجد القاتل **سعيد بن نجاح** صعوبة في ضمهم إلى جيشه لسبب بسيط جداً ، هو أنهم كانوا أحباشاً . فلعب على أوتار التضامن العرقي وأقنع الجنود بالانضمام إلى جيوش زبيد . وعندما ضمن النصر العسكري التفت سعيد إلى الملكة **أسما** . فحجرها في سجن سري ، وليذكرها بمأساتها أمر بغرس رأس زوجها المقطوع على عمود أمام باب سجنها .

بقيت **أسما** بضعة شهور في سجنها محاولة بدون جدوى أن تتصل بابنها **المكرّم** وزوجته **اروى في صنعاء** . كان سجانوها يحرصون على ألاّ يكتشف أحد أثرها . ولم تنجح **أسما** إلا بعد سنة في نقل رسالة إلى ابنها . وعندما انتشر خبر أسرها في صنعاء تجند وجهاء المدينة وراء **المكرم** «لإنقاذ شرف ملكتهم السجينة»[١٩] . ثلاثة ألاف فارس غاضبون تركوا المدينة وانطلقوا بإمرة المكرم ، ونجحوا في بضع ساعات في هزيمة عشرين ألف

---

١٩ ـ محمود كامل (اليمن) ص ١٦٩ .

جندي حبشي ، كانوا يدافعون عن مدينة **زبيد** التي حوصرت . وتقدَّم **المكرم** كل الناس يدلف في متاهات السجن حيث توجد أمه . كان يجهل أنه لن يخرج أبداً كما دخل[٢٠] . وأن صدمة عاطفية قوية جداً غيرت مجرى حياته . . ومع ذلك فكل شيء سار كما لو أنه حلم . وقادته خطواته إلى المكان السري حيث كانت أمه تأمل كثيراً مجيئه ، فتقدم أمام باب **أسما** وبعد تلاوة صيغة التحية طلب منها السماح له في الدخول ، ولكن الأم بقيت باردة ومحترسة مقابل زائر مقنع يحاول الاتصال بها . ومع عجلته كان المكرم قد احتفظ بخوذته المعدنية (المغفر) التي كان يلبسها العرب في الحملات العسكرية[٢١] .

«من أنت ؟ سألته الأم

أنا **أحمد بن علي** . أجاب المكرم . فأجابت الملكة المرتابة : إن الذين يحملون اسم **أحمد بن علي** عديدون بين العرب . .»[٢٢] .

وفي هذه اللحظة رفع القناع عن وجهه أمام أمه التي حيته بتقديم العزة له، كونه أصبح الملك الجديد قائلة : «أهلاً بسيدنا المكرم»[٢٣] . وبتأثير الصدمة المزدوجة وبانفعالية التلاقي والتحية الملكية التي خصته بها أمه ، التي لم تره وقد اعتلى العرش ، والتي تذكره بموت أبيه المأساوي ، أصيب برعشة طويلة هزت كل جسمه قبل أن تصيبه بالشلل الدائم[٢٤] . وهكذا خرج من السجن وقد أصيب بفالج جزئي وبقى مصاباً بالفالج النصفي بقية

٢٠ ـ صلاح ابن حميد العلوي (تاريخ حضرموت) مكتبة الارشاد ج ١ ، ص ٣٤٢ . تاريخ الطبع غير محدد .
٢١ ـ المرجع ذاته .
٢٢ ـ المرجع ذاته .
٢٣ ـ المرجع ذاته .
٢٤ ـ المرجع ذاته .

عمره .

أخذت الملكة **أسما** طريق العودة إلى صنعاء محاطة بفرسانها حاملة جسماً نصف مشلول ، المكرم المقدام الباسل في ساحة المعركة . كان للمكرم ابن عم اسمه **سبأ بن أحمد الصليحي** الذي كان يتمتع بكل المواصفات اللازمة لتحمل أعباء السلطة وكان في أوج عمره . لكن لم يفكر أحد به عند وصول الموكب إلى **صنعاء** . فقد أمنت الملكة **أسما** ادارة شؤون البلاد حتى وفاتها في عام ١٠٨٧/٤٨٠ وعهد **المكرم** رسمياً بجميع سلطاته إلى **زوجته أروى** منذ أن دفن جثمان أمه . . وكان **علي أبو المكرم** يعترف بأروى منذ صغرها بأنها الشخص الوحيد القادر على تأمين استمرارية السلالة الصليحية في حالة حدوث شيء ما[٢٥] .

وأروى التي كانت فقدت والديها مبكراً اقتيدت إلى قصر **صنعاء** عند عمها **علي** . وسهرت **أسما** بنفسها على تربيتها[٢٦] . وقد نشأت **أروى** جنباً إلى جنب مع ابن عمها المكرم داخل قصر كانت السلطة فيه شأن الزوجين وليس امتيازاً للرجل . تزوجت **اروى المكرم** وعمرها سبعة عشرة سنة عام **٤٦١هـ** . إنه اتحاد أميري كان فرصة للأبهة والابتهاج ، وكانت هدية العروس (مهرها) امارة **عدن**[٢٧] . وأخذت من ذلك الحين تشرف على ادارتها وتسمي حكامها وتجني منها الضرائب . وكما في خرافات الجن ، فقد غُمرت **أروى** بفرح الأمومة . فأعطت **المكرم** ولدين ولكنها هي التي كانت تعتبرها صنعاء الوريثة الطبيعية للسلطة وليس شخصاً آخراً .

لم يكن انتقال السلطة إلى **اروى** مفاجأة أبداً وإنما استمرارية

---

٢٥ ـ **محمود كامل** (اليمن) ص ١٦٩ .

٢٦ ـ **خير الدين الزركلي** «الاعلام» قاموس لأشهر الرجال والنساء ج ١ ، ص ٢٧٩

٢٧ ـ **عبدالله أحمد محمد التاور** (هذه هي اليمن) ص ١٦٩ .

للتقاليد[٢٨] . ومن جديد راحت مساجد صنعاء تدوي بالخطبة باسم الزوجين وليس باسم فرد واحد . ثمة اختلاف واحد تميزت به الملكة الجديدة عن الملكة القديمة : فعلى العكس من اسما التي كانت تحكم ووجهها مكشوف فإن اروى كانت تتحجب خلال جلسات العمل . لماذا ؟ كانت شابة وجميلة وكان عمرها أربعاً وثلاثين سنة وزوجها معاق . إنه التنازل الوحيد الذي قدمته للتقاليد . ولكن حتى هذا التنازل لم يكن كذلك لأنها هي التي فرضته على نفسها . إنه قرار ينم عن عقل سليم فهي كانت قد قررت أن تنذر نفسها أولاً لهدف عسكري : أن تفوز بالنصر الوحيد القطعي لتبين لليمن ولبقية العالم الإسلامي بأن السلالة الصليحية ، رغم تسلسل المصائب التي ألمت برجالها، ستظل قوية دائماً . وقررت أروى أن هذا النصر لايمكن أن يكون إلا برأس سعيد بن نجاح قاتل عمها الذي لم يزل حياً . وكان سعيد قد نجح عند استيلاء المكرم على زبيد في الهرب عن طريق البحر . انسحب في الوقت المناسب عندما اعتبر أن المدينة قد ضاعت دون علاج ، مستخدماً مراكب الاغاثة التي كان قد أعدها إعداداً كافياً وأوقفها في الميناء استعداداً للإبحار في حالة الهزيمة[٢٩] .

ولبلوغ غايتها ، قررت أروى أولاً أن تنقل عاصمتها من صنعاء إلى جباله وهي مدينة صغيرة محصنة وملتصقة بالجبال ، فأسكنت زوجها فيها مع كنوز السلالة الصليحية وبدأت في تضييق الشبكة حول سعيد بن نجاح بالاكثار من التحالفات والمفاوضات . وبعد سنة أي في عام ٤٨١هـ/

---

٢٨ ـ ياسين الخطيب العمري (الروضة الفيحاء في تواريخ النساء) ، تحقيق عماد علي عمارة ، الدار العالمية . مكان النشر غير مذكور على الطبعة ، طبعة أولى ١٩٨٧ ، ص٣٥٨ . مات المؤلف في ١٢٣٢هـ ١٨١٧م .

٢٩ ـ صلاح بن حميد العلوي (تاريخ حضرموت) ص ٣٤٢

١٠٨٨م سحقت جيوشها **سعيد** في ضواحي **جباله**[٣٠] . ولم يكن نجاح **أروى** بسبب تفوقها العسكري وإنما بعمل ميداني وتثريب اشاعات كاذبة . فقد شجعت **سعيد** على مهاجمتها بجعله يعتقد أن كل حلفائها كانوا على وشك التخلي عنها . والواقع أنها هي التي طلبت منهم أن يذهبوا هم بأنفسهم إلى **ابن نجاح** والايحاء له بأنه في حالة مهاجمته **لجباله** لن يأتون لمساعدتها . ووقع **سعيد** في الفخ وهاجم **جباله** بكل ثقة ، متأكداً أن الحرة كانت معزولة وأنها أخفقت . وعندما قُتِل **سعيد** اقتيدت زوجته **ام المعارك** أسيرة أمام **أروى** ، عندها أمرت هذه بقطع رأس **سعيد** وغرسه على عامود أمام حجرة زوجته الأسيرة ، كما جرى مع **أسما** سابقاً[٣١] . فقوانين الثأر تفرض تماثلاً كاملاً في الرموز وفي الافعال . هذه البادرة هي التي تُبرهن أن الحرة بصفتها سياسية هي قاسية **كسعيد** عدو سلالتها ، ويجب أن تزيل كل وهم عن رأفة نسائية محتملة . ويصر المؤرخون على أن **أروى** ، المنشغلة خاصة بالفتوحات العسكرية ، كان عليها أن تثبت أن السلالة كانت دائماً قوية رغم خسارة زعيمها الكبير **علي** وشلل **المكرم** . ففي السياسة على العكس من الموسيقى قلما تلطف المرأة من العادات . يصف **ياسين الخطيب** أحد مؤرخي القرن التاسع عشر ، يصف أروى كملكة : «عرِفَتْ كيف تدير شؤون الدولة والحروب على أكمل وجه»[٣٢] . ويصفها مؤرخ حديث بأنها «عاقلة وكاملة . .»[٣٣] . وبالنسبة للزركلي : «أروى ملكة كفؤة ، إدارية لا مثيل لها» . فقد تركت وراءها مشاريع عمرانية ولاسيما **جامع**

---

٣٠ ـ **ابن خلكان** (وفايات الأعيان) ج ٣، ص ٤١٤ ـ صلاح بن حميد العلوي (تاريخ حضرموت) ص ٣٤٣ ـ **محمود كامل** (اليمن) ص ١٨٠ .

٣١ ـ المرجع ذاته .

٣٢ ـ **ياسين الخطيب العمري** (الروضة الفيحاء في تواريخ النساء) ص ٣٥٨

٣٣ ـ **صلاح بن حميد العلوي** (تاريخ حضرموت) ص ٣٤٤ .

الصفا الشهير وبناء طريق **سمرا** ، وكانت تهتم أيضاً في تنشيط المراكز الثقافية والدينية بمنحهاالعلماء والمعلمين رواتب هامة[٣٤] . ومما يلفت الانتباه في أروى هو دورها كزعيم روحي ومساهمتها في نشر المذهب الشيعي في آسيا والخدمات التي قدمتها له .

والزركلي في كتابه الاعلام (قاموس لأشهر الرجال والنساء) عدّها من زعماء الاسماعيليين[٣٥] . مصادر أخرى أكثر فطنة ميزوا بين السلطة الدنيوية التي تلقتها من المكرم والسلطة الدينية التي نقلها هذا لابن عمه **سبأ** . ويوضح **عبدالله التاور** أن **أروى** كانت قد فُوّضت رسمياً من زوجها الأول المكرم بالسلطة الدنيوية عندما مرض ، ولكنه فوض لقب الداعية إلى ابن عمه **سبأ** الذي تزوجته أروى في حفل زواج ثانٍ[٣٦] . ماهو مؤكد أنه خلال حكم أروى بدأت الاسماعيلية تشع في شبه القارة الهندية ، ولاسيما في مناطق كومباي Combaye في Gujerat الكوجيرات . وكان هذا بتأثير الدعاة الذين كانوا ينطلقون من اليمن[٣٧] . كان لهذه البلاد دائماً علاقات تجارية وثيقه مع **الهند**، ذلك بسبب موقعها الجغرافي منذ أيام السبئيين : «فالبضائع كانت تُجلب إلى اليمن وحضرموت من الهند عن طريق البحر ثم ينقلها اليمنيون إلى الحبشة ومصر وفينيقيا[٣٨] . . الخ . والاسلام بصفته ناشراً للأفكار الجديدة ويتمتع بديناميكية ثقافية كان يسلك الطرق التقليدية في الاتصالات والمبادلات التجارية . وكان اليمن في موقع

---

٣٤ ـ **عبدالله أحمد محمد التاور** (هذه هي اليمن) ص ٢٨٤ .

٣٥ ـ **خير الدين الزركلي** (الاعلام ، قاموس لأشهر الرجال والنساء) ج ١ ، ص ٢٧٩

٣٦ ـ انظر في هذا الموضوع **عبدالله أحمد محمد التاور** (هذه هي اليمن) دار العودة ـ بيروت ، ١٩٧٩ ص ٢٨٢ .

٣٧ ـ انظر (اسماعيلية) في الموسوعة الإسلامية .

٣٨ ـ **جرجي زيدان** (تاريخ التمدن الإسلامي) ج ١ ، ص ٢٣ .

مناسب لذلك . والدّعاة اليمنيون أنفسهم كانوا في الاصل وراء ظهور الطائفة الاسماعيلية الهندية في بوهارا[٣٩] Boharas.

إذا كانت أروى نصيرة للشيعة فهذا إلى حد ما قليل الأهمية . فما هو مؤكد أن سلطتها كانت تأتي من انتصار أحد فروع الشيعة الأكثر شهرة وأن ميزان القوى في زمانها كان قد مال لصالح هذه الرؤيا للاسلام والتي كانت مدانة حتى الآن من قبل الأنظمة السنية القائمة . فوصول السلالة الصليحية إلى السلطة ربما كان غير معقول لو لم ينجح الفاطميون في تنسيق هجوم شيعي على مستوى دولي . وبالرغم من كفاءتها ونجاحاتها العسكرية فقد عانت في الوقت نفسه من كونها امرأة . فرجل أكثر قوة منها سيعيد كل شيء للبحث : إنه سيدها الأعلى في التسلسل الشيعي الإسماعيلي ، الامام السامي الخليفة المستنصر في القاهرة . وأول أزمة كان على **أروى** ايجاد حلّ لها هي الازمة التي نجمت عن وفاة زوجها ، مصدر شرعيتها ، فقد صار عليها ، بعد هذه الوفاة كما على أي شخص مدعوٍّ لممارسة السلطة ، استجداء مباركة الخليفة التي تعني الاعتراف والشرعية . والخليفة هذه المرة كان شيعياً . ولما كان الشيعيون يدّعون دائماً بأنهم ثوريون ومدافعون عن الفقراء والمستبعدين ، كان يمكن أن نتصور أن لهم من النساء موقفاً مختلفاً ، ولاسيما الخلفاء الفاطميين منهم الذين يؤكدون أنهم منحدرون من فاطمة . فهل سيتصرف الخليفة الفاطمي في القاهرة تصرفا مختلفاً عن الخليفة السني في بغداد الذي ، كما رأينا ، يعارض بشكل منتظم تبوّء النساء السلطة ؟ وسيوضح لنا موقف الفاطميين من **أروى** مسألة أساسية : هل يختلف الإسلام الشيعي عندما يتعلق الأمر

---

٣٩ ـ الموسوعة الإسلامية كلمة (اسماعيلية) .

بحقوق النساء السياسية ؟ هل يقبل الإسلام الشيعي بسهولة أكثر من الإسلام السني أن تدير امرأة شؤون بلد ما ؟ . فإذا كان المذهب الشيعي منذ البداية التعبير التاريخي لمعارضة النظام القائم كان عليه مبدئياً أن يكون أكثر حماساً للمساواة نحو النساء . هذه المسألة تقودنا إلى نقطة البدء : هل حصلت ملكات اليمن على حق وامتياز الخطبة لأنهن كن شيعيات أم لأنهن كن يمنيات ؟ هل يمكن شرح حالتهن الاستثنائية بالعنصر الشيعي أم بالعنصر العرقي أي بالخصوصية الثقافية ، بالذاكرة المحلية وخاصة أهمية الجنس المؤنث في خرافات وأساطير جنوب الجزيرة العربية .

اكتشفت أروى بعد وفاة المكرم ، وعلى حسابها ، موقف التسلسل الطبقي الشيعي . فموت كل رئيس دولة يُشكّل للمسلمين فترة انقطاع حيث الثقة الوحيدة الباقية هي الخوف من المجهول ، هذا ما كانت تريده التقاليد النبوية . وعندما رفض النبي تسمية خلف له من عائلته رغم ضغوطها عليه فإنه كان يعني تماماً أنَّ ارادة الله تحدد موقفاً مضاداً لعنصر ارستقراطية السلطة عند العرب كما كانت القاعدة في الجاهلية[٤٠] .

لقد كان النبي يعبر برفضه تسمية خلف له ، عن جوهر مبدأ المساواة في الإسلام . إنها بادرة أساسية تجبر كل سياسي يترشح لادراة الجماعات

---

٤٠ ـ هناك وصف مفصل للأيام والساعات الأخيرة من حياة الرسول في سيرة **ابن هشام** ، وتنقل لنا هذه السيرة أن العباس عم الرسول كان قد أسرَّ لعلي بن أبي طالب بأنه مقتنع بأن النبي لن يتعافى لأجل طويل ، وأنه ينبغي قطعاً التدخل لديه . لمعرفة إن يكن الأمر لنا أم لا (فإن كان الأمر فينا عرفناه) ، ويضيف **ابن هشام أنَّ علي كان قد** رفض بقوة اتباع نصيحة عمه ومضايقة الرسول على سرير الموت . انظر **ابن هشام** (السيرة النبوية) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، تاريخ الطبع غير محدد ، ج ٤، ص ٣٠٤ .

المسلمة ، منذ القرن السابع أن يشرح أمام المؤمنين مصدر سلطته و يبرر شرعيته . فموت الرئيس أو الزعيم مهما كان لقبه ، خليفةً موكلاً بمهمة إلهية أو سلطاناً يستمد قوته من جيش مادة متسلطة ، فعلى الخلف أن يحل بشكل أو بآخر مسألة الشرعية بالإجابة على السؤال البسيط : من أين جاءته سلطته ؟ من أذن له بالإدارة ؟ لأنه من غير المعقول قطعاً أن يدير شخص ما الجماعة بدون أن يبرر مصدر هذه الإدارة ، ذلك لأن مايميز السلطة في الإسلام هو أن عالم الآخرة لاينفصل عن عالم الدنيا . فالمادي لاينفصل عن الروحي . كانت **أروى** تمارس السلطة المادية على رؤوس الأشهاد في حياة زوجها ، الذي سبق أن فوضها بها، لكن **المكرم** بقي حاملاً للسلطة الروحية وهو وريث الدعوة الاسماعيلية في اليمن ، وبصفته هذه كان يستمد شرعيته من الخليفة الفاطمي الثامن في مصر الذي كان يسمى **المستنصر** .

والمستنصر الذي كان بعيداً عن كونه خليفة قاصراً ، فرض نفسه على العالم كأحد الخلفاء الخطرين ، كان تحت تصرفه شبكات من الارهابيين وُضِعوا في خدمته من قبل **حسن الصبّاح** ، زعيم جماعة **الحشاشين** «القتلة» . ومع **المستنصر** عرفت **الاسماعيلية** أوجها لأنه في خلافته احتلت جيوش الشيعة مدينة **بغداد** وأُلقيت **الخطبة** باسمه في جامع المنصور ، مركز السلطة العباسية ورمزها وأعلى مكان للسنة[٤١] . دام حكم المستنصر ستين عاماً ، وهو رقم قياسي . فقد ولد في القاهرة عام ٤١٠ قبل ولادة **أروى** بأربع وثلاثين سنة وتسلم السلطة عام ٤٢٨ هـ ، وكان عمره ثمانية عشر عاماً ولم يتوَّفَ إلا في عام ٤٨٧هـ عن عمر يناهز السبعة وستين عاماً[٤٢] . وبِغَمّ أصبح شهيراً بسبب موجات العنف السياسي المنظمة بمباركة منه ومن

---

٤١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٤٢ .

٤٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٩٨ .

قبل الداعية الذي جاء ليطلب دعمه في عام ٤٧٩ هـ . إنه الأسطوري **حسن الصبّاح** الذي كان يدير عمله من **قلعة ألَمُوت** ، الكائنة على صخرة منيعة في أواسط جبال **ألبورز** Alburz في شمال غربي **بحر قزوين**(٤٣) . وكان حسن الصبّاح هذا إحدى الشخصيات الأكثر جاذبية في عصره : فهو في وقت واحد فيلسوف ، ورياضي ، وفلكي ، وكان يبهر معاصريه . وعديدون استسلموا وانضموا إلى لوائه وأطاعوا أوامره بدقة . ومن قلعته (قلعة ألَمُوت) طور نظاماً للتلقين والتدريب ، مما قاد أنصاره ومريديه إلى اعتبار الاغتيال السياسي للمسلمين السنة شيئاً طبيعياً جديراً بالاحترام بل وفاضلاً . وينسب بعض المؤرخين إليه اغتيال خليفتين عباسيين **المسترشد** ٥١٢/١١١٨- ٥٢٩/١١٣٦ **والراشد** (٥٢٩/١١٣٦) - (٥٣٠/ ١١٣٦) .

وأروى بصفتها ملكة شيعية لم تكن تستطيع (أكانت قلعة ألَمُوت أم لم تكن) إلا أن تنحني لإرادة الخليفة الفاطمي رئيسها المباشر وإمامها . الإمام عند الشيعة معصوم وهذه إحدى النقاط التي يختلف عليها السنة والشيعة بشكل يتعذر إصلاحه لأن العصمة لكائن انساني يصدم في نظر السنة الذين

---

٤٣ ـ ماذا نقرأ حول حسن الصبّاح ؟ كل شيء يتعلق بدافع الفضول وبالفترة المعدة للتركيز . فبالنسبة لمن هم على عجلة من أمرهم عليهم قراءة سيرة **الصباح** في الموسوعة الإسلامية وبدون أن ينسوا تقليب الصفحات التي تتحدث عن قلعة (ألَموت) . وبالنسبة لهواة الروايات ، أمامهم الرواية الرائعة «سمرقند» **لأمين معلوف** التي تحكي ارهاب الفكر المعاصر في عرض حياة **عمر الخيام** الأسرة ، والذي كان صديقاً لطائفة الصّباح .
ـ ابن الأثير،الكامل ـ ج٩ ، ص٣٦ وما يليها ، أوائل عام ٤٩٤ .
ـ الزركلي ، الأعلام ، سيرة بن الصّباح ج٢ ، ص١٩٣ .
ـ محمد عبدالله عنان ـ تراجم اسلامية ، دار المعارف ، مصر ص٤٢ .

يخصون هذه الصفة للاله وحده[٤٤] . ولم تكن الملكة أروى تستطيع الاعتراض على قرارات الخليفة المستنصر ، الوحيد الذي له الحق بالاعتراف بها كما فعل لأسلافها سابقاً **علي والمكرم** .

يمكننا الاعتقاد بسهولة أن لدى الشيعة الاسماعيليين نوع من الاحترام الخاص للجنس النسوي نظراً لادعائهم بأنهم من ذرية **فاطمة ابنة النبي** التي تشغل مكانة رفيعة . هذه المكانة يعترض عليها بعض الخلفاء السنة ، الذين يعتبرون أن وراثة السلطة السياسية لايمكنها أن تمر عن طريق امرأة لأنها مستبعدة مبدئياً عن الامامة الكبرى أي من الادارة الروحية والسياسية للطائفة . ولدينا رسالتان هامتان جداً في هذا الموضوع متبادلتان بين **الخليفة المنصور** ١٣٦/٧٥٤ ـ ١٥٨/٧٧٥ ، الخليفة الثاني للسلالة العباسية ، وبين رافضه الشيعي الشهير بالنفس الذكية الحفيد الثالث **لعلي** واسمه الكامل هو **محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي** .

كان **النفس الذكية** يعيش بهدوء في **المدينة** وكان يقاوم حتى ذلك التاريخ ، اغراءات أولئك الذين يقترحون حمل السلاح والأموال ليقف ضد الخليفة العباسي الأول **السفاح** ، أخ **المنصور** ، ومؤسس السلالة العباسية . ولكن عند وفاة **السفاح** ومجيء أخيه ، استسلم **النفس الذكية** للاغراء . ووفق النموذج التقليدي الشيعي للرفض ، فالنفس الذكية الذي كان يخفي طموحه للسلطة ، أعلن نفسه يوماً أنه الخليفة الوحيد الشرعي[٤٥] . وقام

---

٤٤ ـ بالنسبة لنا ، نحن السنيون ، الله وحده المعصوم ، وليس لمعلمينا في المدارس الابتدائية أي ذنب في تقديمهم لنا **البابا** كغريب ومخادع بسبب ادعائه العصمة .

٤٥ ـ انظر تفصيلات أحداث عام ١٤٥ هـ ، وهو العام الذي أعلن فيه **النفس الزكية** ، رسمياً أنه أمير المؤمنين . انظر ذلك في تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) دار الفكر ١٩٧٩ ، ج ١٠ ، ص ٢٠١ . وهنا مختصر وجيز لهذا الأمر والمحتوى ←

أنصاره بطرد حاكم **المنصور** من المدينة . وبدأ عندئذ بين الخليفة العباسي ومعارضه تبادل رسائل ، تعتبر كنزاً ذهبياً لأولئك الذين يهتمون بمنطق شرعية السلطة في القسمين الرئيسيين من الإسلام ، ولو أن الأمر انتهى بالنفس الذكية إلى قطع رأسه مثل كل أسلافه . فالذي يتكلم عن الشرعية يتكلم بالضرورة عن الولادة ، ومن يتكلم عن الولادة يتكلم بالضرورة عن الأمومة . وأحد محاور الجدال بين الخليفة السني ومعارضه الشيعي كان توضيح موقفهما بالنسبة لدور النساء في نقل السلطة : هل تستطيع المرأة نقل السلطة السياسية ؟ الحوار الذي أدخل إلى المسرح السياسي التوحيدي جوهرياً ، شبحاً كان مغطى بعناية حتى الآن ، إنه الأمومة . فهذه الأمومة مهملة كاملاً على المستوى المادي من قبل الشريعة التي لاتعرف إلا قانوناً واحداً ، قانون الأبوة : فالأولاد المولودون من زواج مسلم يعودون إلى الأب بالضرورة . هذا المبدأ أساسي إلى حد أنَّ وضع الطفل غير الشرعي ، أي الطفل الذي ليس له إلا أمه هو عملياً غير موجود من جهة ، ومن المستحيل ، من جهة أخرى ، على والدين مسلمين تبني ولد . فالتبني الذي يجازف في انتاج أبوة وهمية استبعدته الشريعة وهذا هو في أيامنا هذه ما يُغرق القضاة في مسائل غير قابلة للحل لأن كل الأولاد المتبنين في معظم البلاد الإسلامية تم تبنيهم بشكل غير قانوني نسبياً(٤٧) .

← الرسائل المتبادلة في فصل التاريخ السياسي للشيعة في (ضحى الإسلام) لأحمد أمين ج ٣، بدءاً من الصفحة ٢٧٧ .

٤٧ ـ أشارت الاحصائيات الأخيرة حول العالم العربي أنه يعيش حالياً ثورة ديمغرافية حقيقية والتي تعتبر إحدى سماتها الأبرز هي تراجع سن الزواج ، سواء أكان بالنسبة للرجال أم للنساء . ومن يقول بتراجع سن الزواج يقول بمضاعفة احتمالات الرؤية المتزايدة لعدد الأطفال غير الشرعيين ، إذ أن حواجز المراقبة التقليدية المبكرة للجنسية لم تعد هنا . والحواجز التقليدية المعنية هنا كانت تتمثل بفصل الجنسين من كل طرف ومراقبة الأهل لمرحلة النضوج الجسدي للبنات . وخارج تربية البنات المتشددة أكثر ←

ولتتبع المبارزة الرسائلية ، نبين أولاً أن **المنصور** كانت أمه جارية غير عربية ، عبدة بربرية كانت تسمى **سلاّمة** . بعضهم يقول أن سلامه كانت من قبيلة نفزوة Nefzawa وآخرون يؤكدون أنها من قبيلة صنهاجة[٤٨] Sanhadja . وأول إهانة يوجهها المدعي الشيعي إلى الخليفة العباسي أنه ، هو ، النفس الذكية من أصل عربي نقي من ناحية الأب كما من ناحية الأم ، بينما الخليفة العباسي لايمكنه أن يدعي ـ ذلك . **وللمنصور أصلٌ** مدنسٌ من جهتين ، حسبما يرى **النفس الذكية** ، أولاً لأن **سلامة** كانت من عرق أعجمي ، وثانياً لأنها كانت أم ولد ، جارية تباع وتشترى وقد وجدت في السوق[٤٩] . أما هو ، **النفس الذكية فليس له من ناحية النساء إلا سلسلة من الارستقراطيين النبلاء الشهيرين الذي يقودونه مباشرة إلى خديجة** أول زوجة **للنبي** ، خديجة «النقية ، أول من صلى أمام القبلة»[٥٠] . **والواقع أن خديجة كانت أولى نساء النبي** وكاتمة أسراره ، وهي أول من أسرَّ لها برسالته وبرفقتها اتجه إلى الكعبة يشرح دينه . وقد ولدت **خديجة** عدة بنات كانت **فاطمة** المفضلة عند النبي . وتعتبر هذه أول امرأة لدى الشيعة . وفي رسالته إلى الخليفة العباسي يصفها **النفس الذكية** «بأنها خير

← فأكثر فإن دخولهن مجال العمل المأجور يلغي جميع أنظمة الرقابة الموضوعة على إبقاء العنصر النسوي راكداً . نحن لانعرف شيئاً حول الأطفال غير الشرعيين لأن الأطباء والقضاة يحافظون بدقة على هذا السر العالي التوتر وذلك من أجل الذات الجمعية .

٤٨ ـ «رسالة في أمهات الخلفاء» **لابن حزم الأندلسي** ج ٢ ، ص ١٢٠ .

٤٩ ـ تاريخ الطبري ، ج ١٠ ص ٢١١ .

٥٠ ـ «خديجة الطاهرة أول من صلى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء الجنة» ، الطبري ، ج ١٠ ، ص ٢١٠ . تشير المراجع عن خديجة أنها حقيقة كانت أول المؤمنين بالدين الإسلامي وإلى أنها كانت الأولى التي أسرَّ إليها النبي وحدثها عن رسالته .

النساء والأولى بين نبيلات الجنة»[٥١] . فما الذي يستطيع أن يجيب به الخليفة العباسي على نسب نسوي الشهرة ؟

وجاء جواب الخليفة المنصور الذي يدعي شرعيته بانحداره من النبي عن طريق رجل هو عمه العباس ، جاء جوابه بسيطاً ومنطقياً وكذلك منسجماً . كتب إلى النفس الذكية مايلي : «لقد وصلتني غاياتك وقرأت رسالتك والواقع أن كل حججك تستند على الفخر الذي تستمده من انحدارك عن طريق النساء . ولم يضع الله النساء على المستوى نفسه الذي وضع فيه الأعمام والآباء . والحق يقال أنك منحدر من النبي عن طريق ابنته ولكن ليس لهذه الحق في وراثة الولاية السياسية ، وليس لها الحق أن تكون إماماً وختم جوابه قائلاً : كيف تستطيع أن ترث منها شيئاً وهي نفسها لاحق لها به ؟»[٥٢] وحسب رأي العباسيين فإن مطالبة العلويين بالسلطة لأساس لها اطلاقاً لاستحالة انتقال الخلافة عن طريق النساء . وهؤلاء المستبعدات حسب تعريف الادارة العظمى للدولة (الإمامة الكبرى) لايستطعن نقلها .

ويجب أن نذكر أنه استناداً إلى مبدأ أولوية فاطمة ، طورت بعض فرق الشيعة قوانين مختلفة في مادة الارث . فإحدى الفئات المتطرفة والتي حملت اسم «الغرابية» ذهبت إلى اعطاء كل الإرث للابنة احتراماً لذكرى **فاطمة** ، مخالفين هكذا الشريعة السنية التي تخصص للبنت نصف حصة الصبي فقط[٥٣] . وطائفة **الغرابية** التي كانت تسكن مدينة **قم** ، هددت

---

٥١ ـ المرجع ذاته .

٥٢ ـ الطبري ـ ج ١٠ ، ص ٢١٢ .

٥٣ ـ المراجع هي في «الطبقات» لـ التسبطي ، مذكورة عند آدم **ميتز** في (الحضارة الإسلامية)ج ١ ص ١٢٣ . وفيما يخص طائفة الشيعة «الغرابية» ، ينبغي قراءة فصل «فرق المذاهب الشيعية» **لمحمد بو زهرة** في كتابه «المذاهب الإسلامية» ص ٦٥ .

بالموت قاضياً شجاعاً سنياً كان قد أصرَّ على ضرورة تطبيق الشريعة ، وأمر باعطاء البنت نصف ماخصص لأخيها فقط[٥٤] . وقد أجرى القاضي في تعليله أن مكان المؤنث قلما يكون هو نفسه في الحالتين . وعلى سبيل المثال فإن الشيعة في حالة رجل يموت ويترك بنتاً وحفيداً (أي ابن الابن) تستبعد الحفيد من الارث وتعطي الثروة كلها للبنت فيما تعتبر السنة ذلك ضلالاً ، فالثروة حسب هؤلاء الأخيرين في الحالة السابق ذكرها تقسم إلى قسمين متساويين وتعود واحدة للبنت والثانية للحفيد[٥٥] . وقوانين الوراثة بعد عصمة الإمام تُكوِّن النقاط الكبرى للخلافات الرئيسية بين السنة والشيعة ، مع أن هناك نقاطاً أخرى لاتتفق الطائفتان عليها إلا قليلاً . **فأحمد أمين** لخص في بضع صفحات الخلافات في الأحوال الشخصية بين الشيعة والسنة ، ويضيف زواج المتعة إلى قائمة الخلافات . فزواج المتعة هو عقد يربط بين رجل وامرأة لأجل مسمى يمكن أن يصل إلى أيام وبضعة أشهر أو أكثر ، وبعدها يدفع الزوج مبلغاً محدداً سلفاً إلى المرأة . وهذا العقد ماهو إلا مجرد زنى عند السنة ، وشكلاً من أشكال البغاء وذلك لأسباب عديدة، والرئيسة منها أن زواج المتعة لايتطلب شهوداً ولذلك فهو خاص ومحروم من صفة العلانية التي هي الأساسية في الزواج السني . والسبب الثاني أنه لايعطي للشركاء حق الارث من بعضهما ، والسبب الثالث أن مصير الأولاد أكثر من غامض . على كل حال فلا حاجة إلى طلاق محتمل لأن الزواج يلغى من نفسه في الوقت المحدد سلفاً[٥٦] . وحسب كل هذه الاختلافات في مادة الارث والزواج ، وحيث يبدو أن المؤنث يقوم بدور

---

٥٤ ـ «الطبقات» التسبطي ، مذكور عند آدم ميتز (الحضارة الإسلامية) ص ١٢٣

٥٥ ـ **أحمد أمين** (ضحى الإسلام) ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

٥٦ ـ انظر **أمين في** «فقه الشيعة» ص ٢٥٤ ومايليها .

مختلف ، يمكننا أن نتوقع موقفاً متماثلاً على المستوى السياسي وأكثر تسامحاً من جهة الخليفة الشيعي في القاهرة الأحسن استعداداً نحو ملكة **كأروى** من موقف مثيله السني

مع ذلك فإن ردّة فعل الخليفة **المستنصر** عند موت **المكرّم** كانت تماماً مثل الخليفة العباسي ، فقد اعترض على اضطلاع **أروى** بالسلطة وحدها ـ وأسرع في ارسال الرسل لينصحونهابقوة بأن تتزوج وأن تتوارى وراء قرينها . كل شيء يصبح نظامياً إذا وافقت أروى على الزواج من **سبأ بن أحمد** ، ابن عم زوجها الذي سماه أيضاً خليفةً للعهد عند وفاته . ولكن المصادر التاريخية المتفقة حتى الآن تختلف على تفاصيل هذه الخلافة وشروط زواج أروى الثاني .

بدايةً ، يحدد بعضهم أن **المكرم** كان قد وزع المهام بعناية بين **أروى وسبأ** . فأوصى للأولى بوصية وللثاني **بدعوة** . فالوصية لصالح أروى تثبتها في وظيفتها كمسؤولة عن السلطة السياسية الدنيوية والدعوة سمّتْ سبأ كوريث للمهمة الروحية ، كزعيم للطائفة الاسماعيلية في اليمن[٥٧] . ويكتفي مؤرخون آخرون فقط بالقول بأن **المكرم** أعطى العهد إلى ابن عمه سبأ دون أن يحدد ما تشمله[٥٨] . فالعهد لغوياً تعني «التزام ـ تعهد ، ميثاق ، معاهدة أو اتفاق» . وهي الكلمة المخصصة للاستناد إلى القرار السياسي الذي بموجبه يسمي ملك في عهده خلفه ـ فمعنى «وصية» واضح جداً في كلمة عهد حتى أنه يستعمل في اللغة العربية للاشارة إلى وصية

---

٥٧ ـ **عبدالله أحمد محمد العلوي** «هذه هي اليمن» ص٢٨٢ .

٥٨ ـ من بين هؤلاء ، هناك **الزركلي** ، مؤلف «الاعلام» ج ١ ، ص ٢٨٩ . وصالح ابن حميد العلوي (تاريخ حضرموت) ، ص ٣٤٢ .

العهد القديم أو (العتيق) والعهد الجديد)[٥٩] .

على كل حال فمهما كانت طبيعة /عهد/ **المكرم** كما يقول **ياسين الخطيب** فإن أروى مارست الملك أي «السلطة الدنيوية» بدون انقطاع ، ومهما كانت الأحداث منذ مرض المكرم في عام ٤٧٣هـ حتى وفاتها هي في عام ٥٣٠ هـ ، أي أنها حكمت عملياً مدة نصف قرن رغم معارضة الخليفة[٦٠] . ولكنها أُجبرت أن تتفاهم معه . بعضهم يقولون أن المستنصر أسَرَّ إليها بأن تتزوج **سبأ** وأنها تزوجته مطيعة . وكان بامكانه أن يضعها أمام الأمر الواقع وأن يكتب لها رسالة يقول لها فيها : «إنني أعطيتك أمير الأمراء سبأ للزواج منه»[٦١] . وآخرون يقولون أن **سبأ** هو الذي أخذ المبادرة وطلب أروى للزواج بعد خمسة شهور من وفاة زوجها[٦٢] ، وأنها قبلت هذا العرض . وثمة آخرون يقولون أنها رفضت العرض وأن هذا الرفض استقبل استقبالاً سيئاً ، وأن سبأ الذي جرح في كرامته حاصر **أروى** في قلعتها في **جباله**[٦٣] . ويقدم أصحاب هذه الفرضية أنه لكي يخضعها استعان بأخيها **ابن أمير** لكي يعيدها إلى صوابها وتغيير قرارها وأن تقبل سبأ كزوج لها . وقد أعلمها أخوها أن الخليفة المستنصر شخصياً يرغب في هذا الزواج من الداعية ، وأن الخليفة سيدفع المهر الهائل البالغ مئة ألف دينار (من الذهب) وبقيمة خمسين ألف هدايا أخرى مختلفة ، وذلك لكي يسوي هذه القصة التي تزعجه كثيراً[٦٤] .

---

٥٩ ـ انظر «عهد» في الموسوعة الإسلامية .
٦٠ ـ **ياسين الخطيب** «الروضة الفيحاء في تاريخ النساء» ص ٣٥٨ .
٦١ ـ **الزركلي** ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .
٦٢ ـ **التاور** «هذه هي اليمن» ص ٢٨٤ .
٦٣ ـ **صالح بن حميد العلوي** (تاريخ حضرموت) ص٣٤٢ .
٦٤ ـ المرجع ذاته .

يبدو أن هذه الضغوط وهذه الحجج استدرجتها للتنازل وقبول سبأ كزوج لها . والاغراء بالغنى لايحتمل أن يكون له إلا أقل وزن على قرارها ، إذ أنها نفسها كانت غنية جداً ، لأنها كانت تحتفظ بكنوز السلالة ، وأن أحد الأسباب التي جعلتها تنقل عاصمتها من **صنعاء** إلى **جباله** هو وضع الكنوز في مكان أمين . ويؤكد البعض أن الزواج لم يتم قط . وآخرون يؤكدون العكس ، فقد تم الزواج حسب الأصول ولكنهما لم ينجبا أولاداً(٦٥) .

ويروي المدافعون عن الزواج الشكلي تفصيلات عن ليلة عرس مذهلة وقلقة ، فبعد اتمام عقد النكاح غادر **سبأ** قلعة **الأشياخ** حيث كان يعيش ليذهب إلى **جباله** حيث تسكن العروس . فدخل إلى قصر دار العز الذي كان قد بناه لها **المكرم** وَوُجِّه إلى البهو التي ستنضم إليه زوجته فيه . وذهبت **أروى** فعلاً للانضمام إليه ولكنه لم يستطع التعرف عليها لأنها تخفت بلباس جارية ، وقامت بخدمته طوال الليل دون أن يمنحها أية نظرة، لاقتناعه أن المرأة المنهمكة بالعمل حوله لم تكن إلا جارية تافهة . ولما كان **سبأ** كثير الورع فلم يرفع نظره نحوها ـ وهو مستغرق في انتظار الملكة . وطلع الفجر ولم تأت الملكة . ولم يكن هناك إلا الجارية في خدمته دائماً . عندئذ ترك القصر وعاد إلى منزله دون أن يتحقق من أن العبدة التي كانت أمامه لم تكن إلاّ الملكة شخصياً(٦٦) .

وسواء تم الزواج أم لم يتم فقد دام أحد عشر عاماً من ٤٨٤هـ إلى وفاة سبأ عام ٤٩٥هـ . واستمرت بعدئذ بالحكم مستعينة بالوزراء ودون زوج واجهة . ويبدو أنها تجاوزت أوامر الخليفة . وفي عام ٤٩٥هـ /

---

٦٥ ـ التاور «هذه هي اليمن» ص٢٨٤ .

٦٦ ـ صالح بن حميد العلوي «تاريخ حضرموت» ص ٣٤٣ .

١١٠٢م كانت أروى قد بلغت الخمسين من عمرها ، والخلافة الفاطمية في القاهرة الممزقة في الصراعات من أجل ولاية العهد بعد موت المستنصر في عام ٤٨٧هـ ، لم تعد قوية بالقدر الكافي كما كانت في الماضي ، فقد انقسم الاسماعيليون إلى فرعين كل منهما يتبع أحد أبناء **المستنصر** ، وقد نجم عن ذلك ، الانشقاق الذي سيؤدي إلى التعجيل في نهاية امبراطوريتهم . كان المستنصر قد سمَّى ابنه البكر **نزاراً** ولياً للعهد . وهذا ماأسرَّ به إلى الأسطوري **حسن الصبّاح** سيد قلعة ألَموت، عندما جاء ليراه متخفياً بصفة تاجر ، ليعقد معه اتفاقاً يضمن النجاح للامبراطورية الشيعية ، وبموجبها ستقوم قلعة ألَموت بتجنيد الإرهابيين ضد العباسيين انطلاقاً من **فارس** . كان على داعية قلعة الموت أن يعرف سيده بعد وفاة **المستنصر** . إنها مسألة رئيسية بالنسبة له نظراً لأهمية التسلسل في النشأة الكونية للشيعة[٦٧] . ولكن عند موت **المستنصر** عام ٤٨٧هـ ، أُبعد **نزار** عن السلطة وأعلن أخوه **المستعلي** نفسه خليفة على **القاهرة** رغم ارادة الأب . «وسيعتبر المستعلي محتالاً خارج **مصر** فلا يعترفون بالإمامة إلا **لنزار** حتى يومنا هذا»[٦٨] . لقد أضعف هذا الانشقاق بشكل هائل خلافة **مصر** لأن مناطق بكاملها من الامبراطورية رفضت أن تعترف **بالمستعلي** ، الذي دفعته قسوته إلى سجن أخيه **نزار** الذي فر إلى **الإسكندرية** ، وأعلن نفسه خليفة هناك : «وعندما أعيد **نزار** إلى أخيه **المستعلي** بنى هذا حوله حائطاً»[٦٩] . وعادت هكذا دورة الإمام الشهيد والإمام العادل والبرئ والضحية إلى الحياة بشدة . ولكن المضاعفات الجغرافية هذه المرة كانت هائلة ، لأن

٦٧ ـ **ابن الأثير** (الكامل في التاريخ) ج ٨ ، ص ٤٩٧ ، أحداث سنة ٤٨٧
٦٨ ـ المرجع ذاته .
٦٩ ـ **ابن الأثير** ج ٨ ، ص ٣٩٨ .

الداعية الأكثر قوة رئيس قلعة أَلَموت **حسن الصّباح** أعلن نفسه بعد موت **نزار** ، الرئيس السامي ودعا نفسه بالحجة ، «**وبعد وفاته بقي أمراء قلعة** الموت الرؤساء الساميين وابتداء من الرابع منهم **حسن على ذكره السلام** ٥٥٧هـ/١١٦٢م فقد انتهوا إلى اعلان انفسهم أئمة»[٧٠] .

بقيت أروى مخلصة **للقاهرة** ، وبفضلها سيعترف بالمستعلي ليس اليمن فحسب وإنما **اسماعيليو الهند** الذين كانوا يخضعون لها[٧١] . ولكن المستعلي للأسف لم يعترف بجميلها ، فأرسل أحد رجاله واسمه **نجيب الدولة** ليسلبها مملكتها في عام ٥١٢هـ/١١١٩م معتقداً أن **الحرة** أصبحت عجوزاً وربما لم يعد لها الشعبية نفسها . ولكنه فوجئ ، **فاليمن** كانت تحب ملكتها دائماً ولايرضى شعبها إلا بحكمها . فوقف الجيش والشعب وراء **أروى** لمحاربة رسول الخليفة : «وعندما أعلن **نجيب الدولة** الحرب على الحرة بغية انتزاع السلطة منها ، تلقت دعماً كبيراً من معظم أمراء البلاد مما رأى نفسه مضطراً للتخلي عن مشروعه»[٧٢] . وبقيت في السلطة بالرغم من عدم رضى الخليفة في **القاهرة** ، رئيسها المباشر ، حتى وفاتها في عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م .

توفت أروى وفاة طبيعية ، بعد أن مارست سلطاتها كاملة بصفتها رئيسة دولة اليمن لما يقرب من عشرين سنة أخرى . تلك كانت معجزة حقيقية لعاهل عربي .

وإذا كانت **أسما وأروى** والأخيرة بخاصة قد تمكنتا ، ليس فقط من

---

٧٠ ـ **مادلين** Madelung **في** مقال «حول الاسماعيلية» ، في الموسوعة الإسلامية .
٧١ ـ المرجع ذاته .
٧٢ ـ **محمود كامل** (اليمن) ص ١٧١ .

الحكم بل من أن يُخطب باسميهما ، ووجهاء البلاد وشعبها إلى جانبهما ، فهل توجب أن يكون ذلك لكونهما من الشيعة أم لكونهما يمنيتان ؟ بعد أن حاولنا تعريف موقف الشيعة نحو الجنس المؤنث والسياسة يمكننا أن نفكر أن العنصر الديني يجب إبعاده فلا يبقى إلا العنصر الذي يمكن توضيحه بالبعد الثقافي المحلي والذاكرة الخاصة **لليمن** ، التي يبدو أنها تقبل النساء كشركاء في اللعبة السياسية . وإذا كان التاريخ يبين أن الشيعة والسنة يختلفون على كل شيء فإنهم على الأقل متفقون على المصير المخصص للنساء في مادة السياسة . فالخلفاء شيعة كانوا أم سنة يكرهون أن يروا امرأة تدير شؤون الجماعة المسلمة . ويمكننا أن نقدم أن الخلاف بين **السنة والشيعة** على دور **فاطمة** هو أحسن مثال يمكن ايجاده لتوضيح كيف تستعمل الانتهازية السياسية الجنس المؤنث حسب فهمها ووفق مصالحها . فإسلام السياسيين وإسلام القصور يتغير ويتلون حسب الظروف . فالسياسيون خلفاء كانوا أم قضاة لهم مصالح خاصة محددة للدفاع عنها يمكنهم تعديل الإسلام الرسالة حسب إرادتهم ـ الإسلام الرسالة المدون في الكتاب الإلهي : القرآن . فإذا كانت الخلافة عن طريق النساء الطريقة الوحيدة للشيعة للحصول على الشرعية والقصر ، فسلطاتهم الدينية تتهيأ للعمل من أجل اثباته . وإذا كان القصر السني في **بغداد** بحاجة إلى أن ينكر على النساء حق نقل الشرعية ، فالسلطات الشرعية لن تجد أية صعوبة في توجيه النص كما يجب . والخلاف الوحيد هو أن مصالح الخليفة الفاطمي تقوده إلى أخذ موقفين متناقضين بما يخص المؤنث ومكانها على المسرح السياسي . نعم ، في استعلائهم في نقاش سري على نقل السلطة ، والادعاء بأن فاطمة كجدة عن طريقها تمر السياسة والشرعية . وكلّا في وجود النساء شركاء على المسرح السياسي وسينكرون على **أروى** حقها وأنها غير قادرة على تأمين ادارة شؤون دولة شيعية .

تاريخ الفاطميين حقل أبحاث فريد من أجل أولئك الذين يهتمون بالمؤنث والسياسة . فظروف أخرى ولكنها استثنائية أيضاً ، ستدفع بأميرة فاطمية لاحتلال مكان الخليفة ، ومُباشرة وظائفه على مستوى الإمبراطورية لمدة أربعة شهور كاملة . والمعنية هنا هي **ست الملك** التي استولت على السلطة في عام ٤١١هـ/١٠٢٠م بعد اختفاء أخيها الغامض ، الإمام **الحاكم بأمر الله** ، الخليفة الذي أصيب بالهلوسة والهذيان وأعلن في صبيحة أحد الأيام على شعبه أنه الله بنفسه ، وأنّ عليهم أن يعبدوه كذلك . فكان ذلك نقيصة شاقة للمؤمنين بصورة عامة ولأخته ست الملك بصورة خاصة .

وتاريخ ست الملك بقدر ماهو مدهش بقدر ماهو نموذجي ، في نطاق ظروف دفعت امرأة أن تتقلد مالايمكن تصوره : أَخْذَ مكان الخليفة لانقاذ ملايين المؤمنين من هَوَس الإمام . وما كان الامر يتعلق بممارسة الملك أي السلطة الدنيوية الخالصة كما في حالة **أروى** ، ولكن لإشغال المكان الذي فرغ من خليفة أصبح غير جدير في تأمين مسؤولياته . فأَخْذَ ست الملك مكان الإمام المعصوم الذي حَوَّله الجنون إلى قاتل مهووس لاتستجيب اشاراته بنظر المؤمنين إلى أي منطق ولاتقدم أية شرعية ، وحالة **ست الملك** حالة استثنائية متطرفة بدون شك : فحيث يجب على المؤنث أن يتنحى إلى الحريم من حيث المبدأ فإنه يظهر فجأة على عرش الخلافة . ولكي يحمي نفسه فإن النظام سينفي وجود **ست الملك** نفياً كاملاً . فلا تلقى الخطبة أبداً باسمها في المساجد . وهي نفسها المرأة السيدة التي يلصق بها المؤرخون وبمحض ارادتهم صفة الحزم ، ستبحث بعد أربعة شهور من الحكم المباشر في اقامة حاجز ، لتتخفى وراءه وتتقنع .

- ٩ -

سيدة القاهرة

لم تكن ست الملك المولودة في قصر فاطمي ، بحاجةٍ إلى إضافة لقب إلى اسمها الخاص الذي يعني (سيدة السلطة) ، ولم تكن أبداً بحاجة إلى أن تكافح لتحصل على المكان الأول بجانب الخلفاء الذين تجمعوا حولها ، المفتونين بهذا المزيج الذي لايقاوم عند العرب ، الجمال الرائع المقرون بذكاء خارق . ولكن لسوء الطالع أو القدر لم يصبح أي من الخلفاء زوجاً لها . وبقيت حبيسة القبيلة وقوتها وأهدافها الغامضة . فالخليفة العزيز، أبوها ، كان يتملقها وأخوها الحاكم عذّبها كحبيسة من غيرته . وستمارس السلطة أخيراً ولفترة أربع سنوات باسم الخليفة الثالث ، ابن أخيها **الظاهر**[1] . وستدير شؤون الامبراطورية بين عامي ٤١١هـ/١٠٢٠م

---

١ ـ سِيَرْ **ست المُلك** عديدة في المصادر العربية . والمصادر القديمة المذكورة أكثر هي :
ـ **ياسين الخطيب العمري** «الروضة الفيحاء في تواريخ النساء» تحقيق عماد علي عماره مكان الطبع غير مذكور ، ط ١ ، ١٩٨٧ . ص ٤٦٢ إلى ٤٦٦ .
ـ **زينب فواز العاملي** (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور)ـ المكتبة الكبرى ، بولاق ، مصر ط ١ ، ١٨٨٢ ، و ط ٢ في ١٩٨٥ ، ص ٢٤٠ إلى ٢٤١
ـ **محمد عبدالله عنان** «تراجم اسلامية» دار المعارف ، مصر ١٩٤٧ ، ص٣٤ ـ ٤١ .
ـ د . **علي ابراهيم حسين** «لهن في التاريخ الإسلامي نصيب» ، مكتبة ←

و٤١٥هـ/١٠٢٤م ، باسم ولد منحته لقب الظاهر (الظاهر للغاية)[٢] ، إذ أن سلطتها ستكون خفية كما ينص بذلك القانون المقدس . ولن تلقى الخطبة باسمها أبداً . فباسم الصبي ـ الإمام كان المؤمنون يقومون بشعائر صلاة الجمعة . ومع ذلك كانت هي التي تدير الامبراطورية ، «وأظهرت في ذلك خصائص استثنائية لاسيما في مادة العدالة مما جعل الشعب يحبها»[٣] . وان يحبها الشعب المصري فليس ذلك قط ، شأناً بسيطاً ، فأبوها **العزيز** وأخوها **الحاكم** كانا يتلقيان بصورة منظمة رسائل مهينة من قبل مرؤوسيهما بالرغم من الاختلاف الكبير بين الاثنين ، ولاسيما لطف الأول وتسامحه وعنف الثاني غير المعقول وغير المبرر .

كانت **ست الملك** إحدى أجمل الأميرات الفاطميات ، وكانت يداها مزينتين بأثمن جواهر السلالة الفاطمية ، وجسمها معطر ومبهرج من قبل المئات من الجواري اللواتي لاهمَّ لهن سوى جعلها أكثر جمالاً . وكانت تلبس الجلابيب التي لامثيل لها ، والمصنوعة من الحرير الناعم والدمياطي (الكتان) والخسروي (البروكار الملكي) ، والمصممة بخاصة من قبل صناعة لاتخدم إلا السلالة الفاطمية[٤] . والغريب أن **الفاطميين** الذين احتلوا السلطة في مصر باسم المعارضة الشيعية ، والذين كانوا يَعِدُون في البداية

← النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٨ ـ ١١٤ .

٢ ـ لقبه الكامل (الظاهر لاعزاز دين الله) . انظر سيرته عند **ابن خلكان** في(وفايات الأعيان) ج ٣ ، ص ٤٠٦ ومايليها ، وتنصيبه عند **ابن الأثير** في (الكامل) ج ٨ ، ص ١٣١ .

٣ ـ **الزركلي** (الاعلام) طبعة دار العلم للملايين ج ٣ ، ص ٧٨ انظر كذلك (وفايات الأعيان) **لابن خلكان** في سيرة الظاهر ج ٨ ، ص ١٣٠ ، أحداث عام ٤١١

٤ ـ انظر (لباس) في الموسوعة الإسلامية ، القسم المتعلق بالفاطميين .

بالبساطة والتقشف كبديل للأبهة العباسية ، التي تمثل الانحطاط حسب دعايتهم ، انغمسوا بسرعة في بذخ لامثيل له في **الامبراطورية الإسلامية** . كانت **ست الملك** تتزود كغيرها من الأميرات من مخزن الدولة (خزانة الكسوة) التي أسسها جدها المعز، والتي كان خصص لها الحرفيين المهرة لتصميم الثياب المضيئة كعنصر مركزي من عناصر التكوين الشيعي العالمي . وكان الفاطميون يلبسون الأبيض لمعارضة اللون الأسود ، اللون الرسمي للباس الخلفاء العباسيين . ولكن بياضهم كان مطرزاً بالذهب والفضة ومزين بالأحجار الثمينة لتعكس اللمعان الرباني(٥) . لقد ولدت ست الملك في أوج نصرهم وكانت تعكس بذخهم ونفوذهم ، وكانت مخطوفة تماماً بالقوة التي كانت تحيط بها منذ ولادتها عام ٣٥٩هـ/٩٧٠م ، تماماً بعد عام واحد من احتلال مصر من قبل جدها . وهكذا قضت طفولة سعيدة في قصر البحر المدهش ، القصر المصمم من قبل الفلكيين الرئيسيين ليلائم مستوى مسار الكواكب .

وأول من رزح في سحر **ست الملك** كان أبوها الخليفة العزيز ، الخليفة الفاطمي الخامس (٣٦٥هـ/٩٧٥م - ٤١١هـ/١٠٢٠م) ، فقد وهب للقاهرة، التي أنشأها في عام ٣٥٩هـ/٩٧٠م سلفه وأبوه **المعز** ، قصرين من أجمل القصور وهما **قصر البحر وقصر الذهب** . وفي القصر الأول الذي «لم يكن له مثيل لا في الشرق ولا في الغرب» ، عاشت **ست الملك** كطفلة . كانت طفولتها سعيدة فكان أبوها يحب أمها لدرجة أن علاقتهما

---

٥ ـ لعب اللون دوراً رئيسياً في الطقوس وابهة السلطة في الأسر العربية ، وتنازع السلطة يثبت أنه كان يتجلى بين الآخرين على مستوى الرمز ، بتبني لون مختلف ، انظر (لباس) ، المرجع ذاته .

أثرت على التطبيقات السياسية للمملكة[٦] . والواقع أن هذا الحب اعتبر شؤماً من قبل رجال الدولة ، لأن أم **ست الملك** كانت جارية مسيحية من أصل بيزنطي وكانت فخورة بذلك . وقد قررت أن تبقى هكذا . وكان كثيرون ينظرون بعين سيئة إلى لهو الخليفة ، (الإمام الشيعي الذي هو بحالة حرب دائمة مبدئياً مع الروم البيزنطيين) ، مع جارية عدوة صانعة القانون في قصره[٧] . وبقدر ماكانت كراهية الأجانب مبررة من قبل المتعصبين في بلاط العزيز «الذي كان يحب الصفح ويستعمله غالباً»[٨] بقدر ماكان يشمل المسيحيين في سياسته المتسامحة . ففي عهده كان للمواطنين من غير المسلمين (اليهود والمسيحيين) الحق بامتيازات لم تكن لهم قبلاً ، فقد وصل بعضهم إلى أعلى المهام في الإمبراطورية ، وساهموا في جميع الفعاليات السياسية ، وأصدروا قرارات وحصلوا على شأن رفيع مما أثار كثيراً من الغيرة، وجلب للخليفة كثيراً من اللوم والإهانة ، من جانب أولئك الذين لايشاركونه في مثله لعليا في التوحيد والانفتاح[٩] . فتسمية مُوظفَيْن كبيرين الأول مسيحي (**عيسى نستورس**) لمنصب وزير و (**مانشا**) وهو يهودي كممثل شخصي له في سوريا ، انزل على **العزيز** صاعقة من قبل المؤمنين الأكثر تعصباً[١٠] . فهوجم بسيل من رسائل اللوم على اعطائه هذا

---

٦ ـ ابن خلكان (وفايات الأعيان) ، ج ٥ ، ص ٣٧٢ .

٧ ـ بعضهم يقول قبطي . محمد عبدالله عنان (تراجم اسلامية) دار المعرفة ، مصر ، ١٩٤٧ ، ص ٣٤ .

٨ ـ كان يحب العفو ويستعمله ، **ابن الأثير** (الكامل) ج ٧ ، ص ٤٧٧ ، أحداث سنة ٣٨٦ .

٩ ـ انظر سيرة **العزيز** تحت اسم **نزار العبيدي** في (وفيات الأعيان) **لابن خلكان** ، ج ٥ ، ص ٣٧٢

١٠ ـ **ابن الأثير** (الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٧٧ .

القدر من النفوذ لغير المسلمين[١١] . ولكن العزيز قاوم الضغوط وجعل من سياسة التسامح مثلاً أعلى للتعليم الذي نقله إلى ابنته **ست الملك** . فقد ورثت صفاته الشخصية ولاسيما في أمور الانفتاح والتسامح ، وكانت إلى جانبه مشجعة على الاحتفاظ بنستوروس عندما ضعف أمام الحملات وأقاله[١٢] . لقد ولدت **ست الملك** من زواج مختلط بين إمام مسلم ومسيحية ، وكانت تضطلع بهويتها المزدوجة وتدافع عنها كمثل أعلى ؛ وبدلاً من أن تكون ممزقة بين طائفتين متناقضتين متنافستين سعت إلى أن تجعل الواحدة منهما تنفتح على الأخرى ، فاحترام المسيحيين واليهود سيكون أحد المواضيع التي ستعارض به الخليفة التالي ويعرض بالتالي حياتها إلى الخطر . وقد أصرت على أن يحتفظ خالاها المسيحيان أرسيونس وارسطوس بوظائفهما النافذة ، عندما ازدادت التدخلات ضدهما ، فالمؤرخون المسلمون لايخفقون في اعتماد معايير لتقويم خليفة ما ، وذلك بدرجة تسامحه وقدرته على تجنب سفك الدماء ، فالخليفة العظيم هو أولاً الخليفة المتسامح . وحكمٌ سيء هو الذي يسفك الدماء ، والجميع يعترفون بأن عهد الخليفة **العزيز** الذي دام احدى وعشرين سنة كان ناجحاً ، وأنه هو نفسه كان أميراً ممتازاً.. ويصفه **ابن خالكان** بأنه كريم وشجاع ، يميل قليلاً إلى الحدة ، إلّا أنه يعفو بسهولة[١٣] .

كان العزيز عاهلاً ممتازاً من جميع وجهات النظر . كان رجلاً جميلاً جداً . ذا عيون واسعة صافية وأكتافٍ عريضة ، كان يعشق الخيل والصيد ولاسيما صيد الأسود . وكان (أديباً فاضلاً)[١٤] . وقد ورثت **ست الملك**

---

١١ ـ المرجع ذاته .

١٢ ـ **محمد عبدالله عنان** (تراجم اسلامية) ، ص ٣٥ و ٣٦ .

١٣ ـ **ابن خلكان** (وفايات الأعيان) ج ٥ ، ص ٣٧١ .

١٤ ـ **ابن خلكان** (وفايات الأعيان) ج ٥ ، ص ٣٧٢ .

الصفتين عن أبيها : الجمال الذي يقارب الكمال والشجاعة (ولها شجاعة الأبطال)[١٥] . وقد أشركها أبوها مبكراً في السلطة إذ كان يطلب رأيها ويشجعها على التعبير عنه ، وهي لم تزل مراهقة . فقد تعودت **ست الملك** على إبداء وجهة نظرها التي كانت تُؤخذ بالاعتبار ، واستمرت الأشياء هكذا حتى بعد وفاة أبيها .

كان الحاكم الأخ الأصغر **لست الملك** ، الرجل الذي سيرمي بمصر في الهاوية المأساوية لجنونه التعصبي واغتيالاته غير المعقولة ، محولاً وعود الانفتاح إلى حقد أكيد . وقد كبر الحاكم كأي ولد آخر إلى جانب أخته التي كانت تكبره بست عشرة سنة في قصر يطل على البحر وعلى الآخرين . لاشيء كان يسمح بتوقع الخراب ينساب إلى المدينة مع ابتسامة ولد . ولن تنسى **القاهرة** أبداً حفل تنصيبه بعد دفن أبيه الذي نُظِّم بسرعة ، لدرجة أن أرجل الجثمان تجاوزت النعش . والخصي الذي كان يشرف على مراسم القصر لم يكن لديه الوقت لإيجاد تابوت ، أو على الأقل صنع واحد على قياس العزيز ، الذي كان رياضياً عريض الأكتاف ، والذي توفي في أوج عمره من موت طارئ . وقد حضرت المدينة مراسم الدفن مذهولة من الدفن الملكي الذي كان يمكن أن يكون احتفالياً لولا هذا التفصيل الغريب : أرجل الخليفة الميت كانت تتجاوز التابوت .

كان الحاكم صبياً يلعب عندما أمره معلمه والوصي عليه الأستاذ **برجوان**، وهو خصي سلافي ، أمره أن يتوقف عن اللعب حالاً ثم سجد أمامه وقبل الأرض تحت أرجله وتمتم : «السلام على أمير المؤمنين»[١٦] . وألبسه القادة العسكريون وكبار رجال الدولة دراعة (عباءة) السلطة ، بعد

---

١٥ ـ **ياسين الخطيب العمري** (الروضة الفيحاء في تواريخ النساء) ص ٤٦٣ .
١٦ ـ (وفايات الأعيان) **لابن خلكان** ، ج ٥ ، ص ٣٧٥ .

أقل من ساعة من وفاة أبيه ، في أحد حمامات مدينة **بلبيس** عقب استخدام خاطئ لدواء خطر كان يتوجب أخذه في الحمام . والعزيز الذي لم يزد عمره عن اثنتين وأربعين سنة كان في الطريق ، في حملة ضد **البيزنطيين** . كان ذلك في شهر رمضان من عام ٣٨٦هـ (١٤تشرين الأول ٩٩٦)[١٧] . **والقاهرة** التي كانت قد شاهدت سفر العزيز وسط موكب عسكري مدهش ، شاهدت عند غروب الشمس وصول صبي عمره احدى عشرة سنة يلبس ثوباً أحادي اللون ، تغطي رأسه عمامة من الأحجار الثمينة ، ورمح في يده والسيف على خاصرته ، والأعلام ترفرف حوله ومظلة ملكية مفتوحة تظلله يتقدم كل ذلك جثمان العزيز[١٨] . وكان المنادون الحكوميون يجوبون شوارع المدينة ، مكلفين بالاعلان عن وفاة الأب وتنصيب الابن بالصيغة التالية ، التي تعكس الحزن الذي يتعذر سبره ، والذي سببه انتقال السلطة : «آمنكم الله تعالى على أموالكم وأرواحكم»[١٩] . ولم يكن يشك أحد بأن مع هذا الصبي ، المرصعة جبهته بالأحجار الثمينة ، وذي النظرة الدّهشة سيخيم الجنون والرعب على المدينة .

أرهب الحاكم**القاهرة** بفظاظته العامة ، وأرهب ست الملك بغيرته الخاصة ، كان موسوساً بعدد محبيها . وكان يتخيلهم في أعداد كبيرة ويراهم في كل مكان ، ولاسيما من بينهم القادة الكبار في جيشه .

---

١٧ ـ المرجع ذاته .
ـ **المقريزي** (الخطط) ج ٢ ، ص ٢٨٥ ـ ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٤٧٧ ـ عبدالله عنان (الحاكم بأمر الله) ، القاهرة ١٩٣٧ .
١٨ ـ ابن خلكان (وفايات الأعيان) ج ٥ ، ص ٣٧٥ .
١٩ ـ المرجع ذاته .

وستجعلها الشكوك والغيرة تغرق في قتل أخيها وتتوالى سلسلة من الاغتيالات . لقد جاء موت العزيز مفاجئاً جداً ، وأطلق في عقل الصبي الملك صواعق يجهل هو نفسه طبيعتها ومداها . وبدءاً من هنا جرى كل شيء على إيقاع القدر الغريب . تتابعت الأحداث وأصبحت غير قابلة للضبط وأكثر مَرَضِية ودموية وتحولت إلى كابوسٍ حقيقي ثم آلت إلى تلك الليلة من ربيع عام ٤١١هـ حينما انتشر الخبر في **القاهرة** بأن الخليفة قد اختفى . فالخليفة لايختفي . فمن موت طبيعي في سريره ، وهي حقاً حالة نادرة ، إلى موت شجاع في ساحة الوغى ، إلى موت ورع على طريق مكة ، أو الموت عنفاً ، أو اغتيال متعمد من قبل مؤامرات خفية في القصر أو في الحريم ، فالخيار موجود . أما أن يختفي فهذا ما لم تكن الطائفة المسلمة تتوقعه . فجماهير **القاهرة** المضطربة بحادث نَدُرَ وقوعه ، انقسموا إلى فريقين : أكثرية صدقت اختفاء الخليفة ، وأقلية بقيت تنتظره حتى أيامنا هذه . إنهم الدروز الذين يسكنون اليوم في جبال لبنان . وعندما اضطهدهم المصريون هاجروا إلى الشمال وانسحبوا إلى أعالي الجبال المعزولة لإخفاء عقيدتهم المعتبرة هرطقية .

في عام ٤١١هـ ـ كانت غالبية سكان **القاهرة** ذات طبيعة ساخرة ، تلك التي ستجعل من المصريين أحد الشعوب الأكثر انتقاداً في العالم العربي ـ بدأ المصريون يعتقدون اعتقاداً راسخاً بفرضية الاغتيال ، والعديد من سكان القاهرة فكروا بأن ملكهم قد قُتل ، عندما قادتهم الصدفة في إحدى النزهات إلى طريق جولات الحاكم الليلية المسطرة بالعنف والإعدامات ، والتي أصبحت أحداثاً ترهب المدينة . ويشرح الرعب هذه الظاهرة الاستثنائية : تسلم ست الملك السلطة وشغلها مكان الخليفة ، ومباشرتها وظائفه لأشهر عديدة ، وضعية لايمكن التفكير بها قطعاً في الظروف العادية . فالفقهاء الذين من مهامهم أن يتوقعوا كل شيء وأن يشرحوا كل

شيء في حالة شغور السلطة الخلافية ، لتحاشي الاضطرابات في طائفة المسلمين ، تفحصوا كل الحالات ما عدا هذه . فالجنون أُدرج بين النُّصوص التي تُحل المؤمنين من بيعتهم وهو عقد الطاعة للإمام . وعندما تصاب طائفة مسلمة بمثل هذه المصيبة فلا أحد يعرف كيف يجابهها . والأغرب من ذلك أن النقل النهائي للسلطة من الأخ إلى الأخت مرت بهدوء كامل يتنافى مع الهيجان التقليدي والفتنة التي لا مفر منها ، والتي ترافق عادة الفترة بين العهدين .

عند وفاة الحاكم فإن ابنه فقط ، الذي كان مايزال صبياً ، كان يستطيع المطالبة بالعرش . ولكن كل شيء كان غير متوقع ، بحيث لم يفكر أحد بالطقوس والمراسم ، لدرجة أن ست الملك ظهرت وكأنها البديل المقبول والطبيعي . ومع ذلك لم يكن أي شيء طبيعياً في تسلسل الأحداث التي تعتبرها السلالة الفاطمية وكأنها مقررة من قبل النجوم ومراقبة بدقة من قبلها : لا اختفاء الحاكم ولا الترقُّب الذي لحقه .

وعن هذا الاختفاء لدينا العديد من الروايات التي تتفق جميعها على نقطة واحدة : كان الحاكم قد اعتاد الخروج من قصره بافراط ، على الأقل بالنسبة لخليفة ، وكثيراً جداً بالنسبة للبروتكول (المراسم) : «فقد بالغ كثيراً . وفي أحد أيام السبت ظهر مالايقل عن ست مرات : منها مرة كان راكباً حصاناً وأخرى على ظهر حمار ، وثالثة على محفة مرفوعة على رؤوس حمالين . وفي الظهور الرابع رُؤي يفتح طريقاً على النيل بمركب ، وفي هذه المرة لوحظ أن الخليفة لم يكن يلبس العمامة»[٢٠] . ولكن هذا هو الواقع فهو كان يتنزه غالباً ليلاً و كان ينثر بذور الغم في العقول .

كان ولع الحاكم بالنجوم معروفاً ، ولم يكن فيه ماهو غير طبيعي ،

٢٠ ـ المقريزي (الخطط) ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

فمعظم الأئمة الاسماعيليين تقريباً كانوا متضلعين في علم الفلك ، الذي كان بالنسبة لهم تلقيناً وعلماً وتسلية . وفي زمن **الحاكم** استُدعِيَ معظم علماء الفلك في العالم الإسلامي إلى **القاهرة** لمرافقة العاهل الفاطمي . مراقبة النجوم وحساب حركاتها كانت هامة جداً للشيعة الاسماعيليين ، المبنية على مبدأ (الزمان الدوري) ، حيث لايمكن شرح الأحداث الأرضية إلا بحقيقتها الخفية أي بالنسبة إلى «الدراما في السماء» ، والذين يهيئون فلك عقدتها[٢١] . وقد احتفظ (علم النجوم) منذ البدء بمكانة مركزية في المذهب الاسماعيلي . وكان يستخدم للتعبير عن فوائد مختلفة حسب التوقعات . **فابن النديم** ، في تقديمه لمصادر الفلسفة الاسماعيلية ، يستذكر مثلاً أن الفيلسوف الفلكي محمد بن الحسن المكنّى بـ «زيدان» قد فاز بنجاح عظيم في مدينة **الكرخ** ، عندما أعلن أنه حسب حكم النجوم سيستعيد الفرس السلطة من العرب بسبب انتقال مجموعة نجوم متلثة من (برج العقرب) إلى (برج القوس)[٢٢] . فحساب ظهور المهدي المنتظر مثل حساب الزمن الحقيقي لداعية ، ليكشف عن هويته الحقيقية ، تدخل في التنبؤات الفلكية التي تتطلب معرفة جوهرية للسماء وقوانينها .

كان الاسماعيليون يستعملون بإسراف التأملات الفلكية للتنبؤ بالأحداث (علم الغيب) ، وبابتزال أكثر لتعيين عدد أيام الشهور لأنهم لم يكونوا يستعملون الأشهر القمرية كأهل السنة . فكان يتوجب «السماح للامام بتحديد بداية الشهر دون أن يكون مجبراً على انتظار ظهور الهلال . وبداية الشهر تحدد عملياً بواسطة حسابات فلكية ، بحيث يقع غالباً قبل

---

٢١ ـ **هنري كوربان** Henry Corbin (الدراما في السماء وولادة الزمن) في تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٢٨ .

٢٢ ـ **ابن النديم** (الفهرست) ص ٢٦٧ .

يوم أو يومين من بداية الشهر لدى بقية المسلمين»[٢٣] . وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا كانت دراسة النجوم والحساب جزءاًمتمماً في تربية الأمير ولي العهد الفاطمي .

لكن افتنان **الحاكم** بالنجوم لايكفي لشرح رغبته المفرطة في تجواله الليلي . بدأ كثير من المؤمنين يعتقدون بأنه مصابٌ بالأرق . هذا الأرق الذي سيصبح وسواساً لسكان **القاهرة** ، لأنه كان يضاعف فرص العنف ويفتح سلسلة من الأحداث الغريبة التي تبلغ أوجها بالقتل . فبسبب أرقه فُسِّر قراره بقتل جميع الكلاب لأن نباحها كان يمنعه من النوم ، وبسبب أرقه أيضاً فُسِّر الأمر الذي أصدره إلى التجار والحرفيين ليشتغلوا في الليل وليناموا في النهار ، لكي يستطيع موكبه التجول في **قاهرة** مضاءة زاخرة بالنشاط . فالجماهير التي بُهِرَتْ في البدء بمشهد الصفوف ، التي كانت ترافق موكب الخلافة في الليالي الأولى ، خاب أملها بسرعة لأن الحاكم انعطف بعد ردح من الزمن إلى الزهد الأكبر : فلم تعد **القاهرة** ترى الخيول الأصيلة مغطاة بالسروج المذهبة والمفضضة والمرصعة بالخزف والأحجار الثمينة . بعض هذه الخيول في الموكب الفاطمي كان يحمل في عنقه سلاسل من الذهب وعقوداً من الكهرمان . وكانت أحياناً الأحصنة المدربة على تأدية رقصات طقوس الأبهة تدور وحول عراقيبها أسورة ملبسة بالذهب . وقد استبدل جلد السروج ببروكار أحمر أو أصفر أو بتربيعات / السيكلات/ الحرير المطرز بمختلف الألوان[٢٤] .

---

٢٣ - (اسماعيلية) في الموسوعة الإسلامية . نستطيع أن نتصور الخلافات الناجمة عن الحساب بهذه الطريقة بين الاسماعيليين والسنة ، حيث كان الأخيرون يعينونه حسب الشهر القمري وبخاصة أثناء رمضان .

24 - M. Canard : "La procession du Nouvel An chez Les Fatimides", Annales de l Institut d etudes orientales, tome X, Alger, 1952, page 375.

ذات يوم اختفت الأبهة التي عود الخليفة الجماهير عليها . وشوهد يتنزه وحيداً كمنبوذ ، مهمل ، يلبس جلباباً من الصوف ، وهو الذي كان لمعان لباسه يلهم سابقاً . وترك شعره ينمو ونسي أن يلبس العمامة ، الإشارة المميزة للسلالة ، والذي كان أول من زينها بالأحجار وعمل حسب طريقته على شدها (شدة الوقار) وبزينة لامثيل لها[٢٥] . وكان الجمهور يتذكر ، بالأحرى ، أكثر من أي شيء هذه الفترات من الجمال والروعة شبه الخيال لخليفة وقد تعرى من زينته وهو يتجول وحيداً في ليالي القاهرة ، فانقلبت رؤيته وأصبحت تبعث الكوابيس في النفوس . وازداد الغم في تلك الليلة الغامضة من ربيع ٤١١هـ حين خرج الحاكم ولم يعد . كانت الاشاعات قد راجت قبل بضعة أيام سبقت عن مشهد كبير من الغيرة واجه به أخته وقد هددها هي ومحبيها بالموت . . . وكانت المدينة محاصرة بالإشاعات، ولم تعمل الضجة حول اختفاء الخليفة إلا على زيادتها . روايات عديدة سرت عن أسباب الحادث . روايات عديدة سجلها المؤرخون بأمانة دون أن يتوصلوا أبداً إلى توضيح الحالة .

لعل الرواية الأكثر قبولاً من الناس رواية **ابن الأثير** الذي ذكر : أن الحاكم **بأمر الله أبو علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز العلوي** ، سيد **مصر** قد فُقد ليلة الاثنين من شهر شوال (٤١١/الموافق ١٣ شباط ١٠٢١م) قبل نهايته بثلاثة أيام . ولم يكن لدى أحد أية معلومات عنه . وسبب اختفائه أنه خرج ليتنزه ليلاً كعادته . . . فاتجه نحو شرق حلوان وكان يرافقه اثنان من الفرسان . . . وخرج الناس بغية العثور على آثاره حتى نهاية شوال . وفي الثالث من الشهر التالي خرج فريق من سكان القصر تحت اشراف مظفر الصقلي ، الذي كان مسؤولاً عن المظلة (المظلة كانت رمزاً

---

٢٥ ـ **المقريزي** (الخطط) ص٢٨٨ .

للسلطة) ، فوصل إلى حلوان وتسلق التل . . . فشاهدوا الحمار الذي كان يركبه الحاكم . ولاحظوا على أرجل الحمار الأمامية طعنات سيف ، وأن السرج مازال على ظهره . . . ثم تابعوا الآثار التي دلتهم على ثيابه . . . وكانت ممزقة بطعنات سكاكين . . . وعاد فريق البحث وليس لديه أي شك في أن الحاكم قد قتل . . .)(٢٦) كان الحاكم قد أثار المدينة ضده وزاد إلى مالانهاية عدد قاتليه المحتملين ، ويقول **ابن الأثير** : (أن سكان **القاهرة** كانوا يكرهونه بسبب الأذى الذي سببه لهم . وكانوا يرسلون له رسائل يشتمون فيها أجداده . . وأنه تبعاً لهذه الرسائل أمر بإحراق القاهرة)(٢٧) .

في عام ٤١٠هـ/١٠٢٠م أمر الحاكم فعلاً بإحراق الفسطاط (والتي تسمى حالياً مصر العتيقة) عندما غمره المصريون بفيض من النشرات المشينه بعد الهياج الذي تلا ادعاءه الألوهية . وكان قد أمر جنوده الزنوج أن ينهبوا الفسطاط ويحرقوها . وبدأت معارك مميتة بين جيوش الخليفة والسكان(٢٨) . وكانت قد أطلقت جيوش أجنبية أخرى متمركزة في القاهرة ولاسيما الأتراك والبربر ضد السكان . وافتدى كثير من المصريين أولادهم ونساءهم الذين أسروا من قبل الجنود (ولغوياً أصبحوا أرقاء)(٢٩) لقد صُدم سكان القاهرة بإعلان الحاكم الوهيته ليس بسبب سخافة المبدأ نفسه ، ولكن وبصورة خاصة لأنهم (أجبروا على السجود كل مرة يذكر اسمه في اجتماع أو مسجد أو حتى في الشارع : كل من كان يسمع

---

٢٦ ـ **ابن الأثير** (الكامل في التاريخ) دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ ج٨ ، ص ٢٨ أحداث سنة ٤١١ .

٢٧ ـ المرجع ذاته .

٢٨ ـ **ابن الأثير** (الكامل في التاريخ) ج ٨ ، ص ١٢٩ .

٢٩ ـ المرجع ذاته .

اسمه كان عليه أن يسجد ويقبل الأرض للاحتفال بعظمته)[٣٠] .

إذن لم يفاجئ اختفاء الحاكم أحداً ، لكنه خلق كثيراً من الغم ، غم عصبي ، لأن كل مايمس الحاكم كان يكتسي بعداً غير معقول ، بعداً غير متوقع ، والذي لايفهمه البسطاء . كان يمكن أن يقرر الحاكم الاختفاء لبضعة أيام فقط ، وفي الواقع كان ينأى إلى الصحراء ليستغرق في التأمل ، (وفي رجله خف البدوي وعلى رأسه منشفة)[٣١] .

لهذا السبب فإن اختفاء الحاكم لم يسبب **لست الملك** أية صعوبة من قبل المصريين ، لا بل أصبحوا شركاء لها وحلفاء ببقائهم هادئين ، وتحاشوا الاضطرابات التي ترافق عادة موت الخليفة . هدوء وسلوك يمكن فهمه لكثير من الناس الذين يشكون أنها هي التي نظمت اختفاءه . ففي الأيام الخمسة التالية أرسلت الفرسان والجنود لتمشيط القاهرة وتلالها ، وخاصة تلك التي كان الحاكم يتردد عليها باستمرار . جرت العادة أن تتم تسمية خاطفة لخلف الخليفة بحيث لايتدخل إلا المقربون من دائرة السلطة ، أولئك الذين لهم امتياز الاختيار (أهل الاختيار) ، وتتم عملية تسمية الخلف بأسرع مايمكن نظراً لأخطار الفتنة ، أي احتمال تدخل الشعب والإخلال بنظام النخبة ، أو يحتفظ بموت الخليفة سراً حتى يصل ولي العهد إذا كان بعيداً ، أو أنه لا يعلن عنه إلا عندما تنظم طقوس تنصيب الخلف على العرش .

والغريب أنه في هذا الربيع لم يفكر أحد في الاخلال بنظام القصر ومكائد الأقوياء . وكانت القاهرة تمسك أنفاسها ، والعسكريون كالشعب كان يتخفون صامتين . ولمرة واحدة كان فراغ السلطة يصيب بالشلل . فالجماهير الشعبية التي فضحها المؤرخون الرسميون ، والتي لم تستطيع

---

٣٠ - أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب) ج ٣ ، ١٩٤
٣١ - المقريزي (الخطط) ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

التعبير عن نفسها إلا بمعارك الشوارع في الساعات النادرة من الفترات التي تمر بين عهدين ، حيث تمزق متاريس المسرح السياسي ، فهي هنا في هذا الموقف تُفاجِئ في سباتها[٣٢] . فالقاهرة النائمة هي أيضاً أكثر دهشة من القاهرة في أقصى تمردها . فهي مدينة مسحورة منذ ولادتها بفوضاها الخاصة لدرجة الارتباك ، والقاهرة لها سحرها الدائم : (فهي ملتقى المسافرين ومحطة الضعفاء والأقوياء ، وتجد فيها كل ما تشتهيه : علماء وجهلة ، رجالاً مجتهدين أو غارقين في التفاهات ، لطفاء أو نزقين ، من أصل وضيع أو من ولادة مشهورة ، نبلاء أو من العامة ، مجهولين أو مشهورين . وعدد سكانها كبير لدرجة أن موجاتهم تشبه بحراً مضطرباً)[٣٣] . وبينما كانت **ست الملك** تنظم التحريات للعثور على أخيها ، لم يكن سكان القاهرة وهم منتبهون ومطيعون وعيونهم متجهة نحو القصر ، لم يكونوا قد توصلوا إلى تصديق موت الحاكم الذي عودهم على تصرفات لا يمكن شرحها : فكان قادراً على كل شيء ، قطعاً كل شيء ؛ فنزواته المَرَضِية لم يكن لها حدود . ألم يعلن الحرب على الكلاب ؟

---

٣٢ ـ حول حقد وازدراء الشعب ، العامة ، انظر الخلاصة الرائعة في الموسوعة الإسلامية . وتصفحوا أيضاً كتب الكياسة للمتملقين ككتاب (التاج) للجاحظ وهو ارشاد عملي في الآداب الاجتماعية وحياة البلاط أو كيفية التقرب واغواء الأمير . والفكرة الاساسية هي بالتذلل . وكل كرامة بطبيعتها تضايق الرئيس . انظر الجاحظ كتاب (التاج) .

٣٣ ـ ابن بطوطة (الرحلات) . مع ذلك ينبغي ملاحظة أن **مصر** ابن بطوطة المعنية هي مصر في القرن الرابع عشر . وابن بطوطة المولود في طنجة عام ١٣٠٤ قام برحلته الأولى إلى مكة عام ١٣٢٦ . وإنه في زيارته هذه عرج على مصر للمرة الأولى . استشهد بابن بطوطة لجمالية وصفه للقاهرة ودقته وانطباقه عليها حتى في وقتنا الراهن . لكن بالنسبة لمن يود الاستعلام عن قاهرة الحاكم ، فعليه قراءة المقريزي (الخطط) ، اذ نجد وصفاً عملياً لأحيائها لكل حيّ بمفرده وبخاصة لآثارها .

فالحاكم كان قد أصدر أمراً عام ٣٩٥هـ ، بصيد منظم وقتل لجميع كلاب **القاهرة** وأرسل أوامر مماثلة إلى حكام المقاطعات في مصر طالباً إليهم بأن يعملوا الشيء نفسه(٣٤) . ويذكر **المقريزي** أن ماقتل من الكلاب كان كبيراً لدرجة إبادة الجنس ، **وابن خلكان** يضيف بعض التفصيلات التي تعطي فكرة عن الجو النفسي في مدينة ، حيث قَتْل حتى الحيوان أصبح شأناً رسمياً : (فقد أصدر **الحاكم** أمره بقتل الكلاب ، فحالما يظهر كلب في السوق أو الأزقة أو الشوارع فإنه يقتل حالاً(٣٥) . لماذا الكلاب ؟ ماذا كانت جريمتها تجاه الخليفة ؟ يخلص **المقريزي** إلى أن الحجة الأكثر احتمالاً التي يمكن تقديمها هي (أنه يجب أن نتحاشى التفتيش عن أسباب أفعال الحاكم . فالأحلام التي كانت تلازمه تتحدى كل تعليل)(٣٦) . لقد شرح بعضهم قراره بإبادة جنس الكلاب بسبب أن نباحها كان يمنعه من النوم . والواقع أن المدينة بكاملها انغمرت بالتدريج في مسائل أَرَقِهِ ، فقد بدأ باستدعاء مجالس كبار موظفي الدولة لاجتماعات عمل في الليل . وكان هذا منذ عام ٣٨٩هـ وكان عمره آنئذ أربعة عشر عاماً(٣٧) .ولكنه بعد عدد من الجلسات تخلى عن ذلك ، وشرع في نزهاته الليلية . وفي البدء أخذت هذه النزهات طابع موكب رسمي، شجع الجماهير على الخروج والتسلية إلى ساعة متأخرة من الليل : (وقد صرف السكان مبالغ هائلة لتزيين الشوارع واضاءتها . لقد شجعت هذه الفعالية الليلية الناس على

---

٣٤ ـ ابن خلكان (الوفايات) ج ٥ ، ٢٩٣ ، المقريزي ، (الخطط) ، ج ٢ ، ص ٢٨٥

٣٥ ـ المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .(ابن خلكان) (الوفايات) ج ٥ ، ص ٢٩٣ .

٣٦ ـ المقريزي (الخطط) ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

٣٧ ـ المقريزي (الخطط) ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

الأكل والشرب خارجاً . فكثرت الأغاني والتسالي والمسارح حتى تعدت الحدود)[٣٨] . والعقبى ستثير لدى الحاكم الرغبة في العقاب ضد الفجور وضد النساء ، اللواتي سيعتبرهن مسؤولات عن الاضطرابات القادمة .

حاول الحاكم اعادة النظام في مدينة مسلمة بدأت تتذوق مباهج الليل . ناسياً أن نزهاته الليلية كانت مصدر ذلك . «فمنع النساء من الخروج ليلاً ومنع الرجال من الجلوس في الدكاكين» . وبعد بضع سنوات أنهى خروجه الليلي ، ومنع السكان من السير في الليل والتسلية . (ولكن التصعيد سيتزايد ففي عام ٤١٠هـ منع الناس من الغناء في المحلات العامة ، ومن التنزه على شاطئ البحر ، ومنع كذلك بيع الخمر وأصدر للجميع أوامره القاضية بألاّ يخرجوا إلى الشوارع بين غياب الشمس والفجر[٣٩] . وأصبح ركوب مراكب النزهة عملاً ممنوعاً لأنها تمنح السرور للناس ، ولاسيما تلك التي كانت تسمح للرجال والنساء أن يتقاسموا المكان نفسه ، وأصدر الحاكم أمراً إلى المنازل التي تطل على الخليج (القناة) بأن تغلق أبوابها ونوافذها ، لأن النظر يزودهم بالسرور[٤٠] . وأصبحت النساء عند الحاكم ، وبخاصة أجسامهن وتحركاتهن وسواساً حقيقياً .

فالنساء وكل ماله علاقة بالسرور سيطارده الخليفة . فكل ماحرمه كان يرمي إلى هدف واحد : إلغاءهن من الحياة اليومية ، وجعلهن غير مرئيات وتغييبهن وأن يُنسى وجودهن ـ كما لو أنه كان بشكل ماسبب التضخم والجفاف والأمراض السارية التي كانت تبيد المدينة . وكما حدث للكلاب ، فإن القرارات الخاصة بالنساء ترافقت بالعنف ، فمَنْعُ الخروج كان مقتصراً على الليل ثم اتسع ليحيل حياتهن سجناً بكل معنى الكلمة ،

---

٣٨ ـ المرجع ذاته .
٣٩ ـ المرجع ذاته ص٢٨٧ .
٤٠ ـ المرجع ذاته .

طبيعياً وروحياً . ومن المفارقات أن البكاء والضحك والانبساط كلها مُنعت عليهن : ومنعهن أخيراً من أن يبكين أو ينتحبن عند دفن الموتى . «ثم منعهن من السير وراء الجنازة ومن زيارة المقابر أثناء الأعياد»[٤١] . وراح التصعيد يتزايد فمنعهن من السير في الشوارع ووجوهن مكشوفة ، ثم أصبحت زينتهن هدفاً لانتباهه الخاص . فالحاكم لم يكن يريد أن يرى النساء يسِرْنَ في الشوارع وهنَّ متبرجات[٤٢] . وتعريف الزينة كانت يتغير مع تغير السلطة التي تُعرِّفها . فتكاثرت الاعتقالات والاستجوابات في الشوارع لتؤدي إلى مايشبه المنطق نفسه : سجنهن : «فمنع النساء من الخروج إلى الشوارع . ولم تُر امرأة بعد ذلك . وأمر الاسكافيين بألاّ يصنعوا لهن أحذية ، وأُغلقت حماماتهن»[٤٣] . ويُذكِّرنا **ابن العماد** أن النساء (بقين سجينات ولم يضعن أرجلهن في الشارع على مدى سبع سنوات وسبعة أشهر ، حتى وفاة الحاكم)[٤٤] .

يمكن الاعتماد على النساء المصريات في ألاَّ يوافقن بصمت على المصير الذي خصصه لهن الخليفة . ومثل النساء القاهريات في أيامنا هذه فإن جداتهن كنَّ يرفضن طاعة الخليفة وأوامره لأنها كانت حسب رأيهن أوامر خرقاء : «فبعضهن خرجن رغم المنع وقد جرت تصفيتهن»[٤٥] . ذهبن وفوداً يتظلمن للخليفة ويشرحن بأن (ليس لكل النساء رجال يهتمون بهن ويديرون شؤونهن)[٤٦] . عندئذ خطرت للخليفة الحاكم فكرة عبقرية

---

٤١ ـ الحاكم (الموسوعة الاسلامية) بالنسبة للحرمان الأول ، والمقريزي (الخطط) ج ٢، ص ٢٨٧ ، بالنسبة للحرمان الثاني .

٤٢ ـ المرجع ذاته .

٤٣ ـ المرجع ذاته .

٤٤ ـ ابن الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب) ج ٢ ، ص ١٩٣ .

٤٥ ـ ابن الأثر (الكامل في التاريخ) ج ١ ، ١٢٩ .

٤٦ ـ المرجع ذاته .

جواباً على شكواهن ، نقلها المؤرخون بجدية لاتخلو من السخرية : (فقد أمر التجار بأن يجلبوا للنساء كل مايباع في الأسواق والشوارع ، وهكذا كانت النساء تتمكن من التبضع . وأعطى تعليمات دقيقة إلى الباعة . فكان عليهم أن يتزودوا بآلة تشبه المغرفة ، بذراع طويل جداً ، وبهذه الآلة يُدخِلون البضاعة إلى جانب المرأة المخبأة وراء الباب . وتضع هذه الثمن فيها إذا رغبت في الاحتفاظ بالشيء . وهكذا لم يكن البائع يستطيع رؤية زبونته)[٤٧] . وخلافاً لما كان يُعتقد فإن معظم الرجال لم يكونوا يقدرون إلاّ قليلاً هذا النوع من السخافة . واستنتج **ابن الأثير** «أن الرجال تأثروا بشكل مخيف بهذا النوع من التدابير» . وكثير من النساء اللواتي حاولن المقاومة «قتلن ، ومجموعة منهن قُتلن غرقاً . وقد صفى الحاكم العديد من النساء المسنات»[٤٨] .

من كنّ هؤلاء النساء اللواتي فضلن الموت على الاحتجاز ؟ هل كن من طبقة ارستقراطية ، وجيهات وفخورات بامتيازاتهن أم كن نساء فقيرات كانت الحاجة إلى كسب القوت تدفعهن إلى السير في الشوارع ؟ من كن هؤلاء المصريات اللواتي تحدّين الممنوعات غير العادلة للخليفة قبل تسعمئة وستين سنة وقررن خرق أوامره والسير في الشوارع ، التي كان قد أعلن أنها تخص الرجال بصفة جوهرية ؟ هل كن مثقفات أم أميات ؟ أم كن فلاحات دفعهن الجفاف نحو القاهرة ؟ أم بنات ونساء برجوازيين مترفين ؟ وهل كن أمهات عوائل أم كن عاقرات ؟ هل كن نساء مغمورات من قبل الطبيعة أم نساء هامشيات لاأحد يهتم بهن ؟ هذه هي الأسئلة التي سيأخذها شباب جامعات القاهرة يوماً ما كمواضيع لرسائل التحقيق والبحث . وان يأتي هذا اليوم سنرى أمام أعيننا تاريخ شعب القاهرة مختلفاً

---

٤٧ ـ «فنال الناس من ذلك شدة عظيمة» ابن الأثير (الكامل) ج ٨ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .
٤٨ ـ ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب) ج ٣، ص١٧٣ .

جداًعن التاريخ الذي يريد التقليد المعادي للمرأة أن نصدقه : تاريخ شعب محارب ناقد حيث الغضب ضد بغي الحاكم لاجنس له . غضب يلهب النساء مثل الرجال وبالحماس نفسه ، ويرسلهم جنباً إلى جنب في الشوارع حيث الموت والحرية يهزهم كل بدوره . ويصر المؤرخون على واقع يشرح ديناميكة القاهرة المعاصرة : فالرجال كانوا متأثرين بعمق بالمحظورات التي تفرض على نسائهم وإهانتهم لم تكن تختلف عن إهانة زوجاتهم أو بناتهم وأحبائهم . وفي ذلك الوقت كان شعب مصر يعرف مسبقاً كما كان يشعر بأن كل عنف في المدينة ، حتى ولو كان موجهاً ضد الكلاب ، كان في الواقع عنفاً ضدهم . كانوا يعرفون أنه مع حبس النساء فإن حريتهم هي في الميزان . وكان لهم الحق في ذلك .

تمددت قائمة المحظورات سريعاً . فالقائمة هذه المرة تطال الأغذية العادية والبريئة التي لم يتصور أحد وضعها على مقعد المتهمين . فأول هذه الأغذية كانت الملوخية (آه ماألذها) ، **فالحاكم** منع بيع الملوخية احدى الخضار التي يقدرها المصريون حتى يومنا هذا ، لأن **معاوية وعائشة** أعداء الشيعة كانا يحبانها(٤٩) . ولكن المحظورت الغذائية لم تقف هنا . فبيع الترمس وبعض القواقع والأسماك غير المغلسة (أي بدون حراشف) مُنعت(٥٠) . كذلك حظرت الأعناب الطازجة التي منها يمكن صنع الخمر

---

٤٩ ـ الحاكم في الموسوعة الإسلامية . **عائشة ومعاوية** هما خصما الخليفة **علي** المعتبر من قبل الشيعة الإمام الوحيد المؤهل لادراة وقيادة الجماعة الإسلامية ، والخليفة الوحيد والشرعي للرسول . **عائشة** أثارت الحرب الأهلية وادارتها ضد **علي** و **معاوية** نجح في خطف السلطة منه وتسمية نفسه خليفة بدلاً منه ، بقوة المزج بين العمل العسكري والمكْر .

٥٠ ـ **المقريزي** (الخطط) ج ٢، ص٢٨٧ . أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي (شذرات الذهب) ج ٣، ص١٩٣ .

وكذلك الجافة (الزبيب) وبدؤوا في إتلاف المخزون منها[٥١] . وأطنان منها ألقيت في النيل . وحُرِقَتْ كميات كبيرة منها ومنع نقلها . ومخالفة هذه المحظورات كانت عقوبتها الموت مما أدى إلى إعدامات بالجملة . كل هذه الممنوعات كانت تزيد من فرص مظاهر العنف ، من جهة أولئك الذين كانوا يكلفون بتنفيذ القانون والسهر على النظام . ومن جهة أخرى فإن مسائل أخرى أخطر من ذلك كانت تنتشر ولاسيما التضخم الذي أخذ يتسارع لدرجة أن الحصول على الخبز كان بحاجة إلى انتظار طويل وتنظيمات ظالمة . ثم جاء جفاف مرهق خفض من مستوى مياه النيل بشكل مأساوي ، مما جعل تموين المدينة شبه مستحيل . وزيادة على محظورات السير والأكل والتسلية ، كان الحاكم يقوم بتعديلات في الضرائب من أجل إيقاف التضخم ولكن دون جدوى . وازداد هياج الشعب من أجل الخبز[٥٢] . ولكي تحترم التنظيمات الجديدة قام الحاكم باطلاق جيش من الجواسيس ، كان الهدف منه أن يستعلم عن كل شيء ولاسيما على المقربين منه وعن رجال البلاط[٥٣] . ولم يكن استعمال الجواسيس مجهولاً قبله ، ولكن في حالته ، فان الاشاعات التي كانت تجلب إليه كانت تُغضبه «وعندما يغضب فلا يستطيع السيطرة على نفسه إلا قليلاً . وهكذا نفذ الإعدام في عدد كبير من الرجال وأبيدت أجيال بكاملها»[٥٤] .

---

٥١ ـ المرجع ذاته .

٥٢ ـ بالنسبة للرابط بين الحرمانات ، بصدد حركة الرجال والنساء والأغذية والتضخم كانت واضحة ، فقد كانت تُسجل كل نصوصه بإدراجها في جانب كل حظر المسائل التمويلية التي كانت تعيشها البلاد (الخطط) ، **المقريزي** ج ٢، ص٢٨٥ -٢٨٩ .

٥٣ ـ **أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي** ، شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٩٤

٥٤ ـ المرجع ذاته .

لقد اعتبر استعمال الجواسيس أمراً عادياً من ناحية الخليفة . ويعيده **الجاحظ** إلى عهد **الخليفة عمر** : «كان **عمر** يعرف جيداً حكامه ومرؤوسيه البعيدين كما لو أنهم أمضوا الليل في فراشه نفسه وعلى مخدته نفسها . ففي كل البلاد وفي كل الأقاليم لم يكن يوجد حاكم أو قائد بدون مرافق له ومتتبع بصورة دائمة هو جاسوس الخليفة . فكلام سكان الشرق والغرب كان ينقل إليه كل مساء وكل صباح»[٥٥] . **والجاحظ** الذي ينصح في كتابه عن الحكومة الصالحة رئيس الجماعة أن يستعين بجواسيس ، يعتقد أن على الملك الصالح أن يعرف الأفكار الخفية لحاشيته وعائلته ، ويرعى جواسيس عليهم بشكل خاص وعلى الشعب بشكل عام)[٥٦] . وهو ينصح أولئك القراء الذين يشككون في شرعية مثل هذه العملية أن يقرؤوا رسائل عمر «التي كان يرسلها إلى حكامه ووكلائه التي كانت موثقة جداً بأن على كل حاكم أن يرتاب من أقرب والديه إليه ومن أصدقائه الحميمين)[٥٧] . ويعطي **الجاحظ** قائمة كاملة بأسماء الخلفاء الذين كانوا يطبقون التجسس بنجاح كبير **كمعاوية** الخليفة الأموي الأول **وهارون الرشيد** الذي به وصلت مهنة التجسس إلى حدود الاصطفاء وأصبحت فناً[٥٨] . وإذا كان الخلفاء الأمويون والعباسيون قد استعملوا أجهزة المخابرات ، سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب ، فإن ذلك لم يكن ليؤدي إلى تصفيات جسدية منظمة كالتي عرفها المصريون زمن **الحاكم** . و مع تزايد المحظورات التي لم تعد تخص الأفعال الاستثنائية ، ولكن الأعمال

---

٥٥ ـ **الجاحظ** كتاب (التاج في أخلاق الملوك) المنسوب للجاحظ .
٥٦ ـ الجاحظ المرجع السابق ص ١٨٤ .
٥٧ ـ المرجع ذاته .
٥٨ ـ المرجع ذاته ص ١٨٤ ومايليها .

البسيطة مثل الأكل والزينة والخروج للشرب أو التنزه ، أخذ احتمال الوقوع في الخطأ يتزايد بشكل مدوخ .

بعد الكلاب والنساء والتقييدات الفيزيائية ، بدأ **الحاكم** بالهجوم على هدف جديد لإيجاد حلول سحرية لمشاكله الاقتصادية الخطيرة التي كانت تخل بتوازن البلاد . والمقصود أهل الذمة أي **اليهود والمسيحيين** . ومع الغائه تقاليد التسامح ، قام بمنعهم من بيع الخمور واستهلاكها ـ حتى من أجل طقوسهم الدينية . وهدم كنائسهم وأمر بتدنيس مقابرهم . ومع دلك فإن أهل الذمة (الناس غير المسلمين) هم من حيث النظام القانوني ، تحت حماية الخليفة المسلم .

كان للمسيحيين واليهود والدين كانوا يسمون بأهل الكتاب ، بعض الامتيازات ولاسيما حق اقامة شعائرهم الدينية وأن يعيشوا وفق أنظمتهم الخاصة ، أما في عهد الحاكم فقد كانوا هدفاً للتعذيب والإهانة العامة التي لاتحصى . وكما مع النساء ، فالمحظورات على أهل الذمة كانت تخص الجسم والثياب والمسكن ، وقد طلب إلى المسيحيين أو اليهود أن يحملوا في الحمامات اشارة تميزهم عن المسلمين . فرض على المسيحيين أن يحملوا صليباً وعلى اليهود أن يحملوا جرساً صغيراً في رقابهم . فرض على بعضهم التزنر بزنانير سوداء ، وبطيلسنات سوداء (عمامة سوداء على الرأس) . وفرض على المسيحيين أن يحملوا صليباً كبيراً من الخشب معلق في رقابهم . ومنعهم أيضاً من ركوب الخيل وسمح لهم بركائب أوطأ كالحمير . كل الموظفين الكبار المسيحيين واليهود صُرفوا من الخدمة وبعضهم أُعدم . وللتخلص من هذا التعذيب طلب المسيحيون واليهود أن يعتنقوا الإسلام . وقد شوهد اعتناق للإسلام بالجملة[٥٩] . ولكن لاطرد

٥٩ ـ من أجل كل تفصيلاته انظر :

النساء من الأماكن العامة وحجزهن في المنزل ، ولا تعذيب المسيحيين واليهود خفف من التضخم ورفع من مستوى مياه النيل . واستمرت الأزمة الاقتصادية في التفاقم ، والبحث عن الخبز أصبح مشكلة رئيسية .

لقد عاود الخليفة جولاته الليلية والنهارية ، وتزايد عددها ، وحوادث العنف على طُرقه التي كان يسلكها أصبحت محتومة : «ذات يوم كان ماراً أمام دكانة جزار وأخذ منه ساطوراً وضرب أحد حراسه فقتله حالاً ، وذهب دون أن يهتم بالجثة ؛ أما الجمهور الذي ذُعر من الحادث فلم يجرؤ على عمل شيء للميت الذي بقي هناك حتى أرسل **الحاكم** كفناً لدفنه»(٦٠) . كانوا يتفحصون الظل في الأزقة ليكتشفوا ظهوره المشنع الذي يعكس تجوله وحيداًوعزلته عن كل رعاياه . فقد أضاعوا كل اتصال مع من يفترض أنه سيقودهم إلى الجنة ، الجنة التي نسي الشعب اتجاهها ، بعد أن انغمس في الدائرة اللعينة التي تكبل الخليفة ، غير المحبوب من رعاياه الخائفين والمتحررين من الوهم .

كان وجود **ست الملك** في القصر مطمئناً ، في مثل هذه الظروف ، وكان شعب القاهرة على علم بالإشاعات ، التي كان يرددها آلاف الحرفيين والعبيد والخدم المعينين في القصر ، ويعرف خُلُق هذه السيدة ومحاولاتها الفاشلة في إعادة أخيها إلى العقل ، وانتشاله من نفوذ نزواته الخاصة ونزوات

← ـ الخطط **للمقريزي** ج ٢ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٩ .
ـ الكامل في التاريخ **لابن الأثير** ، ج ٨ ، ص ١٢٨ ـ ١٣١ .
ـ **أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي** (شذرات الذهب) ج ٢ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٥
ـ ابن خلكان (وفايات الأعيان) ج ٥ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٨ .
٦٠ـ «الحاكم» ، الموسوعة الإسلامية ، انظر حوادث العنف الاخرى غير المعلّلة والتي كانت تُعلّم طريق نُزهاته ، انظر ذلك في المصادر المذكورة بالملاحظة السابقة .

دعاة الشيعة المتطرفين الذين كانوا يحيطون به . ثمة رجل ، بصورة خاصة ، ظهر في حاشيته أثاره على أخته وأبعده عنها ، ودفعه في هاويات الجنون معلناً له أنه هو الله بنفسه وليس مجرد إمام بسيط(٦١) .

ثمة دعاة متطرفون ، ومن كل الأنواع ، تجمعوا في القاهرة الفاطمية وكانوا يقيمون بها ، وتحت ألقاب كالفلكيين والرياضيين والعقائديين . ولكن **حمزة بن علي** لم يكن يشبه أحداً ، ولم يعرف أحد أن ينسج أمام عقل الحاكم المتردد أحلاماً فيها جنون العظمة كالتألّه ، الحلم المغري لكل انسان بالتهرب من نهايته كما فعل حمزة هذا . أي سر خفي غير سر الموت بإمكانه أن يجعل الخليفة مريضاً بالأرق ؟ لن نعرف أبداً ماالذي كان يعذب الحاكم وماالذي دفع أمير المؤمنين إلى الشوارع والغابات الليلية للبحث عن النجوم التي كانت تبدو وكأنها تتحدى الموت بثباتها . لن نعرف أبداً أي خوف كان يدفع بالأمير خارج حزام القصر وأبهته وملذاته . وماهو مؤكد ، هو أن الداعية **حمزة** كان قادراً على أن يعرض على الأمير دواءً لهذه المخاوف وأن إعلان الأمير عن نفسه بأنه الإله ، بذاته ، أي أنه يملك نوعاً ما صفة معقولةً . ليس فقط أن **الحاكم** استسلم مقتنعاً **بحمزة** ، بل استجاب لضغوطه وأعلن الأمر جهاراً وأجبر المسلمين على عبادته(٦٢) . فإذا كان معظم المسلمين قد اختاروا العصيان على أمير أضاع الشعور **بالحدود** واحترامها ، فإن أقلية صغيرة لم تزل تحافظ على ذكرى **الحاكم** وذكرى **حمزة** حتى يومنا هذا في جبال لبنان . فاختفاء الحاكم بالنسبة للدروز ماهو إلا غيبة وهي جزء من النظام الكوني للإمامة وخفاياها ، تلك

---

٦١ ـ **ابي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي** (شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٩٤

٦٢ ـ المرجع ذاته .

التي تتجاوز فهم العامة[٦٣] . وقد أعلن مؤسس هذه الطائفة **حمزة بن علي** (أن **الحاكم** احتجب وأنه سيعود إلى الأرض بعد غيبة لكي ينشر الإيمان)[٦٤] . يلعب الدروز دوراً متواضعاً في الوقت الحاضر ، وقليلون من يعرفون رؤيتهم للعالم وشخصيات مذهبهم الرئيسية . الدرزيان الأكثر شهرة في العالم العربي الحديث وإن يكن بالنسبة لأناس جيلي ، هما **فريد الأطرش** وأخته **اسمهان** ، وهما اثنان من أكبر ممثلي الأغنية الحديثة . ويتحدران من ذرية أمراء ، جميلان وموهوبان ، ولفريد الأطرش واسمهان حياة موسومة بهذه الصفة الفاتنة للشيعة المتطرفة : السر الخفي الذي له القوة على اطلاق العنان للخيال . وهو لحد ما هذا التذوق اللامعقول وهذا الانفلات في اللاعتيادي ، الذي نجده في الأغاني الحزينة والأنغام الهجينة **لفريد الأطرش واسمهان** ، والتي ليست شرقية تماماً ولا غربية تماماً ولا عربية جوهرياً ولا آسيوية بكاملها ، والتي كانت بالنسبة لمواطنة من شمالي افريقيا ، أول اتصال مع الدروز ، والفرصة لاكتشاف حقيقة أن هناك اسلاماً مختلفاً عن اسلام السنة[٦٥] . ولكن إذا كانت هناك مجموعة من

---

٦٣ ـ لن نلح أبداً على أهمية الكتمان في الرؤية الشيعية للعالم ومحوره المركزي الذي هو الامامة . والإمام المستتر هو مركز هذه (النشأة الكونية) أي نظرية نشأة الكون . اقرأ من جديد كوربان Corbin «الشيعية والفلسفة النبوية» في تاريخ الفلسفة الإسلامية . اقرأ «الاسماعيلية» في الموسوعة الإسلامية .

٦٤ ـ إحدى أفضل السيَر عن **الحاكم** التي هي في آن واحد تختصر وتفصل أخباره على خلاف ماهو مبعثر في عدة أجزاء من بعض المصادر كما في (الوفايات) لابن خلكان والكامل في التاريخ **لابن الأثير** ، نقول إحدى أفضل هذه السيَر نجدها عند **خير الدين الزركلي** في (الأعلام) دار العلم للملايين ، ج ٧ ، ص ٣٠٤ . والمصدر الثاني لهذه السيرة المختصر والجدير بالاطلاع عليه هو الموسوعة الإسلامية .

٦٥ ـ بالنسبة للمعجبين مثلي بالمُطْربين (فريد الأطرش وأخته اسمهان) ، هل تعرفون إنهما درزيان ؟ وُلد فريد، من عائلة درزية بارزة في بلدة **(القرية)** في سورية في ←

الأنصار لم تزل تحافظ على ذكرى الحاكم بتضحية واحترام ، فلايمكننا قول الشيء نفسه بالنسبة لمصيرىي ذاك الزمان .

← جبل العرب عام ١٩١٠ . تعلّم العود من أمه ورحل مع أخته اسمهان إلى القاهرة في فترة الثورة السورية الكبرى ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥ . وفي القاهرة تابعا تعليمهما الموسيقي . ماتت اسمهان في حادث غامض حين غرقت سيارتها في حادث بين القاهرة والسويس عام ١٩٤٤ . في الفترة التي حصلتُ فيها على الشهادة الثانوية في عام ١٩٦٠ وغادرتُ **فأس** إلى جامعة **محمد الخامس في الرباط** ، كنت أستمع دون شك لالفيس برسلي Elvis presley وأرى في منامي **مارلين مونرو** بالتأكيد . ولكنها ألحان **اسمهان** الدنفة حين كانت تدندن (قهوة ، اسقيني قهوة) تلك ما كنت أحاول تقليدها بورع في تدربي على السمو والاغواء أمام الرواق غير المنتظر للطلاب القادمين من جميع أنحاء المغرب . كنا حوالي ٣٠ طالبة ومايزيد قليلاً عن ١٠٠٠ طالب . وكانت الشائعات تقول بأن اسمهان كانت جاسوسة أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأنه لهذا تم تصفيتها . بعض الشائعات كانت تقول بأنها تعمل لحساب العرب ، وبعضها الآخر تقول بأنها تعمل لحساب انكلترا . والشائعة التي أمقتها تلك كانت تقول بأنها مرتبطة بالنازية . وللدفاع عن سبب عملها لصالح العرب ضد الانكليز كان يقال بأنها متورطة في اللعبة الألمانية . وماموقف الرجال في حياتها ؟ جميع الأمراء وملوك الشرق الأوسط كانوا يتنازعون حولها ، وفوق ذلك كان لاعبو الكرة والفنانون . وماذا يمكن من تصور أكثر . . . على كل حال فإن وضعها الخفي هو ما يطلق الحلم (الخيالي) ويوظف السر الذي كان مِثَاليّ النسوي أثناء ساعات قلق المراهقة ، وكذلك فريد الذي كان يبكي وحدته في جميع زوايا المدينة ، وحدة الرجولة ، الأكيدة ، التي كانت تنضح بالعذوبة من جميع مسامه . والهذيان بأن **اسمهان** كانت دنسة أوْشَكَ أن يقتل في عام ١٩٦٣) طالباً مغربياً كشف لنا عن أنها ماتت قبل الاستقلال ، وقرر ألا يثق بها طالما أنها من أتباع **حمزة** مع **الحاكم** . وبالنسبة لي ، فمنذ أن دخلت في عالم المراهقة ، سواء أكان في العاطفة أو المهنة ، وسواء أكان في عشاء رومانسي أو في اجتماع فإن لحن اسمهان الدنف هو ماكنت أحاول أن أحياه . ولحد ما فإنه من أجل هذا أحاول أن أبدأ محاضراتي بصوت خفيض عذب يذهب في الحال إلى القلوب . لقد نجح فريد الأطرش بعدها ولمع ، وأصبح مغنياً مشهوراً وممثلاً نعرفه . لقد ألف ألحاناً لمايزيد ←

وبإعلان ألوهيته مع كل ماتحتاج من أبهة في المساجد وبعون من القضاة والعلماء ، اشتد غضب شعب **القاهرة** . فاستعمل المصريون تقنيتان للتعبير عن غضبهم أصبحتا من بين الوسائل الأكثر قوة في العالم الحديث : الكتابة الفردية التي نجدها في الصحاقة المكتوبة والرسائل المنسوخة على الحيطان التي نجدها في الاعلام الحائطي . وسيخص قصر **الحاكم** برسائل الإهانة وسيجن جنون المسؤولين عن النظام من أجل إزالة الخطوط على الحيطان ، التي تسخر من ادعاء الفاطمي بالألوهية . وإذ جن جنونه أمام رفض المصريين الذين تجرؤوا على تحويل حيطان المدينة إلى رسائل رفض وعصيان ، فقد أصدر أمره بحرق المدينة(٦٦) . ويقول بعض ساردي الأخبار أنه وجد السرور في ذلك(٦٧) . وأمام المدينة الملتهبة لم يكن قرار **ست الملك** بالانتقال إلىالعمل مفاجئاً . ولكن إذا كان جميع المؤرخين يجمعون على جعلها **قاتلةً** لأخيها ، فإن مؤرخاً واحداً يقدم فرضية لقاتل الملك . ونعني به المؤرخ القدير **المقريزي** الذي رسم في كتابه (الخطط) لوحة مؤثرة عن قاهرة الفاطميين ، كتاب يبقى حتى يومنا هذا من بين المصادر الأكثر احتراماً عن عهد الفاطميين . وحسب روايته فإن قاتل **الحاكم** كان رجلاً من بني حسين وكان قد أعلن في عام ٤١٥هـ أنه هو الذي قتل الحاكم بالتواطؤ مع ثلاثة أشخاص آخرين . وعندما طلب إليه أن يشرح كيف تصرف ، (أخرج مدية وغرسها في قلبه قائلاً ، هكذا قتلته وانتحر أمام

← عن (٥٠٠) فيلم مات عام ١٩٧٤ . والبعض من أمثالي يتتابهم الحزن الكلاسيكي حالما صوته العذب ينساب عبر الترانزستور . (الله يرحمه) .

٦٦ ـ **ابن الأثير** (الكامل ج ٨ ، ص ١٢٨ ، **أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي** (شذرات الذهب) ج ٣ ، ص ١٩٤ ؛ الموسوعة الإسلامية ، سيرة الحاكم .

٦٧ ـ ذكرهُ J. Robson في مقالة حول (الحاكم) في الموسوعة الإسلامية التي ترفق مقاله بإحدى الفهارس الأكثر اكتمالاً مما يمكن وجودها .

الملأ[٦٨] . لماذا قتلته ؟ فكانت إجابته : دفاعاً عن شرف الإسلام والله[٦٩] . ولكن القاتل المجهول الذي قدمه **المقريزي** لاوزن له أمام اتفاق المؤرخين شبه الكامل ، على أن المبادرة بقتله أُعطيت من قبل **ست الملك** . وكان لديها أكثر من سبب لإزالته . فقد جرحها في كرامتها عندما كان يرسل لها رسائل مهينة يتهمها فيها بالزنا ويتوعدها بالموت[٧٠] . فكتبت حينئذ إلى **ابن دوس** وهو قائد كبير من حاشية الحاكم ، والذي كان يظنه حبيباً لها ، ونظمت اجتماعاً معه : (خلال هذا الاجتماع عقدت صفقة مع هذا العسكري ووعدته بتقاسم السلطة معه إن هو قتل الخليفة) ، وعندما تمت مهمة **ابن دوس** واغتيل **الحاكم** اكتشفت ست الملك بدهشة كبيرة أنها عندما تضع يدها في مسننات الاغتيال السياسي فإنه لايمكن إيقافه . ومالعمل مع **ابن دوس** الذي كان يعرف كل شيء وكذلك الخدم الآخرين الذين ساعدوها في مهمتها ؟ وهناك ماهو أكثر إلحاحاً : إنه تنصيب **ابن الحاكم** الذي لم يزل يافعاً ، مما تمنعه **الشريعة** من أن يكون خليفة قبل أن يصل إلى سن البلوغ . وبدون ابن دوس الرجل القوي في **الامبراطورية** من كان يستطيع محاججة القضاة ، واقتياد السلطات الدينية للمساهمة في ذلك ؟ .

وعندما أحاط ابن **الحاكم** رأسه بالعمامة الملكية ، وأُعيدت طقوس النظام في القصر والمدينة ، عندئذ باشرت **ست الملك** بمهمة أخرى أصبحت ملحة وهي تصفية **ابن دوس** ، الذي كان يعرف السر وكان له

---

٦٨ ـ المقريزي (الخطط) ص ٢٩٨

٦٩ ـ المرجع ذاته .

٧٠ ـ **ابن خلكان وفايات الأعيان** ، ج ٥ ، ص ٢٨٩ ، ابن الأثير (الكامل) ج ٨ ، ص ١٢٨ .

القوة في ابتزازها . ففكرت في خدعة كانت تسمح بموت علني : فقد أرسلت حراساً إلى اجتماع للوزراء والأعيان وأشاروا بأصابعهم إلى **ابن دوس** واتهموه باغتيال (سيدنا الخليفة) قبل أن يغتالوه في جلسة علنية . وعندما نُظِّف القصر ونظمت الوصاية رسمياً اختارت **ست الملك** وزراء أكفاء وانكبت خلال أربعة أعوام على إعادة النظام في اقتصاد البلاد وإلى تهدئة العقول . وقد نجحت في كلا المخططين .

إنه لفريد حقاً أن تستطيع امرأة في الظروف الاستثنائية التي أدت إلى فراغ في السلطة خلال الأشهر الأولى من الاضطراب الذي تلا اختفاء الخليفة ، تأمين وظيفة هذا الخليفة وإدارة الامبراطورية بصفتها وصية على العرش . والدرس الهام الذي يمكن استخلاصه هو أن هذه الملكة الفاطمية لم تجرؤ على طلب القاء الخطبة باسمها . وكمراقبة نبيهة ودقيقة للمسرح الخليفي كان مؤكد أنها ـ إذا مافكرت في ذلك ـ تعرف أفضل من غيرها قانون الحريم الذي يحدد إلى الأبد سكانه : إنه قانون الحجاب . و هي تؤكد لنا أيضاً بأن الشيعة والسنة ، في مسألة الجنس المؤنث ، متفقون على : أن تبوّء المرأة الإمامة الكبرى وادارة شؤون الدولة ، هو حدث يرافقه الاضطراب ويُعبِّر عنه . فليس للنساء الحقوق نفسها التي للرجل . فهنَّ من حيث جوهرهن غريبات عن السياسة . وهذا مايؤكد لنا من جديد أن حالة الملكات اليمنيات لم تكن بتأثير العامل الشيعي ، وإنما بخصوصية التقاليد الاقليمية . فمنطق الانتماء إلى الحريم يفرض القناع ، فالحجاب لكل من يخرق الحدود ويتواجدن في الجهة الأخرى ، جهة المسرح الخليفي . فالحجاب يحدد المسرح والطقوس الدينية ، وبهذا فهو أكثر اضطراباً من الغياب والموت . وسواء كان في الغياب أو في الموت فالمقصود هو الوجود . فالغائبون والأموات لاوجود لهم ، وبدرجات متفاوتة ، هذا صحيح . ولكن المقصود في طقس الحجاب إلغاء ارادة كائنات فيزيائية

قائمة . كائنات ليست لا أمواتاً ولاغائبين ، إنما نساء موجودات هناك وينظرن إليك بعيون كبيرة ، مفتوحة وبانتباه . ولم يكن وجود ست الملك على عرش مصر ليقلق بل إرادتها الملكية التي تعظمها الخطبة . ولهذا السبب فإن الرجل العربي لاينزعج من ذكاء المرأة . فالمرأة الذكية هي شيء مثير للإعجاب دائماً ومستحسن ، والتسرب الكثيف للنساء في الدوائر الجامعية في العالم العربي ، وفي أقل من ثلاثين سنة من التعليم يؤكد هذه الفكرة . فدخول المرأة إلى المعرفة وإلى الجامعة ومعاهد العلم لايزعج إلا قليلاً ، شريطة ألا تؤثر هذه الظاهرة على السياسة ولاتتجاوزها . ما يزعج هو قرار المرأة أن تكون ذات إرادة مستقلة . هناك اختلاف كبير بين الذكاء والإرادة . فذكاء المرأة يمكن دائماً أن يوضع بتصرف ذلك الذي يملكها أما الإرادة فأبداً . فالإرادة إما أن تكون أو لا تكون . وإذا وجدت فلا يمكن أن تكون إلا بالمنافسة مع إرادة أخرى ، ولاسيما مع إرادة الرجل الذي تنبغي إطاعته . لذلك ، ففي اللغة العربية هناك كلمة الناشز لتسمية المرأة التي تعصي إرادة زوجها . ومفهوم النشوز لايطبق إلا على النساء ، وهو الإعلان من جهة المرأة عن قرارها بألّا تتبع إرادة زوجها . فالناشز إمرأة تعلن عن نفسها كفرد ، وليس ككائن ينقاد لإرادة الآخرين . والنشوز مرادف للفتنة ، وللفوضى ، وتعريف المواطنية الذي يعطيه الاعلان العالمي لحقوق الانسان هو مرادف النشوز نفسه ، هو انبثاق إرادة الفرد ، مهما كان جنسه (ذكراً أو أنثى) سيد نفسه على المسرح السياسي . الإرادة الفردية ومكانها على رقعة الشطرنج السياسي للاسلام الحديث ، هي المشكلة الرئيسية التي تدور حولها المشادات ، سواء مع أنصار الأئمة أو أنصار اليسار العلماني ، سواء كان خطاب رؤساء دول أو كتابات سجناء سياسيين . كل خطاب عن النساء في العالم الإسلامي هو إذن خطاب عن مستقبل الفرد وموقعه في المجتمع . ومادامت إرادتنا محجوبة فإن إرادة الرجال الذين لايعيشون في حاشية الأمير ولايساهمون في امتيازاته ستبقى هكذا . وفي ممالك

النساء اللواتي استولين على السلطة في الإسلام ، كانت النساء من قريبات الأمير (أب ، أخ ، ابن ، أو زوج) وحدهن من دون بقية النساء اللواتي استطعن الظهور على المسرح السياسي . والنساء اللواتي لايعشن في صحبة القصر ليس لهن كالرجال، أقل حظ في الولوج . وهذا هو الجوهر الأرستقراطي الذي أقحم بشكل كامل بحق التصويت والانتخاب العام . وبهذا فإن انتخاب السيدة **بنازير بوتو** في الانتخاب العام والذي فهمه الإسلاميون جيداً ، يُشكل قطيعة كاملة مع الإسلام الخليفي ، بالانبثاق المزدوج على الساحة السياسية للمُحَجَّب والفاحش : إرادة النساء وارادة الشعب .

فالتصويت العام يمزق حجابين يُعيّنان ويُجسدان العتبتين اللتين تصممان الإسلام السياسي بصفته عمارة كونية : حجاب المرأة وحجاب الخليفة . لأنه مهما بدا وكأنه متناقضاً ، فالنساء لسن وحدهن اللواتي يختبئن وراء الحجاب . فالخليفة المسلم ، هو التركيز الكوني لجميع إرادات المؤمنين ، أولئك الذين اختاروا من أجل الخضوع ، ونفي الإرادة لصالح إرادة الجماعة هو بحاجة لأكثر من أي كان لأن يُحمى . وحجاب الخليفة ، هو أيضاً مؤسسة أساسية للإسلام السياسي كحجاب النساء ، وإذا لم ينادى به مباشرة وأبداً في الطرح اليائس لعودة الحجاب ، فما ذلك إلاّ لأنه يحجب ماهو متعذر تسميته : إرادة الشعب ، إرادة العامة الخطيرة أيضاً كالنساء .

الخلاصة

المدينة الديموقراطية

لاتخفي الحُجب إلا مايخل بالحياء . والأكثر إخلالاً بالحياء من إرادة الحكم عند النساء ، هو الإخلال بالحياء عند العامة ، الجماهير الشعبية التي عُرِّفت منذ البداية بأنها محرومة من العقل . وإذا كان الخليفة هو القطب الأكثر سمواً في الهندسة السياسية ، فإن العامة تشكل في هذه الهندسة القطب الأكثر خسة ، الأكثر دنيوية ، فالعامة كما يقول المؤرخون كافة ، لاتستطيع التفكير ، إذ أنه من أجل التفكير ينبغي وجود معايير للأمر والتمييز والحكم والتقييم . وبما أن العامة محرومة من الادراك والتمييز ، فإن ذلك يجعلها عاصية للأوامر ومتمردة على ممثلها ، الخليفة ، عدوة طبيعية له وتجعل حياته على الدوام في خطر . من هنا كانت الضرورة لحماية هذا الأخير ، وإخفائه خلف حجاب ، حجاب حاجز ، وحجاب الخليفة هذا ليس أمراً ثانوياً قاصراً ، بل هو مؤسسة مفتاحية لها طقوسها وعملاؤها المكلفون بالسهر عليها . وقد ظهر حجاب الخليفة مع سلسلة اغتيالات الحكام المسلمين الأوائل ، في رحاب المسجد ، وعلى رأس هؤلاء الخليفة **عمر** .

كان **عمر بن الخطاب** خليفة حاكماً لامأخذ عليه ، فهو صاحب

استقامة مثالية ، متّقٍ لله وعادلٌ مع الناس ، وقد اغتيل وسط الجامع وهو يقوم بواجبه . إذ كان يستعد بصفته إماماً ليقيم الصلاة عندما اغتاله أحد الغاضبين . لقد كان الخليفة الثاني بعد **النبي** ، وكان موته صدمة كبرى ، بيد أنه إذا كان أول خليفة يُغتال فإنه لم يكن الأخير . وقد أطلق موته حقداً دفيناً بين الرئيس ورعاياه . ففي كل مرة كان يظهر فيها الخليفة ، كانت الجماعة تفرز قائداً ، فرعاياه المجمدون بين واجب الصلاة وفقدان الحوار مع الإمام ، حولوا الجامع إلى مكان تضحية ، والإمام فيه إلى أضحية . وتكدست الجثث في باحات المساجد ، ولوقف المجزرة كان النظام الإسلامي السياسي مجبراً على ابداع عتبة أخرى ورفع حجاب آخر ، حجاب الخليفة ، الذي هو في هذه المرة سياسي للغاية في جوهره . وكانت الغاية منه انقاذ ممثل الله على الأرض من عنف الشعب الذي كان عليه واجب قيادته . وهكذا كان قصر الخلافة مجمداً بين حجابين ، حجاب النساء وحجاب العامة ، الجماهير الدنيوية المنضوية على حقد شبه وحشي تجاه المقدس وممثليه . فقَتْلُ الخليفة **عمر** يمكن اعتباره كحدث مفتاحي أدى إلى تقسيم الفضاء السياسي ونفي الشعب الفاجر خلف عتبة ـ حاجز . . . .

لنُعِدْ هنا عرض المشهد طالما أن التاريخ الإسلامي لايعيش الأحداث حسب تسلسلها وإنما يعود بدون انقطاع إلى المشاهد البدئية Primordiales: كان **عمر** مشهوراً بحبه للعدل ولكنه معروف بغلظته ، وفي أحد أيام السنة ١٣ هجرية ـ ٦٣٤م . . حصل الاغتيال كما يرويه المسعودي في تاريخه[1] كالآتي : « . . . . كان عمر لايترك أحداً من العجم يدخل المدينة ، فكتب إليه **المغيرة بن شعبة** : إن عندي

---

١ ـ **المسعودي** (مروج الذهب) ج ٢ ، ص ٣٢٩ الترجمة الفرنسية . . .

غلاماً نقاشاً نجاراً مداداً فيه منافع لأهل المدينة ، فإن رأيت أن تأذن لي في الارسال به فعلت ، فأذن له ، وقد كان **المغيرة** جعل عليه كل يومين درهمين ، وكان يدعى (**أبو لؤلؤة**) ، وكان مجوسيا من **أهل نهاوند** ، فلبث ماشاء الله ، ثم أتى **عمرَ** يشكو إليه ثقل خراجه ، فقال له **عمر** : وما تحسن من الأعمال ؟ قال : نقاش نجار حداد ، فقال له عمر : ما خراجك بكثير في كنه ما تحسن من الأعمال ، فمضى عنه وهو يتذمر ، قال : ثم مر **بعمر** يوماً آخر وهو قاعد ، فقال له **عمر** : ألم أُحدث عنك إنك تقول : لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت ، فقال **أبو لؤلؤة** لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها ومضى . فقال **عمر** : أما العلج فقد توعدني آنفاً ، فلما أزمع بالذي أوعد به أخذ خنجراً فاشتمل عليه ثم قعد **لعمر** في زاوية من زوايا المسجد في الغلس ، وكان **عمر** يخرج في السحر فيوقظ الناس للصلاة ، فمر به ، فسار إليه فطعنه ثلاث طعنات احداهن تحت سرته وهي التي قتلته ، وطعن اثني عشر رجلاً من أهل المسجد فمات منهم ستة وبقي ستة ، ونحر نفسه بخنجره فمات . . .» وفي هذا المشهد المرعب في مسجد المدينة فجراً ، تمددت مع جثة الخليفة الطعين ست جثث من المؤمنين إلى جانب جثة القاتل ، الأمر الذي أطلق الحرب بين الخليفة والشعب . . . . . .

ولسوف يتبع حادثة الاغتيال هذه حوادث اغتيال أخرى كثيرة ، ومنها على الأخص اغتيال **علي بن أبي طالب** ، وذلك في المسجد دائماً وهذا الاغتيال الأخير هو الذي أثار أول انشقاق في الإسلام ، الانشقاق الذي يوجه الخليفة للارتياب بجماعة من المؤمنين تتجمع في المسجد اذ يحتمل أن تضم بينها قاتلاً . وفي هذا يقول **ابن خلدون** في مقدمته الرائعة :

« . . . . ولقد كان الخلفاء الأولون لايقلدونها لغيرهم من الناس

وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الآذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا مستخلفين فيها . . . .الخ»[2] .

ومع سلسلة اغتيالات الخلفاء ، فإن الأمة ، والجماعة المثالية من المؤمنين ، تركت مكاناً لعامَّةٍ ملأى بالحقد تجاه الخليفة الذي تريد قتله .

الحجاب هو الستر الذي يخفي الخارج الظاهر ، وهو الحاجز المخصص لحماية الخليفة ، ومن الآن فصاعداً سوف يُفصل هذا الأخير عن رعاياه الذين أصبحوا العامة . ويُعتبر الخليفة العادل من بعدُ حبيس الفضاءالدنيوي وواقعه العنيف ، عنفٌ يصدع المشهد السياسي إلى قسمين : فضاء القرارالخليفي وفضاء العامة المستبعدة عن هذا القرار والمعزولة دائماً خارج أسوار القصر . وقد ظهرت مؤسسة حجاب الخليفة حسب قول **ابن خلدون** متوازية مع تحول الخلافة إلى طغيان دنيوي : «عندما تحولت الخلافة إلى ملكية «تيوقراطية» وظهرت مؤسسة السلطنة مع تسمياتها (أي عندما أخذ الخليفة يفوض سلطاته من إمامة ، وصلاة ، وإقامة العدل ، وإدارة الأموال ، كان أول ما اهتم به إغلاق بابه عن العامة بسبب مخاوف هؤلاء الأمراء على أنفسهم من محاولات اغتيال الخوارج والمنشقين . . . . وكان لترك الباب مفتوحاً خطر آخر هو خطر السماح للجماعة بمحاصرة الأمراء ومنعهم من التفرغ لأعمالهم الهامة . وكان الموظف المختار لهذه المهمة هو الحاجب[3] . والحاجب يشترك مع كلمة الحجاب بجذر حجب بمعنى أخفى ، ستر ، وهو يعني فصل الفضاء إلى قسمين بستر أو حجاب ، والفارق الوحيد بين حاجب وحجاب هو أن الأول رجل ، والثاني شيء ،

٢ ـ المرجع ذاته .

٣ ـ ابن خلدون الترجمة الفرنسية ص ٨٩ .

قناع أو حاجز ما ، بيد أن للاثنين وظيفة واحدة هي : **تقسيم الفضاء إلى اثنين** ، الداخل والخارج ، وذلك بهدف وقاية الداخل من الخارج . فالحاجب «يوضع بين السلطان والعامة ، وهو يغلق باب السلطان عن العامة أو يفتحه لها حسب صنف الزائرين وذلك في أوقات يحددها الأمير»(٤) .

هنالك نصوص جميلة جداً في التاريخ العربي حول عزلة الخلفاء الأتقياء مثل **عمر بن عبد العزيز** ، الذي أراد بجدية وقف العنف ومحاورة العصاة ، وقد صرف وقته في استقبالهم وإرسال الرسائل المطولة لهم ليوضح فيها موقفه وليفهمهم . . . وللأسف ، فإن **عمر بن عبد العزيز** مات باكراً قبل أن يتمكن من تأسيس الحوار مع المعارضين بدلاً من قطع رؤوسهم . وقد عانى هذا الخليفة من فصله عن الشعب بالحجاب ، عارفاً بأنه كان يستحيل عليه القيام بمهمته في آن واحد ، حسب المثل الأعلى ، بأن يكون رئيس دولة ورئيس حكومة ووزير عدل ووزير مالية ورئيس الجيوش(٥) « . . . وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في المخاصمات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم . . .»(٦) بيد أنه سرعان ماأصبح مستحيلاً على الخليفة القيام بكل وظيفة تكفل مواجهة الشعب وجهاً لوجه : « . . . ولم يكن الخلفاء يجعلون القضاء إلى من سواهم وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه **عمر**

---

٤ ـ **ابن خلدون** ص ٢٤٠ من الترجمة الأصلية . . .

٥ ـ انظر ابن خلدون (وظائف الخلفاء الدينية) ، المقدمة ، دار الكتاب العربي ، بيروت وكالعادة صفحة ٢١٧ ومايليها . تاريخ النشر غير مذكور .

٦ ـ المرجع ذاته .

رضي الله عنه . . . .»[٧] . ذلك هو الأمر بالنسبة إلى العدل . **فعمر** ثاني خليفة راشدي ، مات في سنة ١٣ هجرية ٦٣٤م ، ومنذئذ لم يعد العدل الإسلامي يقام من قبل المسؤول عنه حسب الخطة الإلهية ، أي الخليفة بذاته . وقد رأينا أن **هارون الرشيد** ، كان أول من فوض بوظيفة الامامة ، حيث أوكل لبعضهم اقامة الصلاة بدلاً عنه . ومنذئذ ، ارتبط الخليفة والشعب اللذان لم تعد توجد مناسبة بينهما للحوار ارتبطا في حلقة عنف ، ونفاذ تمرد وعصيان . فالخليفة يتمترس في قصره حيث يكون مفرغاً من الشعب ، ولايرى العالم إلا من خلال الحاجب . إنه بلاط نخبوي مشكل من الوزراء ، وكبار الموظفين ، والعلماء ، والسلطات الدينية وقادة الجيش ، الذين يحيطون به ويسدون عليه الأفق .

« . . . ومن أخلاق العامة أن يسودوا غير السيد ، ويفضلوا غير الفاضل ، ويقولوا بعلم غير العالم ، وهم اتباع من سبق إليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول ، والفضل والنقصان ، ولامعرفة للحق من الباطل عندهم ، ثم انظر هل ترى إذا اعتبرت ماذكرنا ونظرت في مجالس العلماء هل تشاهدها إلا مشحونة بالخاصة من أولي التمييز والمروءة والحجا ، وتفقد العامة في احتشادها وجموعها ، فلاتراهم الدهر إلا مزقِلين إلى قائد دب ، وضارب بدف على سياسة قرد ، أو متشوقين إلى اللهو واللعب ، أو مختلفين إلى مشعبذ متنمس ممخرق ، أو مستمعين إلى قاص كذاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أو وقوفاً عند مصلوب : ينعق بهم فيتبعون ، ويصاح بهم فلا يرتدعون ، لاينكرون منكراً ، ولايعرفون معروفاً ، ولايبالون أن يلحقوا البار بالفاجر ، والمؤمن بالكافر ، وقد قال بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم حيث يقول : «الناس اثنان عالم ، ومتعلم ،

---

٧ ـ المرجع ذاته .

وماعدا ذلك همج رعاع لايعبأ الله بهم»[٨] .

هذه الخطبة المحقرة للعامة التي أوردها المسعودي ، والتي نجد مثيلاتها في كثير من خطب الحكام المسلمين ، قد ترسخت بعمق في ذهنية المسؤولين الحاليين وعاودت أخذ التعريف الذي أصبح مثالياً من الخليفة **علي ابن أبي طالب** ، الذي صُرع أيضاً بطعنات خنجر أحد العصاة . فكان قد سُئل عن رأيه في العامة فقال : «همج رعاع اتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق ، وأجمع الناس في تسميتهم على أنهم غوغاء وهم الذين إذا اجتمعوا غلبوا ، وإذا تفرقوا لم يعرفوا»[٩] . كل الصليبيات التي يغذيها بعض السياسيين الإسلاميين الرجعيين حالياً ضد الغرب وضد ديمقراطياته البرلمانية المعتبرة غريبة عن روح الإسلام ، تتأتى مما تخربه هذه الصليبيات ـ حسب رأيهم ـ بصورة تامة لصورة السلطة السياسية التي ، كما رأينا ، لايوجد لها علاقة مع المثل الأعلى للخليفة في بداية الهجرة ، صورة إمام متنور بالشريعة ، متنبه لشعبه ، قريب منه في جامع لاتوجد فيه حواجز ، مثل أعلى لإسلام سياسي ، لم تتوصل خمسة عشر قرناً من الطغيان إلى زعزعته ، وفي هذا توجد المعجزة ، اللغز وتحدي الأزمنة الحديثة .

يمكن الحديث عن المعجزة لأن الحلم يتحدى التاريخ ، ويتكشف بكليته كتيما لهذه الدروس . ويمكن التكلم أيضاً عن المعجزة لأنه خلال خمسة عشر قرناً ، نهضت الشعوب باستمرار ضد طغيان حكامها دون أن ينجح غضبها وألمها في اكتشاف منطلق خارج حلقة العنف . ويمكن أخيراً الحديث عن تحدٍ في المقياس الذي اصبح فيه الاقتراع العام ، المستعار من

---

٨ ـ المسعودي (مروج الذهب) دار المعرفة ، ج٣ ، ص٤٤ .

٩ ـ المرجع ذاته .

الغرب العلماني فعلاً ، أصبح منذ الاستقلال القومي ، ممارسة مؤسسة ، ومهما تكن محدودة . ومن المهم هنا ملاحظة أنه ، في العالم الإسلامي الحالي ، لم يجر نقاش بعد عن مشروعية التصويت بالاقتراع العام ، وإنما فقط عن درجة تزوير نتائجه ، الأمر الذي يكون خطوة إلى الأمام نحو قبول الشعب كمصدر للسيادة . ومع ذلك لم يوجد أكثر غربة عن السلطة السياسية في الإسلام السياسي ، من الاعتراف بالشعب كمؤتمن على السيادة ، الفكرة الكريهة التي لم يستطع أكثر الخلفاء ورعاً ملامستها .

لقد عرف الإسلام ، خلفاء اتقياء كثيرين تألموا من عدم تمكنهم من تطبيق مارسمه الكتاب المقدس كشريعة وطريق في آن واحد للعدل على الأرض والجنة في السماء . « . .يُحكى أن عاصفة هوجاء هبت يوماً على مدينة **بغداد** وأوشكت أن تدمر ابنية المدينة برمتها وتدفن السكان تحت خرائبها . وقد شوهد **المهدي** (زوج **خيزران** ووالد **هارون الرشيد**) راكعاً في قصره وهو يدعو : «ياإلهي ، لقد أوليتني حراسة أمة رسولك ، فلا تعاقبها بذنوبي الكثيرة . فبحق وجه نبيك المنير **محمد** انقذ هذه المدينة ! واستمر يصلي هكذا بحماس إلى أن توقفت العاصفة»[١٠] . من كان سيعرف على الاطلاق اتساع عزلة الخليفة المعذب بغم عدالة مستحيلة ؟ إنه الوجه الآخر لتاريخ اسلامي ينبغي كتابته يوماً ما . من كان يعرف ليالي الإمام البيضاء ؟ ومع ذلك غالباً ماحصل لهم أن صلوا كأطفال ضائعين بليال مقمرة . يروي **الربيع** حاجب **المهدي** الواقعة التالية : «أُخبرت في إحدى الليالي ، أن المهدي قد نهض ، وكان لوحده في غرفته الخاصة يُصلي . وقد دخلت إلى هذه الغرفة التي كانت قد طرشت ببساطة بالكلس الأبيض وبدون أية زينة ، وكان النور الأبيض من القمر الذي سقط على

---

١٠ ـ الطبري ، التاريخ ، دار الفكر ، طبعه ١٩٧٩ ، ج١٠ ، ص ١٥ .

الجدران وعلى الديوان قد تناسق تماماً مع اللون الأحمر لسجادة كانت تغطي أرضها ، وعليها كان يجلس **المهدي** مرتدياً ثياباً بيضاء[١١] ، ووجهه متجه نحو الديوان ، وكان يتلو القرآن بصوت ناعم ولم يلاحظ حضوري . وقد أثار اعجابي في آن واحد ، هذه الغرفة وضوء القمر الذي ينيرها والخليفة المتضرع إلى الله وصوته الرخيم . . .»[١٢] . كثيرون من الخلفاء المسلمين استغرقوا في الصلوات بأمل أن يتمكنوا من تحييد العنف ، التمرد والعصيان الذي أخفاه عنهم الحجاب .

بمقارنة المفهوم السلبي للشعب ـ العامة ، بالمفهوم الايجابي للشعب المواطن الغربي للغاية ، نتحقق لماذا أن كل نقاش حول حقوق الفرد هو في الواقع نقاش فاحش لايمكن صياغته إلا في مصطلح الحجب ، أي عتبات التحريم وحدود الحماية . فالفحش هنا مزدوج : إنه يأتي من واقعة أن سيادة الشعب المواطن تنتزع المشروعية السياسية من القبة السماوية وتخفضها إلى مستواها الدنيوي ، و ترفع راية الفردية الغربية ضد قانون الجماعة الذي يحكم الشرق ويضفي الشرعية على طغاته . ولسبب أقوى فإن هذا الفحش المزدوج تصعب إدارته ، اذ أنه منذ الاستقلال ، كشفت الدول الإسلامية عن وجودها المعطوب من تناقض الغموض : فالاسلام سوف يصبح دين الدولة من جهة ، وستعترف الدولة بذلك ، باقامتها برلمانات منتخبة باقتراع شامل ، و بالسيادة الهابطة من السماء نحو أعماق الإرادات المتأرجحة للناس من سكان مدن الصفيح . . الذين يعانون سوء التغذية . منذئذ ، لاتحافظ الدولة الإسلامية على وضعها إلا بنشر مسرحها على مسرحين

---

١١ ـ يُوصف المهدي هنا بارتداء اللباس الأبيض . سبق القول إلى أن العباسيين كانوا يرتدون اللباس الأسود . مامن تعارض ، فالأسود هو لون جلساتهم الرسمية ، والأبيض يرتديه الجميع في الصلاة ، الملوك أو الناس العاديين من أمثالكم وأمثالي .

١٢ ـ الطبري ، (تاريخ الأمم والملوك) دار الفكر ط١٩٧٩ . ج ١٠ ، ص ١٥ .

متناقضين جذرياً : مسرح خليفي ومسرح برلماني . ومن هنا معاودة مضاعفة الأحجية وتعدد جامح للعتبات .

فإلى جانب المسرح الخليفي التقليدي الذي يتميز فيه الشعب بعلامة سلبية العامة ، حاملة الفوضى ، ينتشر منذ نهاية الاستعمار والوصول إلى الاستقلال مسرح ثان ، المسرح البرلماني حيث يُمنح الشعب فيه عقلاً ويتمتع بكل الحقوق بما في ذلك حقه بتعيين رئيس الدولة الأعلى ، الأمر الذي يمكن أن يوصل إلى مزاعم مضللة كانتخاب امرأة مسلمة .

إن المادة الأولى من الاعلان العالمي لحقوق الانسان تشكل مخالفة تامة للحجاب ومنطقه :«**كل الكائنات البشرية تولد حرة متساوية في الكرامة والحقوق . وهي ممنوحة عقلاً وضميراً**» وتشكل المادة ١٩ انقطاعاً كاملاً مع مفهوم العامة الدموية وغير المنضبطة : «لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير ، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة ، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين ، بأية وسيلة ودون اعتبار للحدود» . وما هو تعريف للفتنة ، الاضطراب على المسرح الخليفي ، مبني على طاعة العامة وصمت النساء المقنع . إن فتنة انتخاب **بنازير بوتو** لوظيفة رئيسة للدولة ، هي فتنة انتصار امرأة منتخبة بتصويت من العامة الباكستانية ، في ١٤١٠ هجرية (١٩٨٨)م ، لوظيفة رئيسة عليا ، وهذا عمل يسوّر هذه المعترضة الضخمة لخمسة عشر قرناً من الطغيان التيوقراطي ، ، كما كان يقول **ابن خلدون** الذي ارتعش من أجل حياته بالأمس كأي واحد منا اليوم .

إن ميثاق حقوق الانسان الذي صادقت عليه الدول الإسلامية بما يشبه الإجماع بعد الحرب العالمية الثانية ، قد دمر وحدة الحقل السياسي ، وشقه من ذلك الحين فصاعداً إلى مسرحين ، يمكن أن يكونا متناقضين لكن كلاً منهما بحاجة إلى الآخر أيضاً . إنهما ضروريان لأن المسلمين لم

يضبطوا بعد ، كما في زمن **هارون الرشيد** ، مسيرة الامبراطوريات ، وايقاع الكواكب ومقياس الزمن . فإلى جانب تقويمهم الذي يحسب الشهور دائماً على اساس القمر من سنة ١٤١١ ، أقاموا تقويماً آخر ، عجيباً وغريباً ، سريعاً ومزعجاً ، يورق سنة موازية ، يرمز لها بسنة ١٩٩٠ . إنه مسرح مزدوج ، وتقويم مزدوج ، دوار زمن لم يعد يعني ماكان يفترض أن يعنيه ، بل هو بحاجة لأن يتضاعف ، ولأن يوشم بزمن آخر يخص الآخرين كي يتدعم ويكون له معنى . تقويم مضاعف ولكنه يخدم كل واحد من الأسياد ذوي المقتضيات المتناقضة . تقويم من أجل الصلاة وآخر من أجل تسديد الديون ، تقويم يميز ساعة **مكة** المقدسة ، وساعة أخرى تميل لنزوات البورصة وتعكس تقلبات الدولار .

إننا مجبرون أن نعمل على مسرح مزدوج ، وفي تقويم مزدوج ، وأن نحمل هوية مزدوجة ، وأن نكون مواطنين أسياداً هناك ومسلمين طائعين ومؤمنين هنا . إننا مجبرون ، من أجل استمرارية الحياة أن نتعلم الرقص على إيقاع مفكك المفاصل لما يمكن تسميته الـ «مدينة ـ ديمقراطية» .

هذا التأرجح ، هذا الرقص المعتوه بين مسرحين ليسا متعارضين فحسب ، بل لايمكن التوفيق بينهما ، مسرح خليفي حيث السيادة واحدة فيه ، سيادة جماعة أمة متركزة في إرادة إلهية هي موحدة وواحدة بالضرورة ، ومسرح برلماني حيث السيادة مفتتة بين ملايين الأفراد ، الكل مهمون ، الأولون كما الآخرون ، وهذا التأرجح هو الذي يستنفذ طاقاتنا ، نحن سكان المدينة ـ الديمقراطية . علينا باستمرار أن نتيقظ ، حسب الشخصية التي نواجهها ، وتسوية اقنعتنا وملاءمة وضعنا ، ولاسيما معرفة الامساك بلغتنا . إن التكلم بحرية ، مكسب مقدس للمواطن على المسرح البرلماني ، وهو محقَّر ومدان كبدعة ، كجرم ، على المسرح الخليفي . لغة **المؤمن** هي أحادية الوظيفة monofonctionnelle : تلاوة معرفة

الأجداد هي واجِبُه ومبرر وجوده . لغة المواطن ، على العكس من ذلك ، متعددة الوظيفة Plurifonctionnelle يمكن بالتأكيد تكرار معرفة الأجداد ، ولكن كل واحد يُشَجَّع لِقَوْلِ أشياء جديدة ، لأن يتصور ليس معرفة جديدة فحسب وإنما عالماً جديداً . ليس لمؤمن حق بأن يقول أو أن يكتب مايشاء ، وبخاصة مايجول في رأسه حيث لاينبغي أن يجول فيه سوى ماقرره التقليد . وإنه من أجل ذلك ، يأخذ سكان المدينة الديمقراطية الذين ينسون انتماءهم المزدوج بالتوازي إلى مسرحين متناقضين ومتعارضين ايديولوجياً ، يأخذون قلمهم الجميل ليكتبوا كتباً لاتتشابه في شيء مع كتب السنة ويرون أنفسهم ، من وقت لآخر ، مخاصمين للأئمة . فهؤلاء المنطقيون رغم الظواهر ، لايفعلون شيئاً سوى تذكيرنا بما هو بديهي . لايمكن أن يكون المرء مسلماً طائعاً حسب تعريفه ، وأن يتكلم في الوقت نفسه .

منذ بضعة أشهر ، وأثناء المجلس التأسيسي لمنظمة حقوق الانسان المراكشية ، فاجأ أحد العلماء البارزين من مراكش ، والمدعو كضيف شرف حيث كان الجميع يتوقعون حديثاً منه ، فاجأ الحضور ، وأكثريتهم من أساتذة الجامعات والمحامين ، وهو يذكرهم بقوله :

«إن لدي انطباعاً ، أيها الأخوة والأخوات في الإسلام ، ان كثيرين من بينكم ممن تكلموا وتعرضوا لحرية التعبير ينسون أن المؤمن الفاضل لايستطيع القول كما يشاء . فهنالك أشياء كثيرة لايحق له أن يقولها» . .

ولم ينهض أحد في قاعة الاجتماع ليعترض وليطالب بحقه في حرية الكلمة . لماذا ؟ لأن الكلام الحر في المدينة ـ الديمقراطية يمكن أن يوصلك رأساً إلى السجن ، إذا لم تُطوِّع باتقان رقص الأقنعة وألاعيب التغيير المفاجئ . انظر إلى هؤلاء البائسين «سجناء الرأي» الذين يعدون بالألوف في البلدان الإسلامية ، والذين اشارت إليهم تقارير منظمة العفو الدولية

الأخيرة . فما هي مشكلتهم وكيف توصلوا إلى مكانهم الآن ؟ لقد نسوا شيئاً يذكرنا به الأئمة كل صباح : على المسرح الخليفي لايوجد مكان إلا لرأي واحد ، هو الرأي الذي يشيد بحقيقة الخليفة المقدسة .

إن مشكلتنا نحن سكان المدينة ـ الديمقراطية ، هي أننا الشريك الخاص لأنفسنا . إننا نلعب المهزلة (الكوميديا) لذاتنا ، ونرقص بين المسارح التي لايمكن التوفيق بينها ، وهنا تتعقد الأشياء بالنسبة لأنفسنا الفقيرة المحتاجة ، إلى محرك يلزم على أن يدور في الفراغ . وأن ينفق طاقة مجنونة بكل بساطة كي نبقى متوازنين .

إن الناس الذين يعيشون في ديمقراطيات غير معقدة ، حيث الحق في حرية التعبير تلامس الانحلال ، وأولئك الذين يعيشون في ثيوقراطيات غير معقده حيث ليس لأحد ، سوى الرئيس ، الحق بالكلام ، لايوجد لديهم أية مشكلة . فكل واحد يعرف مكانه ويعرف القانون الذي يتحكم بحركة لسانه . ويلخص مثل مغربي هذا الوضع تماماً : «اللسان مافيه عظم» فيمكنه إذن أن ينزلق بسهولة ، وللأسف فإن انزلاقات اللسان ، ليس لها مضمون واحد . فانزلاق اللسان في فرنسا يشكل زلة لسان تبعث السرور للمحللين النفسانيينن والشيوخ الروحانيين الكبار في المسرح البرلماني . ولكن تسليتك بأن ينزلق لسانك حيال خليفة ومسرحه ، سوف يعرضك إلى كارثة . ومن المفارقة في هذا الشأن ، أنه على هذا المسرح الذي لايوجد عليه وزن ثقيل للفرد ، فإن لزلة اللسان مفعول قصف رعد مدمر يهز الأرض والسماء ، ويؤرجح صاحبها في فحش ملعون . فعندما كنت صغيرة وعدت من مدرسة قرآنية وقدماي متورمتان من الفلقة ، سألتني جدتي التي كانت تحاول دائماً أن تلقنني السعادة : «ولكن ياصغيرتي ، ماذا فعلت بدقة ؟» كنت أكفكف دموعي المهانة والغيظ ، وبدأت أزن صياغة الجواب : «كنت أريد أن أقول للفقيهة . . .» ولكن جدتي التي بلغت الخمسين من عمرها

في الحريم قاطعتني حتى قبل أن أنتهي من الجملة الأولى : «ياصغيرتي ، لاحاجة بك لتكملي . لقد ارتكبت خطأً فادحاً ، لقد أردت أنت ، قول شيء ما للفقيهة ، في مثل سنك لايقال أي شيء ، لاسيما إلى من هم أكبر منك سناً . ينبغي الصمت . لاتقولي شيئاً . وسوف ترين أنك لن تتلقي المزيد من الضربات» . لقد ماتت جدتي في حين كان لي من العمر ثلاث عشرة سنة ، وذلك بعد ظهر أحد الأيام الجميلة من فصل الصيف . لقد نَمَت قامتي ، وعرضت أكتافي ، وتركت المدرسة القرآنية واجتزت الحياة بخطوة واثقة بحثاً عن الكرامة . ولكن مسيرة حياتي كانت تنقطع دائماً بالمشورات المذعورة من أولئك الذين يحبونني ، والذين كانوا يريدون لي السعادة . وكانوا يرددون دائماً الشيء نفسه . ينبغي السكوت كي لاتتلقي الضربات .

إن الفرد في المدينة الديمقراطية يركز كل جهوده على عضو أولي : اللسان ، وترويضه ليجعله ينسى الأساسي : المخ وعمل التفكير . وفي حين أن الغربيين يُركزون على التفكير ، فإننا نحن سكان المدينة الديمقراطية ، نستثمر جهودنا في فن الكلام . ولكن للتعبير عن ماذا ؟ أغلب الوقت لانعلم شيئاً . ومن أجل هذا فإن لقاءاتنا تمتد حتى منتصف الليل ومؤتمراتنا لاتنتهي . ويفسر هذا أيضاً أنهار خطب المخططين ، و السياسيين و التقنيين عندنا والمثقفين كيفما كان لونهم السياسي . خطابات ترجع عندما تخضعها للتحليل الدقيق من حيث مضمونها ، إلى مجرد تبادل ألفاظ لاتتضمن جديداً ، وقلما تكون على مستوى فكري . وقد يكون ذلك لأن أهلية الكائن البشري في تطوير ذهنيته ، مرتبطة بدرجة مسؤوليته عما يجري على ارضه . وطالما أن الأرض تعود لغيره فإن الحاجة إلى التفكير تصبح غير مفيدة .

إن المواطن والمؤمن لايرتبطان في الفضاء بطريقة واحدة ، وذلك

لسبب بسيط هو أن السماء والأرض تُحكمان بقوانين مختلفة وتمتزجان في هندسة كونية تضم الجسد البشري وإرادته في ثقل مميز . إن السماء على الكوكب الخليفي ، غير محدودة ، وهي واسعة وكلية الحضور ، وهي تسحق الأرض بقوتها الإلهيه وسيادتها المقدسة . ومهما كانت الأرض مسكونة ، فهي تزن قليلاً على المسرح الخليفي . إنها صغيرة جداً إذا قورنت بعظمة السماء الساحقة . إنها على الأخص ، منحطة إذا قورنت بالروحانية المنيرة التي تغير السماء . صغيرة هي ، أرض المؤمنين ، المادية والمثقلة بالشهوة ، وأرض الخلافة هذه منحطة ومذلة ، لأنها مسكونة بكائنات من الأقزام تجاه الأبدية الإلهية اللامتناهية . ونحن ، على هذا المقياس للسماء اللامحدودة وفي الزمن والفضاء ، نقيس الأرض وسكانها الذين هم من نوع صغير جداً . وعلى العكس من هذا ، لايوجد على المسرح البرلماني سماء ، وفي كل الأحوال هي خارج المسرح السياسي . فالأرض تشغل كل الفضاء ، والمواطنون عمالقة ، أسياد بعضهم كالبعض الآخر ، يدوسون بأقدامهم الفانية أرضاً تكمن عظمتها في نهايتها المأساوية ، إنها نهاية محسوبة بذكاء بشري عالي القوة ، طور أدوات لقياس كل شيء ، بما في ذلك عدد السنوات الباقية قبل أن تغوص الأرض التي ينتمي إليها في الثقب الأسود .

إننا نحن سكان ، المدن الديمقراطية ، المتأرجحون بين السماء والأرض ، رواد فضاء رغماً عنا بدون ثياب فضاء ، وبدون أقنعة أكسجين ، ومتروكون في هذا الرقص الكوني سافرو الوجه وراحات أيدينا مفتوحة . مع هذا الفارق الذي لاينبغي إهماله ، فإننا نحن النساء يجب علينا فعل كل هذا الدوران مع إضافة الحجاب علينا . يا الله ! عندما أفكر بقوتنا : ولكن صه ! لاينبغي التكلم مطلقاً . . . خاصة وإننا قد نخاطر بإصابتنا بالعين الشريرة . . . .

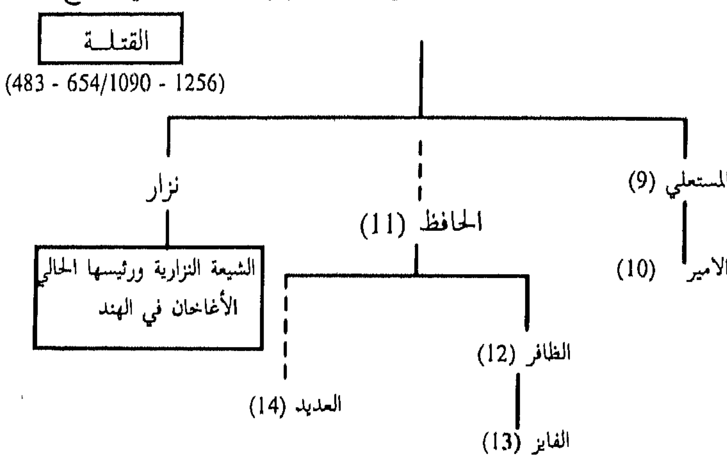
لائحة سلسلة الأنساب

فرع الأئمة الاسماعيليين

الأسرة الفاطمية (297 - 909/567 - 1171)

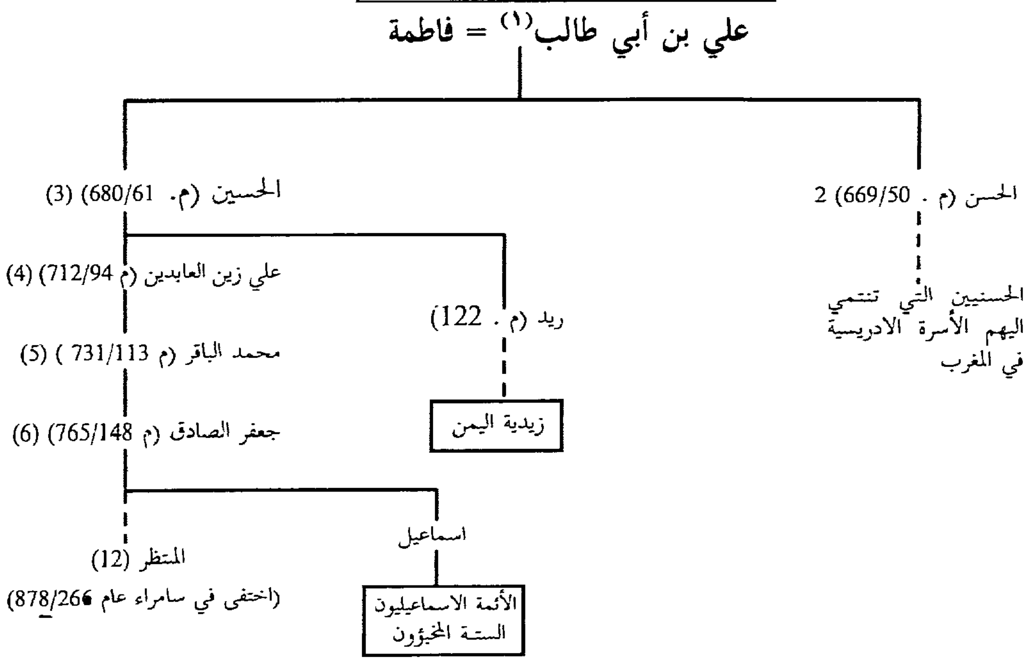
المهدي (1)
القائم (2)
المنصور (3)
المعز (4)
العزيز (5)
الحاكم (6)
الظاهر (7)
المستنصر (8)

حسن الصبّاح

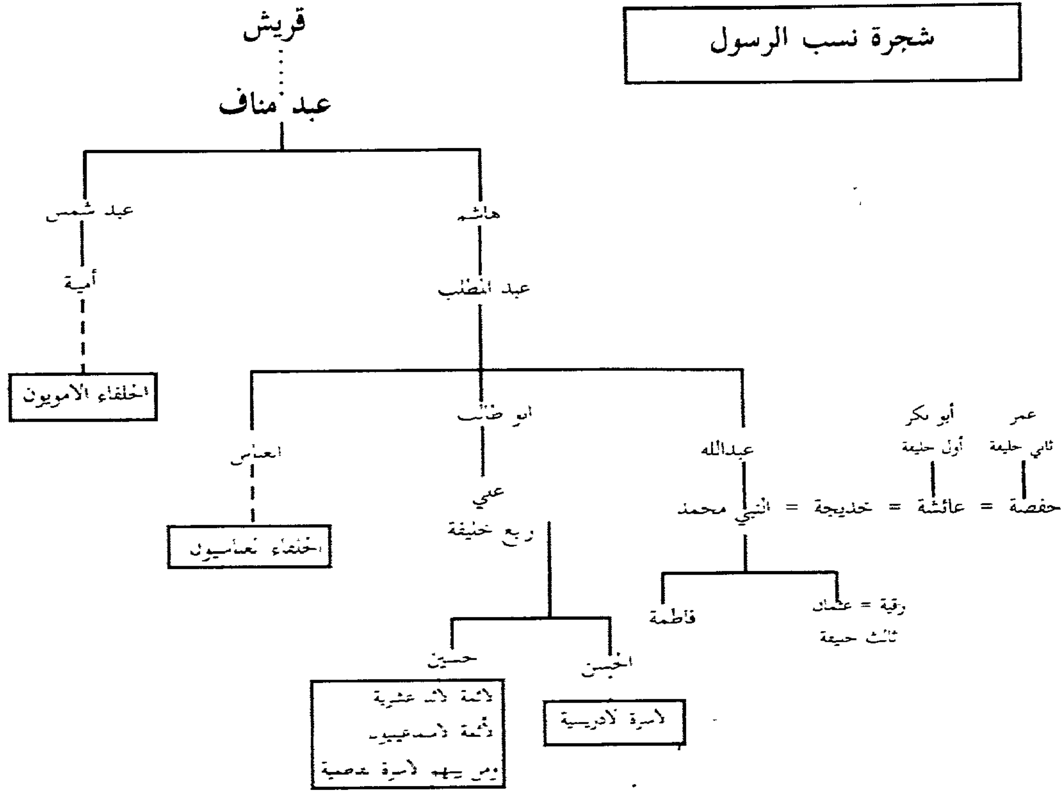


الاسرة الفاطمية

فرع الأئمة الاثنا عشرية



شجرة نسب الرسول



من اصدارات الدار الفكرية

ـ ثقافة السريان في القرون الوسطى
تأليف : نينا بيغوليفسكايا
ـ الحريم السياسي (النبي والنساء)
تأليف : فاطمة المرنيسي
ـ عمل الدعاة الاسلاميين في العصر العباسي
تأليف : خير الله سعيد
ـ لعبة الممكنات (تباين الكائن الحي)
تأليف : فرانسوا جاكوب
ـ العنف والمقدس .... تأليف : رينيه جيرار
ـ العشق الجنسي والمقدس .... تأليف : فيليب كامبي
ـ مديح الاختلاف .... تأليف : ألبير جاكار

ـ من الوعي الاسطوري الى بدايات التفكير الفلسفي النظري
(بلاد ما بين النهرين تحديداً)
تأليف : عبد الباسط سيدا

العبودية .... تأليف : موريس لانجليه
ترجمة : الياس مرقص
يتألف الكتاب من جزئين ـ تحليل مؤسسة العبودية
ـ تاريخ العبودية مع مقدمة مطولة من المترجم بعنوان (التقدم ، وبعض قضايا الفكر العربي المعاصر) اضافة الى ملحق يشتمل على معجم موسع حول جميع المصطلحات المتعلقة بالموضوع واستعمالاتها عبر مراحل التاريخ الفكري .

الفهرس

من اصدارات الدار
/في مجال الدراسات الادبية والفنية/

ما هو الفن .... تأليف : ليف تولستوي
شكسبير والدراما .... تأليف : ليف تولستوي
دراسات في الادب والفن .... تأليف : دوبرولوف + تشيرنيشيفسكي
قضايا الابداع في قصيدة النثر .... تأليف : يوسف حامد جابر

الفن عند الانسان البدائي

يعالج الكتاب الفن عند الانسان ما قبل التاريخ أي قبل الكتابة ، والدراسة موثقة باللوحات والرسوم المأخوذة من جدران الكهوف /حوالي ٤٥٠ لوحة/

تأليف : يان إيليك .... ترجمة: د. جمال الدين الخضور

علم الهارمونية

هو أول كتاب شامل لعلم الهارمونية باللغة العربية يجمع بين الشرح النظري، والتطبيق العملي معاً ، ومحتوياته تهم الأستاذ والطالب والموسيقي المحترف والهاوي في آن .

ويتناول الهارمونية التوافقية والتنافرية والكروماتية بالتسلسل الذي يمكّن الدارس من تكوين قاعدة متينة ، تؤهله لدخول عالم التأليف الموسيقي المتكامل . وتلبي مواضيع الكتاب متطلبات المعاهد الموسيقية العليا وكليات الموسيقى والتربية الموسيقية .

تأليف : د. محمد عزيز شاكر

أعمال أدبية صادرة عن الدار

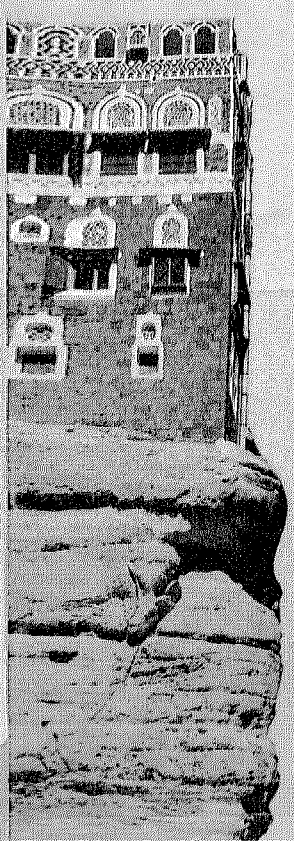
- حرائق في السهل (رواية يابانية) ... تأليف : شوهي أُوُكا
- الخيول (رواية) .... تأليف : احمد يوسف داود
- لن يمروا (رواية) .... تأليف : دولوروس ايباروري
- الفهد (رواية) .... تأليف : حيدر حيدر
- الوعول (قصص) .... تأليف : حيدر حيدر
- اسفل السافلين (قصص) .... تأليف : عزيز نسين
- سولاريس (رواية في الخيال العلمي) ..... تأليف ستانسلاف ليم

نساء رئيسات دولة

في الإسلام

وتحاشياً لكل سوء فهم وكل تشويش ، فإنه من الطبيعي ، في كل مرة أتكلم فيها عن الإسلام دون أي وصف في هذا الكتاب ، فإني أقصد الإسلام السياسي ، الإسلام كممارسة للسلطة ، وأعمال الرجال المدفوعين بمصالحهم ، والمشبعين بالأهواء ، وهو ما يختلف عن الإسلام ـ الرسالة ، الرسالة الإلهية ، الإسلام المثالي المدوّن في القرآن (الكتاب المقدس) . وعندما أتكلم عن هذا الأخير فإنني أعبر عنه بالاسلام كرسالة ، أو الإسلام الروحي . .

من مقدمة الكاتبة



ولا يسعنا في الختام إلاّ أن نشير الى تلك الحالة التي غالباً ما تواجه قسماً كبيراً من القراء في مرحلتنا الراهنة ، على امتداد منطقتنا العربية ، الحالة المتمثلة في التعامل مع ما يُطرح من أفكارٍ جديدة في بعض الكتب . فمن جرّاء (التعب) الذي نعانيه والناجم عن الاحباط الشديد في قضايا عديدة ، نندفع بسرعة ، إمّا الى تقبل هذه الأفكار كلّيةً وإما الى رفضها كلية . وفي كلتا الحالتين تأتي النتائج مخيبة . إنه لمن الأهمية بمكان ، لا بل من الضروري تماماً /حسب اعتقادنا/ أن نحافظ على هدوئنا ونحن نُقبل على قراءة مثل هذا النوع من الكتابات، ونُعمل عقلنا في تتبّع وتفحصٍ دقيقَيْن لها .

من مقدمة الناشر

دار الحصاد للنشر والتوزيع
دمشق ص. ب: ٤٤٩٠
هاتف: ٢٢٤٦٣٢٦